من القصص الإسلامي

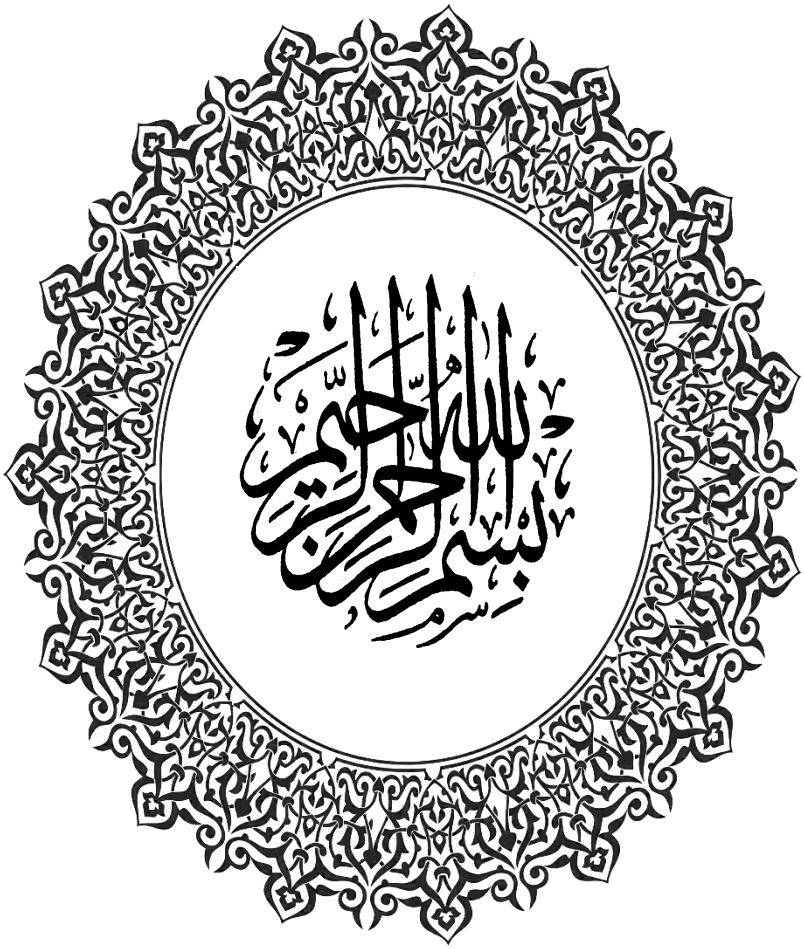
بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر الشريف
هيئة كبار العلماء

من القصص الإسلامي

الجزء الأول

فضيلة الأستاذ الدكتور

محمد رجب البيومي

(ت ١٤٣٢هـ -٢٠١١م)

الأزهر الشريف
هيئة كبار العلماء

الأزهر الشريف

هيئة كبار العلماء

تليفون : ٠٢٢٥٩٣٩٠٤٦
فاكس : ٠٢٢٥٩٣٩٤٦

البريد الإلكترونى :
SeniorsCouncil@alazhar.eg
الموقع الإلكترونى: **www.azhar.eg /scholars**
العنوان :
ش الأزهر – أمام مسجد
سيدنا الإمام الحسين – القاهرة

*****

فهرست الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية:

من القصص الإسلامي
د.محمد رجب البيومى

ص: ١٧,٥ × ٢٥ سم
عدد الصفحات: ٢٤٤

الطبعة الأولى

لهيئة كبار العلماء

١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠ م

متعهد الطبع :

مجمع مطابع الأزهر الشريف

تليفون : ٠٢ ٢٦٨٤٠٥٥٧

فاكس : ٠٢ ٢٦٨٤٠٥٥٧

****

تصميم الغلاف :

إسماعيل عبده محمد علي

الإخراج الفني:

طارق الأشهب

رقم الإيداع : ٢٠١٩ / ٢٧٥٨٣

افتتاحية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا رسولِ اللهِ، وآلِه وصحبِه ومَن والاه ... وبعد:

فإن مركزَ اتزانِ الكرةِ الأرضيةِ ـ جغرافيًّا وفكريًّا ومجتمعيًّا ـ هو العالمُ العربيُّ والإسلاميُّ؛ الذي يستندُ إلى (**مصر الأزهر**) وبها قِوامُه؛ يأخذُ منها ويتلقى عنها؛ جيلاً وَراءَ جيلٍ.

وبريادة فضيلةِ الإمامِ الأكبرِ الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخِ الأزهرِ وتوجيهاته؛ **يقوم الأزهر الشريف** بأداء واجبه من خلال منهاجه الوسطي الأصيلِ، وعالميةِ رسالتِه وعِلميتها؛ فيعمل على:

- إنارةِ العقولِ وَهِدَايَتِهَا، والعملِ على رقيِّها ويقظتِها.
- وقايةِ المجتمعاتِ من انحرافِ الأفكارِ وتشددها، وباطلِ الآراءِ وساقِطِها، ومرذولِ العادات ودخيلِها.
- وقد وسعت وسطيته وعالمية رسالته: تنوعَ الفُهومِ، واختلافَ العاداتِ، وتعدُّدَ الثقافاتِ؛ وصار ما تُصْدِرُهُ أرضُ الكنانةِ محطَّ الأنظارِ، ومبعثَ القدوةِ والاحتذاءِ، وبخاصة فيما يمسُّ الشرعَ الشريفَ.

وتأتي هيئةُ كبارِ العلماءِ وهي قمةُ الجهازِ العلمي في الأزهر الشريف؛ لتقوم بدورها في هذا السبيل، مِن:

- تجليةِ صحيح الدين، وبيان وسطيته واعتداله: عقيدة وشريعة وأخلاقًا.
- تصحيحِ المفاهيم، وردّ الشبهات، وكشفِ عوارِ الأفكارِ المنحرفةِ والمتطرفةِ.
- معالجةِ قضايا العصر ومشكلاته.
- تلبيةِ حاجات المجتمع، وإجابة تساؤلاته.
- ترسيخِ قيم التعايش والمواطنة، ودعم رفعة الأوطان ورُقيِّها.

ويتجلى طرف من ذلك في هذه الإصدارات للسادة العلماء الأجلاء؛ أعضاءِ الهيئة-ومَن في درجتهم-قدامى ومعاصرين

وبين أيدينا كتاب "من القصص الإسلامي" للعالم الجليل، والأديب الكبير، والأزهري المتمكن الأصيل، فضيلة الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي عميد كلية اللغة العربية الأسبق، وعضو مجمع البحوث الإسلامية، حيث يقدم لنا في هذا السِفر -بجزئيه-، مائدة علمية حافلة، تأتى بالوقائع التاريخية معروضة في أسلوب أدبي رفيع، وتطلعنا من خلال تلك الوقائع- على التجربة والقدوة معًا؛ إذ التجربة تقى من الخطأ، والقدوة تبعث على الجدِّ والعمل والإقبال..، وسيجد القارئ الكريم في هذا الكتاب ما يمتع ويُقنع ويفيد .

وبالله تعالى التوفيق

أ.د/ صلاح محمود العادلي

أمين عام الهيئة

الدكتور محمد رجب البيومي

بطاقة حياة [1]

تمثل بطاقات الحياة لرموز الفكر نوعًا من التأريخ الذي يعطي صورة تقريبية عن محطات مهمة في مسيرة العمل العلمي والكفاح الفكري، وتتكامل بداية ونهاية لتصوغ ملامح مسيرة ميمونة من العطاء النابض بالحياة، وتعطي -في مجملها -نموذجًا رائعًا للأجيال الصاعدة حتى تقتفي الأثر وتسير على النهج.

- ولد الدكتور محمد أحمد البيومي، والذي اشتهر باسم محمد رجب البيومي في قرية الكفر الجديد – مركز المنزلة – محافظة الدقهلية (١٣٤٢هـ – ١٩٢٣م).
- تخرج في الأزهر الشريف حيث حصل على شهادة العالمية من كلية اللغة العربية سنة ١٩٤٩م.

---

(١) عقب وفاة الدكتور محمد رجب البيومي، وتحديدًا في شهر ربيع الثاني، وجمادى الأولى، من عام ١٤٣٢هـ، انبرى كتاب مجلة الأزهر الأفاضل في الكتابة عن الدكتور البيومي، وكان الاعتماد على ما كتب في مقالات هذين العددين.

- عمل مدرسًا للُّغة العربية بالتعليم قبل الجامعي في الإسكندرية والفيوم.
- حصل على دبلوم معهد التربية العالي سنة ١٩٥٠م.
- حصل على الماجستير في عام ١٩٦٥م بعنوان (الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير).
- حصل على الدكتوراه في عام ١٩٦٧م، في الأدب والنقد عن أطروحة بعنوان (البيان النبوي).
- عين بجامعة الأزهر إثر حصوله على الدكتوراه مدرسًا بكلية اللغة العربية، وارتقى في سُلَّمها حتى نال الأستاذية، ثم عمل عميدًا لكلية اللغة العربية بالمنصورة لمدة عشر سنوات.
- عمل أستاذًا بجامعة الإمام محمد بن سعود بالمملكة العربية السعودية.
- أشرف على أكثر من ثلاثين رسالة جامعية للماجستير والدكتوراه، كما شارك في مناقشة أكثر من خمسين رسالة جامعية في مصر والعالم العربي.

- شارك في العديد من المجلات الفكرية والأدبية، فنشر فيها إبداعاته المتميزة، وذلك في: الرسالة، الأديب، منار الإسلام، الثقافة، التضامن الإسلامي، رابطة العالم الإسلامي، الكتاب، الأقلام، الحج، الهلال، الوعي الإسلامي، المنهل، الأزهر، صوت الأزهر، المنتدى، هدى الإسلام.
- انتُخِب عُضوًا بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.
- تولى رئاسة تحرير مجلة الأزهر من شهر ذي القعدة ١٤٢١هـ حتى وفاته.
- له مؤلفات في مختلف العلوم والمعارف:

منها في الدراسات القرآنية: (البيان القرآني) و (خطوات التفسير البياني)

ومنها في دراسات السيرة والسنة: (البلاغة النبوية) و (في ظلال السيرة النبوية).

ومنها في التاريخ الإسلامي: (صفحات هادفة من التاريخ الإسلامي) و (من شرفات التاريخ) و (الأزهر بين السياسة وحرية الفكر).

ومنها في الدراسات الإسلامية: (في ميزان الإسلام) و (من منطلق إسلامي).

ومنها في الدراسات الأدبية: (النقد الأدبي للشعر الجاهلي) و (قطرات المداد).

ومن مسرحياته: (انتصار) و(فوق الأبوة) و (ملك غسان).

ومن دواوينه: (صدى الأيام) و (من نبع القرآن).

ومن قصص الأطفال: (المغامر الشجاع) و (الهمة العالية).

وهذه، مجرد نماذج فقط من أعماله التي يضيق المقام عن ذكرها.

- حاز الدكتور محمد رجب البيومي على جوائز عدة منها:

١-جائزة شوقي في الشعر - من المجلس الأعلى للفنون والآداب بمصر سنة ١٩٦٠م.

٢-جائزة مجمع اللغة العربية في الشعر (ديوان) -سنة ١٩٦٢م.

٣-جائزة مجمع اللغة العربية في الدراسات الأدبية - ١٩٦٣م.

٤-جائزة مجمع اللغة العربية - الأولى - في المسرحية الشعرية - ١٩٦١م.

٥-جائزة مجمع اللغة العربية في التراجم الأدبية سنة ١٩٦٤م.

٦-جائزة مجمع اللغة العربية في المسرحية - مرة ثانية - سنة ١٩٧٢م.

- صعدت روحه إلى بارئها في صباح يوم السبت ٢ من ربيع الأول ١٤٣٢هـ. الموافق ٥ فبراير عام ٢٠١١م. رحمه الله رحمة، واسعة وأجزل له العطاء، وجزاه خيرًا عن كل ما قدم للإسلام والمسلمين.

قراءة موجزة في بطاقة الحياة

أولًا: تشهد بطاقة الحياة أن الدكتور البيومي ولد في بداية العشرينيات من القرن الماضي، أي أنه عايش أحداثًا ضخامًا محلية وعالمية، كان لها وقع كبير على الحالة الفكرية والعلمية، والتي أثرت المجلات ودور النشر بالنتاج الفكري الهائل، ومن ثم، كان الدكتور البيومي على وعي دقيق بمجريات الأحداث، وجعل كتاباته سجلًا أمينًا لرصد تطوراتها، وتقديمها بشكل نقدي يعيد نفعها للأجيال اللاحقة، ويخلق منها منابت للاستهداء بها في مسيرة العمل الفكري.

ثانيًا: تؤكد بطاقة الحياة أن الدكتور البيومي انشغل بالتدريس قبل الجامعي ما يقترب من ثمانية عشر عامًا، ولذا، فإن نقده للتعليم بشكل عام، أمر له أهميته الخاصة، لأنه عاين عن قرب المعضلات التي تعترض طريق النهوض بالتعليم، وعايش مشكلاته التي ترتبط بالمناهج والمدرسين والسياسات التعليمية، وعلى إثر ذلك، نفهم المقالات التي جاء عنوانها: - من صميم الواقع، الطفولة المعذبة في

مصر -الكتاب المدرسي عبء ثقيل - متى نصلح التعليم الأساسي - بين الحاضر والماضي ينالون ٩٩ ٪ في الثانوية ثم ينحدرون - من أخطاء التعليم في مصر: الإداريون يتحولون إلى مدرسين - من مصائب المجتمع: الدروس الخصوصية أسقطت التلميذ الفقير - تلاميذنا بين الترف والجريمة - درس مستقل للأخلاق بالمعاهد والمدارس.

ثالثًا: تقرر بطاقة الحياة أن الدكتور البيومي تم تعيينه في الجامعة عقب حصوله على الدكتوراه، وأنه أشرف وناقش العشرات من الرسائل، لكنه في هذه المسيرة لم يكن نمطيًا، يسعى إلى المراكز العليا، ويؤدي واجبه الجامعي، ولكنه زيادة على ذلك، استطاع بحسه النقدي أن يرصد الأخطاء الكارثية التي تكتنف الدراسة في الجامعة، وأن ينبه إلى الأخطار التي تبدد الجهود وتهدر الطاقات، ومن ثم، جاءت مقالاته تحمل عناوين: انحدار المستوى العلمي في الجامعات المصرية - من قضايا المجتمع: مستقبل الطالب الجامعي - أكثر رسائل الجامعات.. هيكل عظمى -من جحيم الواقع: الجامعيون واللغة العامية! - قل

الحق ولو على نفسك! طوفان الدكتوراه. إلى أين؟ - من الأمانة العلمية: تأليفًا – تدريسًا – تقديمًا –لابد للعلم من خلق عاصم.

رابعًا: اكتسب الدكتور البيومي خلال عمله بالمملكة العربية السعودية سمعة علمية طيبة، جعلته حديث كل ناد وواد، ونشرت مجلة المنهل ثلة مائزة من إبداعاته، وأقيمت على شرفه المحافل العلمية، ودعي إليها المتخصصون الذين ذكروا من أياديه العلمية ما يستحق الإشادة به. وأذكر من ذلك محفلًا كبيرًا أقيم في جدة، وطلب من الدكتور البيومي أن يتكلم عن نفسه، فآثر أن يتكلم من خلال أساتذته الذين تأثر بهم على المستوى الإنساني وعلى المستوي العلمي. وهؤلاء هم: العلامة محمد فريد وجدي، والأستاذ أحمد أمين، والأستاذ أحمد حسن الزيات.

خامسًا: تتضمن بطاقة الحياة عددًا وافرًا من المجلات التي اتسعت صفحاتها لمقالات الدكتور البيومي، ومما لا شك فيه أن كل مجلة لها منطلقاتها وأهدافها التي تختلف اختلاف تنوع، وعندما تنشر جميعها للدكتور البيومي فهذا يشير إلى الكفاءة العلمية التي حصل عليها ،

والتي جعلته يومًا ما جديرًا بأن يتربع على قمةِ أعلاها قدرًا، وأكثرها توزيعًا، ألا وهي مجلة الأزهر.

سادسًا: حفلت بطاقة الحياة للدكتور البيومي بالعديد من الجوائز القيمة التي نالها عن استحقاق، وأغلبها من مجمع اللغة العربية، وهي شهادة صدق برسوخ قدمه في الأدب والشعر، لكنه استطاع مع هذا الاستحقاق أن يوظف ملكاته اللغوية في خدمة قضايا الأمة؛ الفكرية، والاجتماعية، والثقافية، والتربوية. وينضاف إلى هذا التكريم نوع آخر لا يقل نفاسة عن التكريم السابق، ويتمثل في الرسائل الجامعية والبحوث العلمية عن الدكتور البيومي، ومنها:

١-الإبداع الأدبي في نتاج الدكتور محمد رجب البيومي. رسالة دكتوراه -كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر -المنصورة.

٢-التصوير البياني في شعر الدكتور محمد رجب البيومي، رسالة دكتوراه -كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر -الزقازيق.

٣-التيار الإسلامي في شعر محمد رجب البيومي، رسالة دكتوراه – كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات – جامعة الأزهر – فرع الإسكندرية.

٤-أشهر شعراء الأزهر في النصف الأول من القرن العشرين، رسالة دكتوراه – كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر – المنصورة.

٥-محمد رجب البيومي بين المسرحية الشعرية والقصة التاريخية، رسالة دكتوراه – كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر – إبتاي البارود.

٦-محمد رجب البيومي، حياته وشعره، رسالة ماجستير-كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات – جامعة الأزهر – القاهرة.

٧-منهج الدكتور محمد رجب البيومي في الترجمة الأدبية، رسالة دكتوراه – كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر – القاهرة.

٨-الدكتور محمد رجب البيومي وجهوده في الدعوة إلى الله، رسالة ماجستير – كلية الدعوة الإسلامية – القاهرة.

ولا زال في إنتاجه العلمي ما يستحق البحث والدرس، لما يتضمنه من إبداع في مجالات مختلفة، وهذه المقالات تساهم في تيسير هذا الأمر على القاصدين من طلاب العلم.

سابعًا: كانت السجايا الخلقية تتنافس مع المزايا العلمية التي اختص بها الدكتور محمد رجب البيومي، وكثر الحديث من عارفيه حول رقة شعوره، ودماثة خلقه، ولين جانبه، وجم تواضعه، ووفائه لمن لهم فضل عليه، والوقائع أكثر من أن يحصيها مقال أو قراءة موجزة.

والله نسأل أن يسكنه فسيح جناته، وأن ينفع بعلمه، وأن يجزيه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، إنه أكرم مجيب، وخير مسئول.

دكتور/ علي عبد العظيم علي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

في التاريخ الإسلامي مواقفٌ رائعةٌ تحتاج إلى عرْض سلِس يُشوِّق القارئ ويجذبه إلى مُتابعة الأحداث دون ملل، والأسلوب القصصي أهدى السُّبل إلى جذب الشبيبة المُتطلعة، كي تعلم مِن صحائف الأمس ما يُنير لها طريقها الحافل بالمُعضلات، حيث تُصبح العِظة التاريخية أستاذًا يُوجِّه، ومصباحًا يهدي.

وأنا حين أكتب هذه القصص التاريخية أسلك سبيلًا مطروقًا سار فيه روادُ الأدب المعاصر، ولكنِّي رأيتُ أنَّ بعضهم يتَّسع اتساعًا شاسعًا في ابتكار الأحداث الخيالية، جوار الوقائع الحقيقية، ولا نُنكر أن الخيال يخدم الواقع، حين يُفسِّر مراميه، ويُوضِّح غوامضه، ولكنَّ المبالغة في اصطناعه قد تخلط الوهمَ بالحقيقة لدى مَن لَمْ يقرأ التاريخ في كتبه الأصلية، وأكثرها بعيد عن متناول الشباب، فيضيع المغزى المراد من تسجيل الماضي، وإعادته بوجهه الصادق، وإيقاعه الدقيق.

لذلك حرصتُ على أن يكون الحوار القصصي في أكثر هذه الفصول مُنسجمًا مع ما كان، دون أن أجنح إلى شطط يلبس الأمر على مَن يقرأ الوقائع لأول مرة، وإذا كان العصر النبوي مشتهر الأحداث بحيث لا تغيب حقائقه عن أحد، فإن ما وَلِيه من العصور تغيب أحداثُه عن جمهرة القُرَّاء، وهُمْ في حاجة إلى الوقوف عليها في نطاقها الواقعي، وأقول في أكثر هذه الفصول لأني تركتُ أسلوب الحوار في قليل ممَّا كتبتُ، ملتزمًا بالحقائق الصادقة دون جموح، رغبة في التنويع.

والتاريخ يُقدِّم القدوة، ويُعطي التجربة؛ والقدوة مثال يُحتذى، والتجربة وقاية من الخطأ، وعون على الصواب، وإذا نجحتْ هذه المشاهدُ في أن تفتح منافذ الضوء، وتدفع إلى مزيد من الرغبة في الاطلاع، فقد أدتْ رسالتها كما أُحب، ومِن الله العون والسداد.

د. محمد رجب البيومي

❁❁❁

ثلاث بِشارات

قحطتِ الأرضُ، وضنَّت السماءُ في عام الرمادة على عهد عمر بن الخطاب، فلاقى المسلمون بالمدينة وما حولها عناءً شديدًا، وأدرك عمر بن الخطاب ما يتهدَّدهم من الخطر، فأخذ يحصر ما لدى الأغنياء مِن القوت، فيضمّه إلى مخزن كبير جعل عليه أربعة من فضلاء الصحابة ليقوموا بالتوزيع العادل على الفقراء، ثم أخذ يقيم المآكل العامة للناس، على أن يتناول الطعام معهم ليكون كأحدهم، وقد أكل ذات مساء خبزًا بسمن مع بعض الأعراب، فوجد الأعرابيَّ يتبع السمن بشغف فقال له: ولِمَ لا تخلطه بالثريد، فقال: ما أكلتُ بالسمن منذ عام يا أمير المؤمنين، فرفع عمر يده عن الطعام، وقال: «والله لن آكله بعد الآن حتى يأكله كل مسلم بالجزيرة».

وكان الفاروق لا ينتظر حتى يأتي مَن يحمل الزاد إلى منازل الفقراء؛ إذ جعل يحمله بنفسه، قال أبو هريرة: «لقيتُ عمرَ بن الخطاب ذات ليلة وقد حمل ما أثقله على كتفه، فصاح بي: كُنْ معي يا رجل، فحملتُ معه، وجعلنا نطوف على عشرين بيتًا من محارب، والفاروق يُقدِّم بيده العشاء لكل بيت، ثم بعث رسلَه إلى مصر والقادسية والشام ليُسعف ولاتُه الجزيرةَ بما توفَّر عندهم من الزاد، ولَمْ يلبث أن قَدِمَ عليه ما جاء مِن عمرو بن العاص والي مصر، ومِن سعد بن أبي وقاص والي القادسية، ومِن معاوية والي الشام، فأخذ يُفرِّق الزادَ والحيوان على الناس مُستبشرًا، ويقول: لولا أن فتح الله هذه البلاد لهلكت الجزيرة، لله حكمة فيما نأخذ ونترك، يعلم عاقبة الأمور».

وفي كل ليلة يجتمع مع أمناء الطعام من الصحابة ليسألهم عمَّا أنفقوا وعمَّا بقي، فقال لهم ذات ليلة: أحصوا مَن تعشى عندنا الليلة، فأحصوهم فوجدوهم سبعة آلاف رجل، فقال: أحصوا مَن أُرسل لهم الطعام في منازلهم بالمدينة وما حولها، إذ نزل من البادية عندها أعراب كثيرون مُلئت بهم الخيام ينتظرون زاد أمير المؤمنين كل يوم، وقد وفدوا من الأماكن النازحة يطلبون الغوث، فأُحصي هؤلاء فوجدوهم أربعين ألفًا، فقال عمر: «الحمد لله، أتناول العشاء وأنا مستريح»، وكان عشاؤه الخبز والزيت، مع أنه أرسل لحم الجزور إلى الآكلين.

ثم بدا لعمر أن يُصلي صلاة الاستسقاء، آملًا في نزول الغيث، ورأى أن تكون الصلاة عامَّة تشمل عرب الجزيرة كلهم، فكتب إلى عماله أن يقوموا بالصلاة في وقت حدَّده، فلمَّا حان الموعدُ، تقدَّم أهلَ المدينة إلى المُصلَّى، وخطب الناس متضرعًا، وتلا ما كان يقوله رسول الله ﷺ عند دعاء الاستسقاء خاشعًا راجيًا، ثم جاء بالعباس بن عبد المطلب عمِّ رسول الله فقال له: «يا أبا الفضل، كُنا عند الكرب نستشفع برسول الله ﷺ وهو حي ماثل بيننا، وأنت أقرب الناس إليه، فادعُ ونحن نؤمِّن مِن ورائك». فجعل العباسُ يدعو، وعمر مِن خلفه يؤمِّن مع المسلمين، ثم كشف اللهُ الغُمَّةَ، فأرسلت السماءُ مطرَها مدرارًا بعد الصلاة بثمانية أيام، فاهتزَّت الأرضُ، ونما النبات، ورعت الماشية، وبدت تباشير الرخاء.

صلَّى العباسُ عمُّ رسول الله ﷺ، ودعا خاشعًا مُنيبًا، ولكن نفرًا من الناس جعلوا يهمسون: «ولماذا العباس، وهو لم يُسلم إلَّا قبيل الفتح!، أما كان علي بن أبي طالب أوْلى وأجدر!»، وطار الهمسُ إلى العباس، فقال: «إن عليًّا ابن أخي، وما كنت أشعر بشيء نحوه لو أن عمر قد اصطفاه! فما دخولكم يا قوم بيني وبين ابن أخي!».

ثم عاد إلى منزله فلقى ولديه عبيد الله وعبد الله، فأنبأهما بما اتصل إليه من همس الناس، وسكت مطرقًا، ثم نظر إلى ولديه قائلًا: «لقد تأخَّر إسلامي المُعلن إلى قبيل الفتح، ولكنِّي كنتُ مُسلمًا منذ جهر ابن أخي ﷺ بالدعوة، وقد أسررت الإسلام لأحاول أن أمنع مِن أذى قريش للمسلمين ما أستطيع! على إني كنتُ مُتيقنًا أنه رسول الله حقًّا وصدقًا منذ أعلن خطبته الأولى على الملأ من قريش؛ إذ كانت لديَّ ثلاث بشارات صادقات، عرفتُها حقَّ المعرفة، فاستبان لي الطريق!».

قال عبد الله لأبيه: «أعرف بعضَ هذه البشارات وأجهل بعضها، ولكنِّي أُريد أن أستوثق فأسمعها جميعًا منك، فإذا رويتها بعد فَعَنْ يقين».

قال عبيد الله: وأنا كذلك يا أبي فتفضَّل بما لديك!

قال العباس: أعرف أنكما معًا تعرفان بشارة بحيري الراهب، وأنا أذكر ما قاله أخي أبو طالب، وما عهدته مبالغًا أو متزيدًا، بل كان الإيجاز ديدنه وربما اكتفى بالإشارة عن الكلام في بعض مواقفه، وقد تحدَّث عن أمره مع بحيرى الراهب فقال: خرجتُ في ركب الشام تاجرًا ومحمد ابن أخي في الثانية عشر من عمره فتعلَّق بي يرجو أن يصاحبني في الرحلة، وكنت أخشى عليه وعثاء الطريق، ولكنه أصرَّ ألَّا يُفارقني، فطاوعته واصطحبته معي، فلمَّا نزل ركبنا بصرى رأينا راهبًا يتقدَّم إلينا ويسأل أن نتناول طعامه، وكنا من قبل نمرّ بصومعته فلا يهتم بنا، ولكنه طلب استضافتنا جميعًا على ألَّا يتخلَّف أحد، فعجبنا لمَا أبدى، وقال له أحدنا: كُنَّا نمر بك من قبل فلا تُلقي إلينا بالًا فما شأنك اليوم؟.

فقال: صدقتَ، ولكني أعتزم تحقيق أمر لا أبلغه إلَّا إذا دعوتكم جميعا!

قال أخي: فاجتمعنا إليه وتخلَّف محمد في رحال القوم تحت شجرة أمام الصومعة، فجعل بحيرى ينظر إلينا متعجبًا ويقول: لقد طلبت ألَّا يتخلَّف أحد

منكم عن طعامي، فهل تخلَّف أحد؟. فقال أحدنا: ما تخلَّف غير غلام هو أحدثنا سنًّا فتركناه تحت الشجرة. فقال رجل من قريش: إنه والله للؤم أي لؤم أن نحضر جميعًا ويتخلف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام أُعدَّ لنا ثم خف سريعًا فأحضره إلى مجلسنا.

قال أخي أبو طالب: فلمَّا رآه بحيرى جعل يلحظه لحظًا شديدًا وينظر إلى أشياء في جسمه يجد عنده صفتها، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرَّقوا تقدَّم بحيرى إلى محمد وقال له: أسألك باللات والعزى أن تُجيبني عمَّا أسألك عنه، فظهر الغضب في وجه ابن أخي وقال: أسألك أنت ألَّا تذكر اللات والعزى في حلف، فأنا ما أُبغض شيئًا قدر ما أبغضهما. فقال بحيرى: فبالله إلَّا ما أخبرتني عمَّا أسأل، وجعل يستفسر عن أشياء يُجيبه عنها محمد، ثم نظر إلى ظهره فوجد خاتمًا قال: إنه خاتم النبوة بين كتفية فسكت وأطرق، ثم اتجه إلى أبو طالب يتحدَّث وسألني: ما هذا الغلام منك؟ قلت: إنه ابني. فقال بحيرى: ما ينبغي هذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا! فقُلْ. قلت: إنه ابن أخي، وقد مات فرعيته بعده، قال: صدقتَ الآن، فارجع به إلى بلده واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا عنه ما أعرف ليلقين أذًى كثيرًا، فإن لابن أخيك هذا شأنًا عظيمًا، فتأثرتُ لما سمعت وجعلت أرعى ابن أخي طيلة الرحلة حتى رجعت به سالمًا!

قال عبد الله: هذا ما نعرفه وما اشتهر بين الناس جميعًا من حديث بحيرى الراهب، فما موقفك منه؟

لقد وقع حديث أخي منِّي موقعًا جعلني في حيرة، فكنت أتردد بين الشك واليقين، ثم جهر ابن أخي بالدعوة فنهض أبو طالب لحمايته بأكبر ما يستطيع، وكان يراني صامتًا أو كالصامت في موقفي فلا يجبرني على شيء، ولكنه كان يثني على حمزة أخيه، ويلعن أخاه عبد العزى الذي يُعرف بأبي لهب، فأقول: إنه الدم

يجري في عروقه متصلًا بدم ابن أخيه؛ إذ اكتفى بالدفاع دون أن يُعلن الإسلام كما أعلنه حمزة!. وفي ليلة جلست إليه وقد أهمَّه ما تؤذي به قريش جماعة المسلمين، فصاح بي: أريت ما يفعله أخوك؟ طواعية لامرأته حمالة الحطب، وكأنه يدعوني لأن أسلم جهارًا كحمزة. فقلت له وأنا أهابه وأعتبره في مكان والدي عبد المطلب، لأنه شيخ الأباطح من بعده: يا أخي أنا على يقين من صدق محمد، وقد تأكدت ذلك في اليمن؛ إذ ورد عليَّ هناك مثل ما ورد عليك في بصرى من قبل، وإذا كان الذي حدثك حبر من أحبار النصارى، فإن الذي حدثني هو من أحبار اليهود هناك، فاهتم أبو طالب بما سمع وصاح بي: لماذا تُخفي عنِّي بشارة الحبر اليهودي مع أني أذعت بشارة الحبر النصراني منذ علمتها، قُلْ يا عباس لأزداد اطمئنانًا، حدثني عن بشارة ثانية!

قال العباس: فأخذت أجمع شارد ذهني لأروي ما كان كما كان، حتى إذا اتصل الخاطر بالخاطر قلت لأبي طالب وكأني أتمثله أمامي الآن:

خرجتُ في تجارة إلى اليمن في ركب فيه أبو سفيان بن حرب، فكُنَّا نُطعم مَن معنا، أنا في يوم وأبو سفيان في يوم، ولا يقصر أحدنا عن الآخر، وفي ذات يوم قدم علينا عبد الله بن حذافة السهمي بخَبر، قال فيه إن محمد بن عبد الله صعد إلى الصفا وأعلن أنه نبي، إذ خطب الناس بالأبطح، فحمد الله وحده لا شريك له، ثم قال: «إن الرائد لا يكذب أهله، ولو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم، والله الذي لا إله إلا هو، إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون ولتُبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانًا والسوء سوءًا، وإنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا».

قلت لابن حذافة: لعلَّه صادق، فقال أبو سفيان: مهلًا يا أبا الفضل فما أحب لك أن تقول مثل هذا، إنكم يا بني عبد المطلب ذوو يُمن وشؤم، وأخشى أن

تكون هذه من شؤمكم. قلت: فلعلها من يمننا، ثم لم يلبث الخبر أن انتشر بين جيراننا من أهل اليمن، فإذا حبر من أحبار اليهود بها يقدم علينا فيسأل عن عَمِّ الرسول الذي أعلن رسالته، وكنت غائبًا فقال أبو سفيان: أنا عمه. فقال اليهودي: حدِّثني عنه. فقال أبو سفيان: ما كنت أحب له أن يدَّعي هذا الأمر أبدًا وغيره عندنا أفضل منه.

واستمر العباس يقول: وجاءني الخبرُ فغضبت لِما قال أبو سفيان. وخرجت حتى أتيت حبر اليهود في مجلسه ومعه أبو سفيان، إذ قدم حين رآني قدمت، فقلت للحبر: بلغني أنك سألت ابن عمي هذا عن رجل منَّا قال إنه رسول الله، فأخبرك أنه عمه، وليس به، ولكنِّي أنا العباس بن عبد المطلب عم ابن عبد الله بن عبد المطلب، فقال الحبرُ: أنت أخو أبيه؟ قلت: نعم، أخو عبد الله ووالدي عبد المطلب، فأقبل الحبر على أبي سفيان وقال: أوَ صدق هذا؟ قال: نعم، فجعل يسألني فيقول: هل فشت لابن أخيك صبوة أو سفاهة قبلهما؟ قلت: لا وإله عبد المطلب ما كذب ولا خان، وكان يُسمَّى بالأمين عند قريش، قال: فهل كتب بيده؟ فظننت أن الخير أن أقول أنه كتب بيده، ولكن خفت أن يأخذها عليَّ أبو سفيان، فصدقت حين قلت ما كتب، فقام الحبر فزعًا وقال: قُتلت يهود، قُتلت يهود؟

ثم رجعنا إلى منزلنا وأبو سفيان واجم لا ينطق، فقلت له: ما لك؟ فقال: يا أبا الفضل إن اليهودي لفزع من ابن أخيك، قلت: قد رأيتُ ما رأيتَ، فهل لك يا أبا سفيان أن تؤمن به، فإن كان حقًّا فقد سبقت، وإن كان باطلًا فمعك غيرك، فقال: والله ما أؤمن به حتى أرى الخيل تطلع من كداء (جبل بمكة)، فقلت: ما تقول؟ قال: كلمة جاءت على فمي وما أدري كيف لفظت بها، وما عهدت الخيل تطلع من كداء.

قال العباس: وإلى هنا تمَّ حديثي مع أبي طالب، ثم مرَّت الأيام ففتح رسول الله ﷺ مكة، ونظرنا إلى خيل المسلمين تطلع من كداء، قلت: يا أبا سفيان أتذكر الكلمة يوم اليمن؟ فقال: إني لذاكرها وقد أسلمت.

قال عبيد الله بن عباس: مضت بشارتان فأين الثالثة؟ فالتفت العباسُ إلى عبد الله وقال: أعلمتها يا عبد الله فترويها لأخيك؟ قال عبد الله: ما أعرف غير بشارة بحيرى، وقد سمعت البشارة اليمنية منك الآن، فهل لك أن تتحدث عن البشارة الثالثة؟

فقال العباس: إن البشارة الثالثة أقدم من بشارة بحيرى النصراني والحبر اليمني، إذ كانت مع والدي عبد المطلب!

فقال عبد الله: وكيف حدثك بها وقد مات وأنت لم تبلغ الحلم؟

فتبسَّم العباس وقال: مهلًا يا بني، إنني ما كدت أذكر بشارة الحبر اليمني لأخي أبي طالب في مجلسنا الذي أتحدث عنه حتى أشرق وجهه، وقال: عهدي بالبشارة قديم قبل أن أرى بحيرى بزمن، فقد حدَّثني والدي عبد المطلب حديثًا لا أزال أجد رجعه في سمعي وصداه في نفسي، وحين فاجأني بحيرى بقوله دُهشت لا لأني أسمع الجديد بل لأني قرنت بما قال ما سبق أن سمعته من أبي!

قال عبد الله: تشوَّقنا إلى حديث جدنا عبد المطلب فليتك تعجل به.

فردَّ العباس: وهل أتكلم إلَّا عنه كما رواه أخي أبو طالب، حيث قال: كنت أعهد أبي عطوفًا على محمد وهو طفل صغير، يصحبه معه إلى البيت الحرام ويُجلسه على ركبته في مجلسه مع قريش، وما كان حمزة والعباس وغيرهما من أبنائه وكل من كان في سن محمد ليبلغ من نفس والدي مبلغ محمد، وكنت أعزو ذلك إلى أن أباه قد فارق الحياة وأن والدي يرى حفيده في حاجة إلى رعاية خاصة

كيلا يحس مرارة اليتم، فأكبر في أبي عطفه وحنانه وازداد لمحمد حُبًّا، وكنت أرى سحابة من الهَمِّ تعلو وجه أبي بين الفينة والفينة ومحمد معه، فأقول في نفسي: لعلَّ الشيخ يحس دُنو أجله ويشفق أن يترك الطفل الأثير قبل أن يبلغ مبلغ الفتيان، ولكلِّ أجل كتاب، حتى استبدَّ بي هذا الخاطر فقلت له وأنا أجمع الكلمات بجهد حتى لا تتعثر خوفًا من أن أُثير شيئًا في نفس أبي، قلت له: كُلُّنا فداؤك يا أبي وكُلُّنا آباء لمحمد.

فابتسم الشيخ ابتسامة هادئة وقال في صوت يشبه الهمس: أتظنني يا أبا طالب أجهل أنك شيخ بني هاشم بعدي، وأن حبك للطفل اليتيم يتضاعف يومًا بعد يوم، لا أجهل ذلك، ولكنِّي كنت أودّ أن يتنفس بي العمر حتى أدرك نبوءة سيف بن ذي يزن.

قلت متعجبًا: وما نبوءة سيف بن ذي يزن يا أبي؟

فقال بصوت يشيع فيه الأمل والحب وشيء غامض لا أدري أهو الحزن على فائت من أمر عبد الله أخي أم على قادم من أمر محمد ولده! قال أبي: لما حضرتْ جيوشُ كسرى مع سيف بن ذي يزن وظفرت بطغاة الحبشة في اليمن عمَّت الفرحةُ في الجزيرة العربية وتقدَّمت الوفودُ إلى صنعاء مُهنِّئة، وكان من بينها وفد قريش وفيهم معي أمية بن عبد شمس وعبد الله بن جدعان وأسد بن خويلد بن عبد العزى، فقدمنا عليه في رأس قصر يقال له غُمْدان، فإذا هو على سرير الملك مضمخًا بالعبير، عليه بردان يأتزر بأحدهما ويرتدي بالآخر، وسيفه في يده، وعن يمينه وعن يساره أبناء الأذواء والأقيال.

فدنوتُ واستأذنت لأتحدث، فأذِن مسرورًا، وأفضتُ في بيان مآثر سيف وبطولته، وتحدثت عن أسرته وبلده، ثم قلت: أيها الملك نحن أهل حرم الله

وسدنة بيته، أشخصنا إليك ما أبهجنا من انتصارك فنحن وفد التهنئة.

فقال: مَن أنت أيها المُتكلم؟ قلت: أنا عبد المطلب بن هاشم. فقال: مرحبًا بك وبمَن معك، أنتم أهل الكرامة ما أقمتم والحباء إذا رحلتم، هلمُّوا إلى دار الضيافة مع الوفود لأستضيفكم بضعة أيام.

وبعد يومين دعاني الملك وحدي فقال لي: إني أجد فيما حدثته مِن أنباء مَن قرءوا الكتب وعلموا بشائر ما يُرجى في المستقبل، أن ولدًا سينشأ بتهامة في كتفه شامة وستكون له الإمامة!

قال عبد المطلب: لقد أتيت أيها الملك بخبر ما سمعته من أحد، فهل لك أن تزيدني.

فقال ابن ذي يزن: نبيٌّ هذا حينه قد وُلد أو سيُولد قريبًا، اسمه أحمد، يموت أبوه، ثم تموت أمه فيكفله جده ثم عمه.

فهجست في نفسي بواعث الفرح ولم أتمالك أن قلت: أيها الملك كان لي ابن، وكنت عليه شفيقًا فزوجته بكريمة من كرائم قومي، فأتت بغلام سمَّيته محمدًا، مات أبوه ثم ماتت أمه، وكفلته أنا جده، وبين كتفيه الشامة التي ذكرت، قال سيف: إذا كان الذي قلت كما قلت فاحتفظ بابنك الصغير واطوِ ذِكره عمَّن معك مِن الناس، فقد يحسدونك ويحسدونه ويبغون له الغوائل، ثم قال لي: انصرف فقد بشَّرتك!

وأمر سيفٌ لكلٍّ مِن رفاقي بعشرة أعبد وعشر إماء وحُلَّتين، وأمر لي بمثلَيْ ما أمر لهم جميعًا، وحال الحول فمات الملك.

قال أبو طالب: وقد مات الجد وبقي الحفيد في رعاية العم.

قال العباس: ولا أزال أذكر حديث أخي عن أبي فأتأكد أن الله ناصر ابن أخي،

ويشتدّ أذى قريش به فأعلم أن ذلك إلى حين، وكان رسول الله يعرف ما بنفسي نحوه فجعل يستشيرني بعد رحيل أبي طالب، وكنت معه في بيعة العقبة كما تعلمون!

قال عبد الله: يا أبي لا يعلق بنفسك شيء مِن قول مَن قال عن يوم الاستسقاء، فعمر الفاروق مُلهم ولولا أنه يعرف قدرك ما آثرك واجتباك.

قال العباس: هو ذاك، لقد شرفنا برسول الله كما شرف به المسلمون، وما علينا إذ تكلَّم لسانٌ بغير ما نُحب غير أن نصفح ونعفو كما كان يصفح الصادق الأمين!!.

❁❁❁

زينب الأولى

- ١ -

دخلـتْ زينـبُ منزلَهـا، وعلـى وجههـا شـحوب يسـتر وراءه كمـدًا ملازمًـا، وأرادت أن تشغل نفسها بعض الوقت، فأيقظت ابنتها أمامة الصغيرة، لتُقدِّم إليها بعض الطعام، ونظرت الفتاه الصغيرة إلى وجه أُمِّها الشاحب، فقرأت ما أثار في نفسها الشجن، فصاحتْ بها مُتسائلة، ما لك يا أُمَّاه؟

قالت زينب: لا شيء يا أمامة!

فأسرعت أمامة تقول: كأني بأبي قد رحل مع المقاتلين إلى المدينة!

فقالت زينب باكية: نعم رحل زوجي ليُقاتل أبي!!

فأجابت الفتاة في براءة: ومع مَن أنت يا أُمَّاه!

فتطلَّعت زينب في السماء: ودعت ربَّها هاتفة: اللهم انصر أبي محمدًا، واردد زوجي أبا العاص سالمًا!!

*****

تذكرتْ أمامةُ ما دار بين أبيها وأُمِّها بالأمس، فقد صمَّمت قريش على محاربة الرسول في المدينة، لتُظهر للعرب قوتها الباسلة حين تهزم مَن حاولوا أن يعترضوا قافلتهم التجارية، واجتمع الملأ في دار الندوة ليُناقشوا الأمر في حفيظة، وكان فيهم مَن أكله الحقد، فصمَّم على القتال، ومَن آثر الدعَّة، فدعا إلى المُسالمة بعد أن نجت القافلة، ولكنَّ صوت الباطل قد ارتفع، وهدَّد أبو جهل وأوعد ورمى المسالمين بالجبن والخور، وانضم إليه فريق كبير ممَّن شايعوه على غيِّه، وطال

الجدال المحتدم حتى قرّ الرأي على القتال، ونهضت قريشٌ لتحمي حوزتها، وأصرَّت على أن يكون أقرباء رسول الله في جيش الشرك، ومنهم العباس بن عبد المطلب عمّ محمد، وعقيل بن أبي طالب ابن عمه، وأبو العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، وإذن فلا مناص من أن يسير أبو العاص، ولا مناص من أن تكابد زوجته أعنف ضروب الانفعالات حين يرحل الصهر ليقاتل أعز الناس على زوجه، ومُكرهٌ أخاك لا بطل...

قالت أمامة: ولكن أبي كما أعلم كان لا يردّ لك طلبًا فلِمَ لَمْ تمنعيه؟

فنظرت زينبُ نظرة حانية ثم قالت في أسى:

أذكر أني اعتنقت الإسلام حين نزل الوحي بالرسالة على أبي، ولم يهد الله قلب أبيك ولكنه قال لي: سأتركك وما تشائين يا بنت الخالة، ولك عليَّ أن أكون طوعك في كل ما تريدين، سوى أن أُجبَر على اعتناق دين لم أزل في حيرة من أمره، وقد طُلِّقت أختاي رقية وأم كلثوم من زوجيهما المشركين؛ لأنهما ظنَّا في هذا الطلاق إحراجًا لأبي، وسعى الساعون إلى أبي العاص كي يُطلِّقني، فحمل سيفه وهدَّد مَن سعى، لقد كان كريمًا معي، وإن نسيت فما أنسى موقفه من أبي جهل من أكثر من عامين؛ فقد اجتمعت قريش في دار الندوة يتحدَّثون في أمر أبي، وكان أبو العاص مع المنتدين، فلمح في وجه أبي جهل تجهمًا، فلم يعبأ به ثم وجده ينظر إليه نظرات غاضبة دون أن يتكلم، فصاح به أبوك: ما بالك اليوم يا أبا الحكم.

فصاح أبو جهل في حِدَّة: لم أعد أصبر على أمرك، أنت تجلس معنا ثم تذهب إلى زوجتك بنت محمد عدو اللات والعزى، فتُحدِّثها عمَّا نقول، وتذهب هي إلى أبيها فتُخبره بكل شيء، فكأننا بذلك لا نستطيع أن نُدبِّر أمرًا دون أن يكون مآله الافتضاح!

قال أبو العاص: وماذا ترى أنت يا أبا الحكم؟ فما راعه إلَّا أن يثب أبو جهل من مكانه مُزمجرًا وهو يصيح: لا بد أن تُطلِّق زوجك كما فعل ابنا أبي لهب مع رقية وأم كلثوم! وإلَّا فسترى.

وهنا نهض أبو العاص، وقد رفع سيفه في وجه عدو الله صائحًا: دونك أيها الرجل، أتريد أن تدخل بيني وبين زوجتي، فلئن سمعتُك تقول هذه الكلمة مرة أخرى فبيني وبينك السيف، وتخوَّف الحاضرون أن يلتهب الموقف فقاموا بتهدئة أبي العاص وخرج أبو جهل خزيان!

واستطردت زينبُ تقول:

أي حديث أذكر لك يا أمامة عن أبيك، أنا ابنة خالته (خديجة بنت خويلد)، وهو ابن خالتي (هالة بنت خويلد)، وكانت الأختان لا تكادان تفترقان، وقد تقدَّم أبو العاص لخطبتي فسُرَّت والدتي ووافق والدي والْتأم الشمل، فشعرتُ معه بسعادة لا أحسبني أنسى حلاوتها مهما امتد بي الزمن، ثم ماتت والدتي خديجة فحزن أبو العاص على فراقها حزنًا أحسسته جيدًا، وأخذ يحثني على أن أذهب دائمًا إلى منزل أبي، لأكون مع أسرتي الأولى بعد رحيل سيدة البيت، وما استعجلني مرة واحدة حين أُطيل الزيارة؛ إذ كان يعتقد أن بيت أبي هو بيته ما دمت أنزل به، وهأنذا مسلمة أؤدي الصلاة وأعلن شهادة التوحيد بمرأى منه ومسمع وهو لا يتضايق ولا يشيح، ثم اجتمعت قريش اجتماعها الأخير، وادَّعت أنها بذهابها إلى المدينة محاربة أبي ستحمي طريق التجارة، ولا بد لذوي الثراء من قريش أن يخفوا إلى محاربة المسلمين، ووالدك تاجر ينتقل بين اليمن والشام بقافلة كبيرة وقد رأى من واجبه أن يذهب كما ذهبوا، وليتني قد قدرت على منعه ولكن هل أستطيع.

وجرت دمعةٌ من عين زينب فنظرت أمامة في إشفاق وسألت في أسف: أوَ تبكين يا أُماه!.

فقالت زينب: بنيتي، أتستكثرين أن أبكي، وقد خرجت الجموع الزاحفة لتقتل أبي، أنا بين نارين لا نار واحدة، إذ أخشى أن ينتصر المشركون فأفقد والدي أعز الناس عليّ، كما أني أخاف أن يُقتل أبو العاص في حومة القتال، فتكوني يتيمة مع أخيك علي، أنتِ صغيرة يا أمامة، فلماذا أُحمِّلك همِّي، دعيه لي وحدي، وهيهات أن أطيق.

- ٢ -

ظلَّت زينب تعاني ألم الهواجس السوداء منتظرة أن تُفاجأ بنبأ يرجها لا محالة، لأن انتصار أحد الفريقين كانكساره، لا بد أن يُعقِّب لديها ما يروع، ثم هي تشعر بوحشه قاسية في محيطها القرشي، فقد اعتزلها الجيران لأنها ابنة محمد، وفي النسوة مَن صارحتها بأنها دخيلة عليهن شعورًا وإحساسًا، أليس أبوها هو الذي حطَّم كبرياء قريش مُقيمًا بمكة، ثم أنذرها بالشّر الكارث مهاجرًا للمدينة، وما تجمعت الجموع وأُعدَّت الذخائر وشُحذت الأسلحة إلَّا لاستئصاله، بل في هؤلاء النسوة مَن عمدت إلى زيارتها كالمُتشفية المتهكمة، تتنبأ بسوء عاقبة والدها ومَن شايعه مِن مهاجري قريش، وتتساءل: هل كان ذوو الأحلام مِن رءوس قريش في تاريخها المُمتد أقل إدراكًا وأضيق تفكيرًا من أبيها الذي انفرد بالدعوة إلى دين جديد سفَّه الأحلام وأذرى بالعقول.

ظلَّت زينب تعاني شجونها السوداء لا تهنأ بمطعم أو مشرب، ولا تقر بمهجع حتى سمعت ذات صباح صراخًا يملأ الآفاق، ويتردد في الجهات الست، فقامت فزعة تتسائل عن هذا الدوي المتردد، غير أن طمأنينة راضية ولجت إلى شغاف

قلبها، حين أيقنت أن الصراخ دليل الهزيمة الكاسحة، لقد كانت تعتقد أن والدها نبي الله ورسوله، وأنه لا محالة لن يخذله أمام جيوش الشرك، ولكن هذا الاعتقاد لا يلبث أن تغيم عليه شكوك تُوحي بها جواذب الضعف الإنساني حين تكثر الاحتمالات المتعارضة متدافعة متقاتلة، حتى ما تستقر في نفس صاحبتها على رأي، أما وقد دوى الصراخ في كل مكان فلا بد أن يكون نصر الله قد تمَّ على يد رسوله، وقد جاء مَن أخبرها بهزيمة قريش، ومصرع السادة الكبار مِن أمثال أبي جهل وعتبة وشيبة، ووقوع فريق في الأسر ينتظر حكم محمد، ومِن هؤلاء الأسرى زوجها أبو العاص بن الربيع، والعباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، وإذن فلم يمت زوجها ولم يُهزم والدها، فهل لها أن تسجد شاكرة لله وأن تقول بلسان الشاكرة المطمئنة: الحمد لله.

لم تجعل مِن همِّها أن تتتبع مآسي المرزوئين في مكة، ولكنها وجهت كلَّ اهتمامها لأبي العاص، وما عسى أن يكون من أمره، إنها لتستشعر في أعماقها أن والدها يُحبها أكبر الحب، وأنه عانى كثيرًا كما عانت لبُعدها عنه منذ هاجر، وأنه سيرعى جانبها كل الرعاية فلا يفجعا في زوج مخلص أمين، وإذا كان لكل أسير من فدية فلا بد أن تبعث بالفداء، كما يبعث ذوو الأسرى في مكة، ولكن بماذا تفتديه؟

إن أبا العاص تاجر قريش الموسر، وإن المال ليغمر منزلها، ويُنعشها ثراء ورفاهية، أفتبعث مِن هذا المال ما يبلغ قيمة الفداء! إن ذلك هيِّن مُستطاع، ولكن لماذا لا تثير في نفس أبيها إحساسًا خاصًّا يُذكِّره بها وبوالدتها العزيزة كثيرًا عليه، لقد أهدت لها أُمُّها خديجة قلادتها يوم زُفَّت إلى أبي العاص، وإن والدها ليعرف مكان هذه القلادة العزيزة من نفسه، حين حملتها خديجة ﵂ حينًا من الدهر، ثم

آثرت بها ابنتها زينب ليلة الزفاف، فلا بد أن ترسل القلادة الغالية لتكون في عين أبيها أغلى فداء وأوفاه.

لها الله زينب، لقد حرَّكت من مشاعر رسول الله ما كمن، وهيجت ما سكن، إذ أخذ يعرض ألوان الفداء، حتى وقعت عينه فجأة على قلادة خديجة، فأخذها بين يديه في طوفان من الذكريات لا حدَّ لمنتهاه، ثم نظر إلى المسلمين من حوله قائلًا: إن رأيتم أن تردُّوا القلادة إلى صاحبتها فافعلوا، وصمت الرسول، وصمت مَن حوله حينًا من الزمن، ثم قال ﷺ في نبرة هادئة: وأطلقوا الأسير على أن أقابله قبل رحيله، فلي معه حديث.

جاء أبو العاص إلى صهره العظيم فقال له: عاهدني أبا العاص على أن ترسل إليَّ ابنتي زينب حين تذهب إلى مكة فهي مسلمة، والمدينة أولى بها، فسكت الزوج لحظة، وقدَّر حنان الأب الشفيق، فأجاب بالقبول.

ليت الطريق سلمت بزينب، فقد تربَّص بها الشرُّ الآثم، وكادت تلفظ أنفاسها، لولا أن تداركتها رحمة الله، فإن أبا العاص قد وفَّى عهده ونقل إلى الزوجة الوفية رغبة والدها، وما كان لها أن تتأخر، وكم عانى الزوج القريب مِن فراق أعز الناس لديه، ولكن ماذا يصنع وقد ارتبط بكلمته، ومع مَن؟ مع محمد الوفي الأمين، ولم يطق أن يسير معها راحلًا إلى المدينة، فإن أشواقه ستعصف به وهو يقود الراحلة، وهو بعد إنسان ذو إحساس، فأوْلى أن يعهد إلى أخيه كنانة بن الربيع، وهو أيضا ابن خالتها هالة، ليصحبها سائقًا بعيرَها حتى يصل بها إلى مكان ما قُرْب المدينة، حدَّده رسول الله، ليجد زيد بن حارثة في انتظارها فيصحبها سالمة إلى أبيها!

هكذا قدر أبو العاص، ولم يدر أن مشركًا أسلم فيما بعد، وهو هبار ابن الأسود، قد تعقَّب الركب لينتقم مِن زينب بما جرته غزوة بدر عليه من نكبات،

وقـد فَقَـدَ ثلاثـةً مِـن إخوتـه الشـباب، فتعـرَّض بـالرمح طاعنًـا الهـودج، وسـقطت المسكينة على صخرة عاتية من صخور الصحراء، فأسـقطت حملَهـا وسـال دمُهـا، وهال كنانة أن يرى هبارًا ومِن خلفه شرذمة من معاونيه، وكان نبَّالًا حاذقًا، فحمل عدته، وأطلق النبل في عيون القوم وفى صدورهم، فانطلقوا، وكان بينهم أبو سفيان ابن حرب، فصاح بكنانة: لم تصب يا ابـن الربيع حين خرجت بابنة محمد على رءوس الأشهاد، وكلهم جريح مصاب من يوم بدر، ولسنا نريد أن نمنع زينب عن أبيها، وأخشى أن يعترضك آخرون لا نعلمهم، فارجع بها حتى تبرأ من وجيعتها، فإنها لا تتحمل الرحلة بعد أن سال دمها.

ونظر كنانة إلى المريضة الشاحبة، فخاف عليها، وآثر الرجوع حتى تنقه، وكـان المنتظـر أن يشـمت المشـركون بزينـب في محنتهـا ولكـن هنـد بنـت عتبـة، صاحت بهم مُتهكمة، معركة مع عزلاء حامل؟ أبهذه الخِسَّـة تمسحون معرَّة بـدر! وما هي إلَّا أيام حتى استطاعت المريضة أن تجد قوة تسعفها بالمسير فتهيَّأت مع ابن خالتها كنانة حتى وصلت مأمنها بالمدينة، وقد اختلط الفرح لرؤيتها بالحزن على ما كابدته، وبلغ الأسى بأبيها مبلغه، فأهدر دم الجناة...

ولكن هل سيجتمع الشتيتان!؟

لقد فارقت زينب زوجها، فاستشعر وحشة قاسية بمكة، ولـم يشأ أن يتزوج بعدها، وذلك ما يُوحي بمنزلتها لديه، فانتظر أن يلتئم الشمل إذ كانت تحدثه نفسه أنه قريب منها، مهما تناءت الديار، فهو يعرف أنه فارقها كارهًا، كما هي تعلم عنه ما يخامره، علمًا لا يخالطه ريب، فهل كانت هي الأخرى تأمل في اللقاء؟ مهما يكن من شيء فقد مهَّدت الأحداث سبيل الالتئام، إذ خرج أبو العاص في تجارة لقريش تحمل من السلع والعروض ما تعود أن يرحل به بين العام والعام، وكانت

قريش في حرب مع الإسلام، تترصده كما يترصدها، فخرجت إحدى السرايا من المدينة، فوجدت أبا العاص راجعًا من الشام موفور الكسب بعد رحلة سعيدة، فأعجزه أن يقف أمامهم مدافعًا، ففرَّ هاربًا تاركًا ما ربح وجمع لنفسه ولذويه من قريش؟ وعزَّ عليه أن يرجع إلى مكة خاوي الوفاض، فإلى أي حصن يلتجئ. إن طيف زينب لا يُفارقه، وهى الآن بالمدينة سعيدة بجوار والدها، أتراها حين تجده أمامها لائذًا مستجيرًا تضنّ عليه بالحماية؟ إنه يعرف حقيقة شعورها، وهو ابن الخالة والزوج معًا!

لقد ركب الليل إلى المدينة حتى دخلها في غبش الظلام، كيلا يعرفه مهاجر صحابي فيأسره، وسأل عن منزل زينب، ففوجئت به إذ رأته وقضت الليل تُفكِّر في أمرها وأمره، حتى إذا أذَّن الفجر وقامت الصلاة وتأهَّب المسلمون لمبارحة المسجد سمعوا صوت زينب تصيح: أيها الناس، إني قد أجَرت أبا العاص ابن الربيع، فهو في حمايتي.

وفوجئ الرسول بما لم يتوقع، فأقبل على الناس قائلًا: «هل سمعتم؟ أما والذى نفسي بيده، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم».

وذهب النبيُّ إلى ابنته، فسرَّه أن يجدها وفيَّة أمينة، وتذكر غابر أبي العاص، فرأى أنه لم يسلف في ماضيه ما يُؤخذ به، فلمَّا أشرق الصبح بعث إلى السرية التي أصابت مال أبي العاص ليقول لذويها: «إن هذا الرجل منَّا حيث علمتم، وقد أصبتم له مالًا، فإن رددتم عليه ما أخذتم فإني أحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، وأنتم أحق به».

فصاحوا جميعًا: بل نرده عليه يا رسول الله!

لقد أصبح المال بين يديه، وكان في استطاعته أن يمكث بالمدينة غنيًّا به دون أن يعود إلى قريش، حيث حُبِّب إليه الإسلام، ولكن خُلقه الكريم دفع به إلى أن يرحل إلى مكة، ليُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، ثم يُعلن للقوم إسلامه كيلا يظنوا أنه أسلم طامعًا في مال سواه!

ودُهشت قريش لما أبدى أبو العاص من وفاء، وانطلق الأقربون إليه من ذويه يناقشونه فيما اعتزم، فقال في اعتزاز: والله ما منعني من الجهر بالإسلام عند محمد إلَّا تخوُّف أن تظنوا بي طمعًا في أموالكم، وهأنذا أدَّيت ما لديَّ، وسأُهاجر غدًا دون انتظار.

وعاد الشمل ليلتئم، فسعد الزوجان باللقاء، ولكن إلى حين، حيث شاء القدر أن تُفارق زينب دنياها الفانية، لتتقدم مِن فارقتهم إلى رضوان الله، وما عند الله خير وأبقى.

❁❁❁

خطيب الأنصار

- ١ -

ويلٌ للخطيب من الشاعر! إن الشاعر يُنشئ القصيدة فتسير بها الركبان في كلِّ موضع، ويقف جواره الخطيب يرتجل الخطبة الرنانة فينتشي بها السامعون، ثم يمضي الموقف فلا يذكر أحد ممَّا قال إلَّا بعض المعاني، وقد تُروى بلفظ غير ما قال، ذلك ما كان في عهد الأُمِّية قبل أن تُنشر الصحف وتتعاقب الأقلام.

لقد كان حسَّان بن ثابت شاعر الرسول، حُفظت آثاره، ورُويت أشعاره، وكان ثابت بن قيس خطيب الرسول، ورجل الموقف المحتشد، حين تكون الخطابة أبلغ وسائل الدعوة، فهل حفظ التاريخ شيئًا ممَّا قال ثابت بن قيس. إنَّ كتب السيرة المطهَّرة لم تذكر غير خطبته أو بعضًا من خطبته أمام وفد تميم، وليس في هذا الإغفال بواحد! فليت شعري ماذا بقي لقيس بن ساعدة، ولسحبان وائل وللمأمون الحارثي، وكلهم خطباء مقاول! كما كان ثابت خطيب الأنصار ولسانهم المبين.

لقد حضر وفدُ بني تميم إلى المدينة المنورة، بعد أن انتشر ضياء الإسلام وفرغ الرسول من أمر تميم، وتميم أهل مفاخرة ومباهاة، وقد تقدَّم وفدها الأقرع ابن حابس والزبرقان بن بدر، وعطارد بن حاجب، ولم يُظهروا هدوء الضيف الوافد، بل أكثروا الجلبة والضجيج حول بيوت النبي وحجراته، حتى آذوه فخرج إليهم ليقولوا له: جئنا نفاخرك يا محمد، فأْذن لخطيبنا وشاعرنا، قال: فأذنت لهما، فخطب عطارد وأنشد الزبرقان، حتى إذا انتهيا قال الرسول: أين حسان وأين ثابت بن قيس، فتقدَّم حسان وأنشد قصيدته التي مطلعها:

إن الـذوائب مِـن فهـر وإخـوتهم قـد بيَّـنوا سُـنة للـناس تتـبع

ثم نهض ثابت بن قيس فقال:

«الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، قضى فيهن أمرَه ووسِع كرسيُّه علمه، ولم يكن شيء قط إلَّا مِن فضله، ثم كان مِن فضله أنْ جعلنا ملوكًا، واصطفى مِن خير خلقة رسولًا، أكرمه نسبًا وأصدقه حديثًا وأفضله حسبًا، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خَلقه، فكان خِيرة الله في العالمين، ثم دعا الناسَ إلى الإيمان فآمن به المهاجرون مِن قومه وذوي رحمه، أكرم الناس أحسابًا، وأحسن الناس وجوهًا، وخير الناس فعالًا، ثم كان أول الخلق استجابة إذ دعاه رسول الله ﷺ نحن، فنحن الأنصار أنصار الله، ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ورسوله، فمَن آمن منع مالَه ودمه، ومَن كفر جاهدناه في الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا، أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم».

وأجمع الحاضرون على أن السبق لخطيب الأنصار وشاعر الأنصار إذا قُرنا بزميليهما مِن تميم.

- ٢ -

انتهت معركةُ اليمامة باستشهاد نفر من كبار صحابة رسول الله، وفيهم ثابت ابن قيس رضي الله عنه، وقد جلس أولاده الثلاثة: محمد ويحيى وعبد الله في دارهم بالمدينة يتلقون عزاء المواسين في رضًى وتسليم، ووفد عليهم خزرجيٌّ من قرابة ثابت بن قيس، فجعل يسرد ما عرف من مواقفه، واستطرد مُتحدثًا عن خطبته في وفد تميم واستبشار رسول الله ﷺ بما ضمت من المعاني الإسلامية الكريمة، على حين أطرق يحيى بن ثابت إلى الأرض وكأنه يسبح في تفكير عميق، حتى إذا انتهى الخزرجي من حديثه رفع يحيى بن ثابت رأسه متفرسًا في وجوه القوم وبدأ

يتحدث قائلًا:

لقد رجع أبي مُستبشرًا برضا رسول الله عنه، ولكن وفد تميم قد أتى من الأفعال ما آخذه الله عليه في سورة الحجرات؛ إذ نزل قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾[1].

وما نزلت هذه الآيات الكريمة وسمعها أبي ﵁ حتى علت وجهه كآبة واعتزلنا، فما كاد يلم بنا حتى أخذتنا الحيرة في أمره وجعلنا نقول: لقد رجع مُستبشرًا سعيدًا بعد أن ألقى كلمته، فما باله الآن في ضيق لا نعرف أسبابه، ورأى أخي عبدالله أن يقتحم سرَّه، فقرع الباب عليه وبدأ يسأله قائلًا: أبتاه فيم اعتزالك ذويك وما نجد داعيًا لديك يُوجب هذا الاعتزال؟

لقد كنتَ بالأمس مبتهجًا سعيدًا فما بالك اليوم؟

فنظر أبي إلى عبد الله وقال: لقد سمعتُ قولَ الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾، وأنا رجل ثقيل السمع أرفع صوتي بقوَّة في مجلس نبي الله، وقد خفت أن يحبط عملي دون أن أشعر، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ وأنا لم أغض صوتي ذات يوم، فلن أكون من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، فماذا أصنع يا عبد الله؟

---

(١) سورة الحجرات، الآيات (٢-٥).

قال يحيى: فدعاني أخي عبد الله وأخبرني بما شغل والدي من هاجس، فتقدَّمت إليه في معتزله وقلت له في تؤدة: أبتاه إن منزلتك عند رسول الله ﷺ لا تُنكر، وأنت تعرف ترحيبه بك حين يلقاك، وقد سألته العسير ذات يوم فأجابك إلى ما لم يستطع أحد أن يسأله سواك!

فرفع ثابت رأسه دهشًا وسأل: متى كان ذلك يا بُني؟

قال يحيى: ألا تذكر يوم بَني قريظة حين أمر رسول الله بقتل رجالهم، فتقدَّمت إليه شافعًا في الزبير بن باطا وامرأته، فسارع بإجابة مطلبك، ثم ردَّ عليه بُستانَه ليعيش مِن ثمره كما رجوتَ؟ أفكان الرسول يستجيب لرجائك وهو يأخذ عليك شيئًا؟

قال ثابت: ولكني الآن بعد نزول هذه الآيات لا أطمئن على نفسي.

فردَّ يحيى: إذن فاذهب إلى رسول الله وأفصح له عن خلجات نفسك وسترى منه ما يُريحك، فأنت منه بمنزل كريم.

انطلق ثابت مسرعًا إلى مجلس رسول الله وقد غاب عنه أكثر من عادته، فسأله الرسول هاشًّا فيمَ احتجابك يا ثابت؟

فقال في شبه اعتذار: أنا يا رسول الله امرؤ جهير الصوت وقد نزل قول الله ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ وإذن فقد حبط عملي وأنا من أهل النار! فويلي.

فعجل الرسول يقول: لستَ مِن هؤلاء، بل تعيش حميدًا وتُقتل شهيدًا ويُدخلك الله الجنة!

فابتسم ثابت فرحًا، ثم قال: وثانية أسال عنها: إن الله ﷻ يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾[1] وأنا ألبس الثوبَ الجميل، واشتري النعل الجيد، وقد

(١) سورة لقمان، الآية ١٨.

خشيتُ أن أكون بهذا من المختالين. فأجابه النبي ضاحكًا: إنك لستَ منهم، بل تعيش بخير وتموت بخير وتدخل الجنة.

رجع ثابت إلى أهله سعيدًا راضيًا، وكان من أكبر سعادته أن الرسول ﷺ أنبأه أنه سيموت شهيدًا، وسيدخل الجنة، فأخذ يعد ملابس الحرب، ومنها اللأمة والمغفر والرمح والدرع والسيف، ويتساءل بينه وبين نفسه: متى تأتي الشهادة؟ إنها آتية لا محالة، فقد بشَّر بها النبيُّ الكريم؟

-٣-

انتقل رسولُ الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فأحزن ثابتًا أنه لم يلقَ الشهادة المنتظرة بمشهد من عين النبي الكريم، ولكنه علم أن معارك إسلامية لا بد أن تنشب، وليس له أن يتأخر بعد أن تأكَّد أنه سيفوز بخاتمة الشهداء، وقد تمهَّل به أبو بكر الصديق؛ إذ لم يشأ أن يبعث به في حروب اليمن حين أعلنت الارتداد بقيادة قيس بن عبد يغوث، بل تمهَّل حتى قامت حروب طليحة الأسدي، حين التفت حوله أسد وعطفان وطيء، فاشترك بها ثم اتجه إلى اليمامة لدحر مسيلمة الكذاب، مع كتائب عكرمة بن أبي جهل، وكان مِن المُقدَّر أن تعصف بالمتنبئ الكاذب، لولا أنه لجأ إلى الاحتيال، فادَّعى أن جبريل ينزل عليه بالوحي، وأنه شريك محمد في الرسالة، ولكن نبي قريش قد ظلمه حين لم يعترف به! واصطنع مِن مرتدة المسلمين مَن تواطأ معه على الكذب، فافترى على رسول الله أنه اعترف بمسيلمة قبل أن يموت.

ذلك هو نهار الرجال الذي غرَّه الباطل، حين رأى أربعين ألف مقاتل مِن بني حنيفة يلتفون حول مسيلمة، ويؤمنون بنبوته، ومعهم من الذخيرة ما يمنعهم في ديارهم التي يعرفون من دروبها ومنعرجاتها ووهادها وجبالها ما لا يعرفه جيش

المسلمين! كل ذلك قد قوَّى شوكة مسيلمة، فلم يكن له غير خالد بن الوليد، فنزل بالمسلمين على كثيب يطل على اليمامة، وجعل راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس!

ودارت الرحى، فانكشف المسلمون متخاذلين، وهنا صاح ثابت بن قيس: أيها الناس، بئسما عودتم أنفسكم الفرار، اللهم إني أبرأ إليك ممَّا يعبد هؤلاء - وأشار إلى أهل اليمامة - وأبرأ إليك ممَّا يصنع هؤلاء - وأشار إلى مَن فرُّوا مِن المسلمين، ثم صاح بالناس: يا قوم لقد هيأت كفني وحنوطي، ومعي سيفي ودرعي، ولن أبرح حتى أقر عيني بالشهادة أو الانتصار، ثم صرخ: يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل القرآن، زيِّنوا الأقوال بالأفعال، لا مجال للفرار، هأنذا أهجم ولا أتراجع! ولم يزل اللواء في يده يتقدَّم به الناس حتى استُشهد.

ورأى المسلمون مصرع ثابت، فجالدوا مجالدة غاضبة، وأحكم خالد ابن الوليد الخطة، ففرَّ مسيلمةُ ووراءه جماعةٌ من صحابته هم أعوانه المقربون، فلم تحمهم غير حديقة ذات سور عال، فاندفعوا إليها حتى إذا امتلأت أوصدوا الباب! وهجم المسلمون فردَّهم السور، وكان لا بد من المحاصرة، وقد تطول فيتخاذل الناس، هنا برز البراء بن مالك من أشجع رجال خالد، وأشار أن يرفعوه إلى سطح السور المحيط بالحديقة، وسيرمي بنفسه ليفتح الباب، مغامرًا مندفعًا لا يتخوف عاقبة، وهي فدائية جارفة لا تعرف الاعتدال، فنصحه رفقاؤه ألَّا يرمي نفسه في النار فتأكله دون فائدة، لأن سيوف الأعداء ستتلقفه حين يهبط ولكنه صمم على ما أراد، فرفعه قومه حيث أراد، وهوى إلى الأرض في غفلة من أكثر المحاصَرين، ثم اقتحم البابَ وعالج المصراع فانفرج، وتدفَّق المسلمون!

وتلك بطولة خارقة، بل معجزة شاء الله لها أن تتم، ليفرح المؤمنون بنصر الله، وقد حان، وكان وحشيٌّ قاتِل حمزة قد أسلم، وسار مع جيش خالد محاربًا، فرأى أن يعمد إلى مسيلمة فيصرعه بحربته المؤمنة مسلمًا بعد أن صرع حمزة في أُحد كافرًا، وتمَّ له ما أراد، فشفى نفسه، حين طهَّرها بمصرع هذا المتنبئ الدعيِّ، وكان لمصرع مسيلمة أثره في هروب أتباعه، بل في إنابتهم إلى الحق حين اندحر الضلال!

وبعد، فهل انتهى أمر ثابت بانتهاء حياته؟ إن الله أكرمه، حين شاء ﷻ أن يراه بلال بن رباح مؤذِّن رسول الله في رؤيا منامية، فحدَّثه ثابت عن شيء يبحث عنه إذا صحا من نومه، وحار بلال في رؤياه، غير أنه بحث ونقب، فتأكد ممَّا رآه في حلمه، وتفصيل ذلك: أن ثابت بن قيس كان يلبس في حربه درعًا ثمينة عرفت بين نظرائه بالمدينة، إذ ورثها عن أبيه، فمرَّ به وهو صريع بدويٌّ من نجد فسلبها دون حق.

يقول الراوي[1]: رأى بلالُ بن رباح رحمه الله ثابتَ بن قيس يقول له في منامه: إني أوصيك بوصية، فإياك أن تقول هذا حُلم فتضيعها، إني حين قُتلت بالأمس جاء رجلٌ من ضاحية نجد، وعليَّ درعي فأخذها، فأتى بها منزله، فأكفأ عليها برمة، وجعل على البرمة رحلًا، وخباؤه في أقصى العسكر، وإلى جانبه فرس يستن في طوله[2]، فإذا صحوتَ فاذهب إلى خالد بن الوليد فخبِّره، ليبعث إلى درعي فليأخذها، وإذا قدمت على خليفة رسول الله ﷺ فأخبره أن عليَّ مِن الدَّين كذا،

(١) روى هذه القصة الحاكم في المستدرك، والطبري والسيوطي، كما رُويت في كتب الأدب على اختلاف في الألفاظ دون المعنى.

(٢) يستن: يمرح. والطول: الحبل.

ولي مِن الدَّين كذا، وسعد ومبارك غلاماي حُرَّان، فإياك أن تقول: هذا حُلم فتضيعه، ثم نام بلال، فجاءه ثابت مرة ثانية ليقول له: إياك أن تقول: هذا حُلم فتضيعه، ونام فجاءه المرة الثالثة أيضًا، فلمَّا أصبح أتى خالدًا ﷺ فأخبره الخبر، فبعث ابن الوليد نفرًا إلى المكان الذي حدَّده قيس، فوجد الدرع كما قال، فلمَّا توجَّه بلال إلى المدينة أتى أبا بكر الصديق رضوان الله عليه، أخبره بوصية ثابت ابن قيس فأجازها، ولا يعلم أحد من المسلمين أُجيزت وصيته بعد مماته بسداد دينه، وعتق عبديه، إلَّا ثابت بن قيس! أليست هذه مكرمة لشهيد، بُشِّر بالشهادة فانتظرها مشوقًا، حتى حان موعدها، فصار من الذين هُم عند ربهم أحياء، فرحون بما آتاهم الله من فضله، إذ يستبشرون بنعمة من الله ورضوان.

❁❁❁

التائب المنيب

نظر عياشُ بـن أبـي ربيعـة إلـى قيـده الـذي يغـلّ يديـه، وقـد ألقى بـه في حجـرة مظلمـة، وامتنـع رهطُـه مِـن بنـي مخـزوم أن يُخـاطبوه بكلمـة واحـدة، إلَّا أن تحـين ساعة الطعام فيتقدَّم به مَن لا ينطق بحرف، ومعه قليل مـن المـاء! نظـر عيـاش إلـى قيده، فثارتْ في نفسه أعنف مشاعر الألم، وزاد مِن شجنه أنه لا يستطيع أن يتوضـأ أو يُصلي كما اعتاد مِن قبل، وكيف والغل في يديه، ولا ماء للطهور.

وكان أعنف ما يُثيره أن يذيع حديثه في مكة، وأن يدخل عليه بين الفينة والفينـة أخوه لأُمِّه (الحكم بن هاشم) المشتهر بين المسلمين بـأبي جهـل، ومعـه نفرٌ مـن المشركين، ليقول لهم: هكذا نفعل بسفهائنا نحن بني مخزوم، فلِمَ لا تذهبون إلـى سفهائكم بالمدينة وتحتالون على حضورهم لتفعلوا بهم كما نفعل!

تبًّا له ثم تبًّا، لقد جاء إلى عياش بالمدينة ومعه الحـارث بـن هشـام أخـوه لأُمِّـه أيضًا، فصرخا في وجهه وزعما أن أُمهم قد نذرت ألَّا تأكل وألَّا تشرب وألَّا تمشط شَعْرَها ولا تستظل بشمس حتـى تـراك، والسـيدة عجـوز مريضـة ولـن تبقـى سـوى أيام، فكيف تعُقّها بالبعاد، إنها تطلب رؤية عياش قبل أن يحين يومها!.

لقـد أحكمـا العقـدة، وكـان عمـر بـن الخطـاب ﷺ يـرى بنـور الله، فاكتشـف الحيلـة ونـادى عياشًـا، فقـال لـه: والله مـا يريـد القـوم إلَّا أن يفتنـوك عـن دينـك فاحذرهم، فو الله لو آذى القملُ أُمَّك لامتشطت، ولو اشتدَّ عليها الحر لاستظلت.

يقول عياش لنفسه: نصحني عمـر فأحسـن النصـيحة، ولكنِّـي قلـت في نفسـي: ومـا عليَّ إذا ذهبـتُ إلـى مكـة فرأيـتُ أُمِّـي، وجمعـت مـالي لأسـتعين بـه بالمدينـة

ورجعت سريعًا، أفيمنعني أحد؟ لقد أعلنتُ إسلامي في السابقين الأولين، قبل أن ينتقل المسلمون إلى دار الأرقم، وكنت أسير مع الرسول أنَّى سار، فما استطاع أحد أن يمنعني وأنا من سادة مخزوم، ثم حانت الهجرة إلى الحبشة فهاجرت مع زوجتي مختارًا، ورجعت إلى مكة مختارًا، وبقيت على إسلامي، وفُرضت الصلاة فجعلت أقوم بها على عيون القوم دون حذر، وما استطاع أحد أن يحول بيني وبين ربي، فلِمَ لا أذهب وأعود.

هكذا قدرت، وأبى عمر أن أرحل، وجادلني صادقًا غيورًا، حتى إذا استعصيت على مشيئته قال لي في عطف: إليك ناقتي فاركبها فإنها نجيبة ذلول، فالزم ظهرَها، وإن رابك من أخويك ريب في الطريق فانج عليها، وهلم إلينا، فلن يستطيع أحد أن يلحقك، وقد أسرعتُ بها ثم حان الرحيل وانتظم السير، فبعد أمد طال أظهر أخي الحكم وجعًا، وقال في ألم: لقد استغلظت بعيري أفلا تعاقبني على ناقتك؟ ورأيتُ ألمه المتصنع في وجهه فأطعته، وهبطنا نحن الثلاثة إلى الأرض، أنا والحكم والحارث، فلما استوينا جميعًا على ظهرها أسرع أخواي وأوثقاني برباط فلم أستطع فكاكًا، ودخلا بي بمكة ليطوفا على الناس يشهران بي!

ويح عمر، لقد صدقني النصيحة، وهو أعز الناس لدي بعد رسول الله، فقد حرص على أن يهاجر من مكة إلى المدينة معي، وتواعدنا على أن أنتظره عند (سرف) في أول الطريق، إذ آثرتُ أن أسبقه قليلًا متخفيًا كيلا أزعج أُمي، أما عمر فقد أبى إلَّا المعالنة الصارخة حين هَمَّ بالخروج، فتقلَّد سيفه وتنكَّب قوسه وانتضى في يده أسهمًا وأمسك عصاه، ثم مضى قِبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعًا ثم أتى المقام فصلى ركعتين، والقوم ينظرون، فمرَّ على حِلقهم واحدة واحدة وهو يقول: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلَّا هذه

المعاطس، من أراد أن يثكل أُمه أو يؤتم ولده أو يرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي، ومضى فلم يتبعه أحد من عتاة المشركين، لقد هابوه، ثم توجَّه حيث كنت أنتظره في (سرف)، فنعمتُ بصحبته وليتها دامت!

ثم زفر السجين زفرة حارَّة حين تذكر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

فقال في نفسه: لقد كان سعد أقوى نفسًا وأصدق يقينًا منِّي على أني لم أتزعزع لحظة عن الإيمان، فإن سعدًا أعلن إسلامه، فغضبت أمه وأنذرته هائجة فقالت: يا سعد ما هذا الذي أحدثته؟ لتتركن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فيُعيِّرك الناس بي، ويصيحون بك حيث اتجهت: يا قاتل أمه.

فأجاب سعد: لا تفعلي يا أُماه، فلن أترك ديني من أجلك. فأضربت عن الطعام والشراب حتى ضعفت، فجاءها ليقول في عزم صارم: يا أُماه والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني، فإن شئتِ فكُلي أو لا تأكلي، فلمَّا رأت منه الجد أكلت!

هكذا قوي سعد وأمه بمرأى ومسمع منه، وقد أنهكها الجوع، وهكذا ضعفتُ أمام أكذوبة اصطنعها أخواي، فصدقتهما وكذبهما عمر، إن سعدًا قوي ولم يضعف فشرف بكرامة الله وفضلة؛ إذ نزل فيه قول الله عز وجل: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩ ﴾[1]، فليتني كنت مثله فأملك من أمري ما يملك، أنا نادم نادم! وأتوب لربِّي ممَّا جنيت.

---

(١) سورة العنكبوت، الآيات (٨ – ٩). (نقلًا عن تفسير القرطبي).

هذا ما كان يدور في خلد عياش، وهو بمحبسه في مكة، أما المسلمون بالمدينة فقد انتهى إليهم أن عياشا وهشام بن العاص محبوسان ولا يستطيعان الفكاك، وقد حاروا في أمر عياش كيف طاوع أخاه وذهب معه، وهو يعلم أن أبا جهل كاذب لا يُصدَّق، وعمر بن الخطاب أشد المسلمين أسفًا أن خالف عياش نصيحته، وطالما سأل نفسه عن موقفه أمذنبٌ هو؟ وإذا كان قد أذنب أفما مِن توبة! وكان لفرط اشتغاله بأمر عياش يسأل كلَّ مهاجر قدم من مكة عنه، فيقول: إنه حبيس تحت رقابة بني مخزوم، وإن المستضعفين من المسلمين بمكة لا يستطيعون أن يصلوا إليه، فيهدأ بالُه، ويقول: لو طاوع عياش بني مخزوم على الضلال وأعلن الكفر لفكُّوا عقالَه وتركوه حرًّا، بل جعلوه مثالًا لمَن ترك الصابئين مِن أتباع محمد، ورجع إلى دين الآباء والأجداد، وهل يكون ذلك من عياش وهو من السابقين الأولين!

على أن الرسول ﷺ كان يُفكر في أمر عياش، ويعلم ببصيرته الهادئة إنه أمينٌ على إسلامه، وأنه يُكابد مِن ويلات الحبس ما يتحمله المحتسب الصابر، راضيًا مُطمئنًا، ثم جلس عليه الصلاة والسلام في نفر من صحابته ذات صباح وقال: مَن لي بعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص؟ وهو بهذا السؤال الذي ألقاه في جماعة المهاجرين يتحسَّس مَن لديه الرغبة في الذهاب سرًّا إلى مكة، فيجوس الدروب ويسأل مَن يطمئن إليه عن مكان الحبيسين، حتى يحتال الوصول إليهما ومعه عون الله وتأييده، فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أنا لها يا رسول الله، فأنا أعرف مكامن بني مخزوم، وأنا مِنهم، فلن أُضار، فتبسَّم رسولُ الله فرحًا، فخرج الوليد لساعته من المدينة، حتى إذا جاء مكة دخلها مُستخفيًا، فلقي امرأة قريشية في حي بني مخزوم تحمل طعامًا، فطمع أن تكون ذات شأن بالأسيرين، فقال لها: أين

تريدين يا أَمة الله؟ فقالت في براءة: أريد هذين المحبوسين، تعني هشامًا وعياشًا، وإذا أراد الله أمرًا يسَّره، قال الوليد: فتتبعتُها دون أن تعلم شيئًا ممَّا أُسِر، حتى دخلتْ موضعًا لا سقف فوقه، فتأكدت أنه محبس الرجلين، وقد اطمأننتُ كثيرًا إلى نجاح مهمتي، وانتظرت حتى عسعس الليل فتسورت الحائط على الرجلين، ففرحا أكثر الفرح بلقائي، ووجدتهما مُقيَّدين لا يستطيعان الفكاك، فعمدتُ إلى صخرة أضعها تحت قيديهما، ثم ضربت الصخرة بسيفي ضربة حاسمة فانحلَّ القيد، ومِن هنا سمَّيت سيفي (ذا المروة)، والمروة هي الصخرة الصلبة، وهي تسمية أقرَّها المسلمون بالمدينة، ثم تسلَّلت بالصاحبين فوق بعيري في عسق الليل حتى جئت المدينة.

وقد قال عياش في الطريق إنه تسلَّم رسالة مطمئنة من عمر بن الخطاب يحثُّه على الفرار، وأنه لا بأس عليه ممَّا صنع، فقد أنزل الله فيه وفي أمثاله نصًّا كريمًا هو قول الله ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[1].

وكان الثلاثة لشدِّة فرحهم بالخلاص يكادون يطيرون طيرانًا، ويودون لو تُطوى بهم الأرض طيًّا إلى المدينة فيُقابلون رسول الله في لمح البصر، وقد قال الوليد إنه قدم إلى مكة متفائلًا مُستبشرًا؛ لأن الرسول هو الذي أشار عليه ولن يخيب أمر صُنع على عين محمد!

---

(١) سورة الزمر، الآيات (٥٣-٥٥).

وقد كانت فرحة المهاجرين بلقاء عياش وهشام أكبر من أن تُوصف؛ إذ كانوا يتوجسون خيفة مِن أن يُشدد عدو الله أبو جهل عليهما العذاب، أو يحرمهما الطعام والشراب فيلقيا وجه الموت في محنة لا تجد النصير!! أما المشركون بمكة فقد وقع عليهم فرار الأسيرين وقوع الصاعقة، وأخذ بعضهم يتهكم بأبي جهل فيقول له: ذهبتَ إلى المدينة ورجعتَ بأخيك ليعود، فهلُم كرر الرحلة، فيعض على أسنانه مغيظًا؛ إذ تمت هجرة رسول الله إلى المدينة، وأصبح كيان المسلمين بمقدمه الكريم قويًّا مَكينًا، ولئن رأوه لأطبقوا عليه فقتلوه، ليس شأن اليوم إذن كالأمس، فالأيام تزيد محمدًا تأييدًا وتزيده ويلًا على ويل!!

تحمَّل عياش قسطه من الجهاد في السرايا والغزوات، وله موقف جهير أشارت إليه كتب السيرة حين بعثة رسول الله ﷺ إلى اليمن لدى رؤسائها من بني عبد كلال، فقرأ عليهم سورة البينة وفسَّر آياتها، حتى إذا فرغ منها تلا عياش قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ ﴾[1]، وأعقبه بقوله: آمن محمد وأنا أول المؤمنين، فاطمأن القوم لما آمن به وأعلنوا إسلامهم، وكانوا يلبسون القصب المزركشة ويتصدرون مجلس الحكم، فإذا وفد عليهم آتٍ انحنى ساجدًا، فسألهم عياش عن هذه القصب وأمر بأن تُجمع لتُحرق، حيث لا يجوز السجود لأحد دون الله، وإن اتشح بالقلائد وحمل الصولجان، وأجاب القوم عن طوع فأحرقت القصب في سوق عامة وأكثرها من الأبنوس المطعم.

وكأني بمَن شهدوا هذا العمل الرائع من الرعية قد قرّوا عينًا، إذ سادت العزة وعمَّت المساواة فلا سيد غير الله.

---

(١) سورة البينة، الآية: ٧.

واختلفت الروايات في خاتمة عياش، فمِن المؤرخين مَن ذكر أنه شهد معركة اليرموك تحت راية خالد بن الوليد، حيث أبلى بلاء حسنًا، ثم رجع سالمًا إلى المدينة، ومنهم مَن يذكر أنه رُزق الشهادة هناك، وكان جريحًا يعاني سكرات الموت مع عكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام، وكلهم قد أبلى البلاء الحسن، وإذا كان استشهاد عكرمة والحارث يوم اليرموك يقينًا لا يتطرق إليه الشك حيث تظافرت الروايات على تأييده، فإن استشهاد عياش موضع اختلاف، ولن يضيره أن أخر الله أيامه إلى أجل مُسمَّى، ففارس المعركة خالد بن الوليد رجع من اليرموك سالمًا ومات على فراشة بعد أن كسب النصر المؤزر، وهو بعد سيف الله المسلول.

❁❁❁

هارب من نفسه

كان دير أيوب بحوران غارقًا في صمته، والليل من حوله يسدل ستوره السوداء، دامسًا قاتمًا، وقد سكنت الريح فما يُسمع لها صوت فيما نهض حول الدير من شجر السور؛ إذ سكنت الأوراق ونام الطير، ولكن الباب يدق دقات متتالية فجأة وعلى غير موعد من أحد، فنهض الراهب (سمعان) يُوقظ زميله (دانيال) متسائلًا عن طارق الليل، وتقدَّم الأخير لينظر مِن ثقب الباب الحديد فيجد شبحًا لأعرابي معه ثلاث نياق محملة بالبضائع، فظنه أحد النصارى الذين اعتادوا أن يحملوا الزاد والميرة إلى الدير قربانًا وإحسانًا، فأسرع بفتح الباب، ولكنه فُوجئ بمَن يقول له: أنا أُمية ابن أبي الصلت ومعي تجارتي التي قدمت بها من الطائف لأبيعها في دمشق، وقد عزمت على أن أقضي الليل هنا كعهدي من قبل!

ودخل أُمية إلى حجرة أُعدِّت لنوم الطارقين، على حين قام خادم الدير بنقل الإبل إلى مناخها بالساحة الواسعة، بعد أن أنزل أثقالها، وذهب دانيال إلى سمعان يُحدثه عن الوافد الذي أرهقه التعب فآثر أن يستريح إلى الصباح.

قال الراهب سمعان: إنني أعرف أمية منذ أربعين عامًا، أعرفه وأنا شاب صغير أقيم مع أستاذي الراهب (حزقيال)؛ إذ كان هذا العربي يَفد إلينا كثيرًا ليتحدث عن المسيح وليذم الأصنام، فكُنا نطمع في استمالته إلى النصرانية، وكان يُكرر زيارته حين يفد بتجارته إلى الشام، وقد قرأ الإنجيل، ولكنه كان يطمع أن يكون نبيًّا، وآخر عهدي به منذ عامين، إذ جاء ناقمًا ثائرًا يُعلن أن رسولًا عربيًّا قد ظهر في مكة يُسمى محمدًا، وأنه دعا إلى عبادة الله ونبذ الأصنام، وكنت أعرف كثيرًا عن نبوة

محمد وبعثته منذ كنت بالحبشة وخالطت المسلمين في بلاد النجاشي، فقلت له: وماذا يزعجك مِن رجل يدعو إلى عبادة الله ونبذ الأصنام، أليس ذلك ما صممت عليه من قبل؟ فعضَّ على أسنانه مغيظًا، وقال: ولِمَ لا أكون أنا رسول الله، حينئذ عرفت أن شقاءه سيطول.

قال دانيال: لقد تذكرت يا أخي بعض أمره، أليس هو الذي زارنا من أمد لا أعلم تقديره بالتحديد، فحدثنا آسفًا حزينًا عن انتصار نبي الإسلام في بدر، وعن مصرع رؤساء الشرك بمكة، وأخذ يرثي عبدة الأصنام بشعر تعجبنا كثيرًا لصدوره منه، إذ ينحاز إلى عابدي الأوثان، وهي ممَّا لعنها مِن قبل، وشنَّ عليها السباب!

قال سمعان: أذكر ذلك جيدًا، وما أظنه قدم اليوم إلَّا ليتحدث بأنباء جديدة عن نبي المسلمين، صادفت موقعها السيئ من نفسه!

فردَّ دانيال يقول: لقد كان مُرهقًا كاسف البال، شاحب الوجه، وقد أعلمته أنك متيقظ الآن، فآثر أن يستريح حتى الصباح.

وفجأة سمع الراهبان صوت أمية ينادي مِن حجرته، فتساءل سمعان عن سبب ندائه، وتوجها معًا إليه.

قال أمية: لم أستطع النوم مع تعبي الشديد، وقد علمت أنكما ساهران، فرأيت أن أسعد بحديثكما، إذ لا رقاد!

قال سمعان: على الرحب والسعة يا أمية، فأنا أذكرك دائمًا منذ كنا نقرأ معًا صحائف الإنجيل، ولكنك الآن جئت بأحمال النياق لتتاجر في أرض الشام، فهل تركت أشواقك الدينية في السماء ونزلت إلى مساومة الباعة والمشترين في الأرض! إن التجارة ذات مكسب رابح، ولا عليك إذا جعلتها ميدان نشاطك وأسأل لك الربح والنماء!

فشهق أمية شهقة أفصحت عن مكنون حزنه!، وقال: أي تجارة أهتم بها يا سمعان، أنا في غنًى عن التجارة منذ اتصلت بعبد الله بن جدعان، وآثرته بمدائحي فأعطاني من الثروة ما جعلني أنعم بالرخاء مهما امتدت الحياة، ولكن الطائف وجزيرة العرب كلها ضاقت بي، منذ أخذ محمد نبي الإسلام يجمع العرب على دعوة التوحيد، وقد انتصر أخيرًا في معركة الأحزاب، مع أن قريشًا جمعت له قبائل العرب من شمال ويمين لتستأصل شأفته بالمدينة، ولكن الأحزاب قد اندحروا أمامه وفروا هاربين، وكنت ذا أمل كبير في انهياره، فحين جاءتني أنباء نصره عزمت على الرحلة إلى الشام، وأظهرت لأسرتي أني نويت التجارة كيلا أجد أبنائي من يناصبني الخلاف، ومن مصيبتي معهم أنهم لا يُشاركونني آمالي الواسعة في الرياسة الدينية، فقلت لهم: لقد تركت عقيدتي ورائي وسأشغل نفسي بالتجارة، فاغتبطوا سرورًا، وخرجت مع ما حملت فرارًا من نفسي التي لا تستريح!

قال سمعان: أسمع منك ما يدهشني حقًّا، أفتغضب لأن عبدة الأصنام من المشركين قد اندحروا مع حلفائهم يوم الأحزاب، أفكنت ترضى أن يستمر الشرك حتى تظلم النفوس ويعظم الطغيان!

فنظر أمية متعجبًا وقال: إذا كنتَ سمعتَ منِّي ما أدهشك فلتعلم أنني أكثر دهشة منك، حين ترحب بانتصار الإسلام وأنت قس مسيحي وراهب دير!

فقال سمعان: وماذا في ذلك، إن المسيحية دين سماوي والإسلام دين سماوي، وما ينبغي أن يختلف رجال الدين وربهما الله.

فضرب أمية كفًّا بكفٍّ وقال في انفعال: وما مبلغ درايتك بالإسلام؟ حتى تجعله مع المسيحية في وفاق؟

قال سمعان: هل لك أن تهدأ.. لتنصت إلى الحق دون انحياز، بل هل لك أن تحاول الهدوء؛ لأن قلقك يمنع عنك كل اطمئنان!

فهزَّ أمية رأسه وقال في تبرم: أنا هادئ، فهات ما لديك!

قال سمعان: لقد كنتُ في الحبشة منذ أعوام طوال، ورأيت المهاجرين من المسلمين هناك، كما شاهدت نقاشهم مع النجاشي فارتحت إلى ما يقولون، كما ارتاح النجاشي نفسه، وشملهم بعنايته، وهو مسيحي عاقل أريب! وما زلت أتذكر حديث جعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول، وقد سأله النجاشي عن الدين الجديد فقال: أيها الملك، كنَّا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء إلى الجار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث اللهُ إلينا رسولًا منَّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعا إلى الله لنعبده وحده، ونخلع ما كنا نعبد من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدَّقناه واتبعناه، فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك وآثرناك على مَن سواك، فرغبنا في جوارك ورجونا ألا نُظلم عندك.

قال النجاشي: فهل معك شيء ممَّا جاء به عن الله؟

قال جعفر: نعم، فقرأ له: كهيعص، سورة مريم

فبكي النجاشي وأساقفته، وكنتُ مع الباكين

ثم قال الملك: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج مِن مشكاة واحدة، والله لا أُسلم المسلمين إلى قريش أبدا.

قال أمية: أو عندك هذا كله من أمر الإسلام؟

فقال سمعان: ولذلك لا أُخاصمه، وأُعارض مَن يفضل الوثنية عليه، وما ظننت أمية الذي قرأ معنا الإنجيل في دير أيوب، والذي جاس خلال أديرة الشام والعراق، وناقش الأحبار والرهبان، يجزع لاندحار عبدة الأصنام، ويفر من بلده ضائقًا بنصرة الحق واندحار الضلال.

قال دانيال: ارفق بأمية يا سمعان، فلكل إنسان آماله، وما أسوأ عاقبة الآمال، أذكر أن أناسًا مِن الحنفاء قد مرُّوا بنا في دير أيوب، كما مرَّ أمية ولكنهم كانوا أهدأ منه نفسًا؛ لأنهم كانوا ينتظرون مبعث نبي، أما أمية فكان ينتظر أن يكون هو النبي!

قال أمية: ومَن الذين مرُّوا بكم في دير أيوب من الحنفاء.

فقال سمعان: أنا أردّ عليك، مرَّ بنا زيد بن عمرو بن نفيل، ومرَّ بنا ورقة ابن نوفل، ولا أدري إلَّا أنهما قد ارتحلا عن الحياة، ثم مرَّ بنا سلمان الفارسي، ولا زال مرموقًا بين صحابة محمد!

فردَّ أمية: ارتحل زيد وورقة عن الحياة فاستراحا، وإن كنتُ أشك في أنهما سيُرحِّبان بأن يكونا تابعين لنبيٍّ من بني هاشم!

فصاح سمعان: حسبك يا أمية، إن حديث ورقة بن نوفل لشهير ذائع، وقد عاش حتى نزل الوحي على الرسول في غار حراء، وزاد فطمأنه بما نزل عليه!

قال أمية: سمعتُ مثل هذا ولم أُصدق!

فصاح دانيال: لم يكن لورقة غرض ما غير الوصول للحق، فما أسرع ما استجاب.

فدُهش أمية وقال: أو تعلم أنت أيضًا أمر ورقة، حدِّثني إذن عمَّا تعلَّم.

فعجل دانيال يقول: كيف لا أعلم أمر ورقة، وقد تعلَّم العبرية على يد راهبنا

الأكبر حزقيال، وقرأ الصحف وتنصر، فقلت له: أوَ تستمر على نصرانيتك؟ فقال: حتى يظهر النبيُّ الذي بشَّر به الإنجيل!

قال أمية: ثم ماذا؟ فقال دانيال: جاءتنا الأنباء بأن ورقة استمر مُهابًا مُبجَّلًا في مكة، فكان يُصلح بين المتخاصمين وينهى عن عبادة الأوثان، وكان ابن عم خديجة زوجة محمد، فلمَّا نزل عليه الوحي في غار حراء ورجع إليها يرجف فؤادُه ويُحدثها بما نزل عليه من القرآن رأتْ أن تذهب إلى ورقة، فهو أوَّل مَن يُدرك حقيقة ما جدّ مِن أمر محمد، فقَدِمتْ به إلى منزله، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له: يا ابن العم، اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ماذا رأيتَ يا ابن أخي؟ فحدَّثه محمدٌ بكل ما كان مِن أمره، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى، يا ليتني كنتُ حيًّا إذ يُخرجك قومُك، فقال محمد: أوَ مُخرجيَّ هُم؟ فقال ورقة: لَمْ يأتِ رجل بمِثل ما جئتَ به إلَّا عُودي، وإنْ يُدركني يومُك أنصرك نصرًا مُؤزرًا، ثم حان الأجل فمات ورقة.

فقال سمعان: ماذا تقول يا أمية فيما قال دانيال؟ ألا تزال غير مصدق.

فزفر أمية ثم أنشد.

ليتني كنتُ قبل ما قد بدا لي ... في رءوس الجبال أرعى الوعولا!!

فضحك سمعان وقال: في مكنتك أن تنسى أمر محمد وتذهب إلى رءوس الجبال فترعى الوعول!

فردَّ أمية: يُخيل إليَّ أن الثمانين وقد جاوزها ورقة عند بعثة محمد كانت عاملًا في سهولة انقياده!

فقال دانيال: رجعنا إلى اللجاج من جديد، ليت الأمر أمر الثمانين، ولكنَّه الخلوص إلى الحق دون غرض ذاتي، أنقول ذلك مرة ثالثة.

فصاح أمية: جئتُ يا قوم هنا لأستريح لا لأتكدر، فلنترك أمر ورقة إلى أمر زيد بن عمرو بن نفيل!

قال سمعان: لا أعلم عن مصيره شيئًا، لقد كان يأتي دير أيوب ويناقش راهبنا الأكبر حزقيال، ولكنه لم يُرحب باعتناق النصرانية كما اعتنقها ورقة، ولَمْ نشأ أن نُجبره على اعتناق ما لا يريد!

فقال أمية: ولماذا يُرحب الدير بلقائه إذن ولم يعتنق المسيحية؟

فردَّ دانيال: كما نُرحب بلقائك الآن! على أن زيد بن عمرو طالب حقيقة لم يجدها، فأخذ يتلهف على لقائها، ولكنك نشدت الحقيقة، فحين امتد بك العمر إلى لقائها نكصت على عقبيك!! لقد مات زيد بن عمرو شهيدًا، وقال نبيُّ الإسلام: إنه يبعث أمة واحده!

فهاج أمية قائلًا: ويلي كأنكما تتكلمان بلسان محمد.

قال دانيال: وماذا في هذا؟ لقد جاءنا أن وحيًّا مِن الله ﷻ نزل على محمد بهذه الآيات: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾[1].

(١) سورة المائدة، الآيات: (٨٢-٨٥).

قال أمية ساخرًا: وأنت يا سمعان هل تحفظ شيئًا من القرآن كما حفظ دانيال؟

فقال سمعان: أحفظ أيضًا ما نزل في القرآن عن شهداء النصرانية الذين أحرقهم ذو نواس، لأنهم آمنوا بالعزيز الحميد، فقال عنهم كتاب الله: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ ﴾[1].

قال أمية: لو كنت أعلم أنكما ترويان مِن قرآن محمد ما اتجهت إلى دير أيوب مهما أظلم الليل وتمثل الرعب.

قال سمعان: ندعك تنام فقد طال النقاش.

فعجل أمية يقول: لن أنام فقد أثرتما في نفسي من اللواعج ما يمنع الرقاد عدة ليال!

فسكت الراهبان مليًّا ثم قال دانيال: أعلم أن التغلب على رغبات النفس الطامحة يحتاج إلى كفاح هائل؛ لأنه جهاد شاق، ولكن الرجوع إلى العقل في حالات الصحو الروحي ممَّا يجعل الانتصار مُحققًا، وإذا كان الطموح دافعًا للعذاب الشاق فلماذا لا يُوجه الطموح إلى ميدان يأتي بالثمرة المشتهاة دون تعذيب؟

قال أمية: بربِّك أفصح عمَّا تريد!

فردَّ دانيال يقول: ألستَ تؤمن بالحقائق الدينية التي جاء بها محمد، فلتذهب إليه ولتكن معه في صف واحد، وسيُقدِّمك بين أصحابه فيسير طموحك متوائمًا ومُنسجما مع ما تعتنق من الآراء!

---

(١) سورة البروج، الآيات: (٤-١٠).

قال أمية: وأكون الرجل الثاني!

فردَّ سمعان: هذا هو الخطر حقًّا! الخطر في أن ننظر إلى أنفسنا وكل فرد يعتقد أنه وحده مركز الكون!

وسكت أمية فلم يُجب، فقال دانيال: لقد ذكرنا اسم (سلمان الفارسي) فيمن زارنا من الباحثين عن الحقيقة بهذا الدير، وعلمتُ أنه الآن من أكبر أصحاب محمد؟ أفيكون أمية الشاعر العربي المثقف دون سلمان، وقد نزح غريبًا من فارس!

فقال سمعان: نسيت أن سلمان كان يبحث عن الحقيقة لذات الحقيقة، أمَّا أمية صاحبنا فيبحث عنها لذاته هو! أي أنها لا تكون حقيقة صادقة في رأيه إلَّا إذا اقترنت به، وهنا موضع الخلاف.

فتجهَّم وجه أمية وقال: تتحدثان دائمًا بما لا أستريح له، وما وجدت في حديثكما قبسًا من ضياء!

فقال دانيال: تستطيع أن ترى الضياء إذا تجرَّدتَ عن أوهامك يا أمية! فزَيْت المصباح تحت يدك، وما عليك إلَّا أن تُشعل الثقاب فيُضيء المصباح! وصبَّحك اللهُ بالخير، فقد آن أن نستريح جميعًا!

ثم خرج الراهبان ليتركا أمية في خِضَّمٍ من أفكاره المتلاطمات.

وفي الصباح أعد نياقه وتهيَّأ للمسير، فقال له سمعان: إلى أين يا أمية؟

فقال: حيث أهرب منكما؟

فضحك دانيال وقال: لسنا لك بخصم، ولكنك تحاول أن تهرب من نفسك وهي معك أنى اتجهت! عندك الزيت ومعك الثقاب، فأوقد المصباح كي لا تتخبط في دياجير الظلام...

❁❁❁

نبوءة تتحقق

- ١ -

أخذتِ الظهيرةُ الحامية تُلهب رمل الصحراء حتى ما تستطيع الإبل أن تمعن في السير، وهي إبل الشاب القرشي عمر بن الخطاب بن نوفل العدوي، يتقدم بها من مكة إلى عكاظ، مُحمَّلة ببضائع مجلوبة من رحلة اليمن لتُباع في سوق عكاظ، وهي سوق تجارية حافلة، يؤمها العرب جميعًا قبل أن يتوجهوا للحج بمكة، ولكلِّ قبيلة مكانها المشتهر ورجالها الذين يبيعون ويشترون تارة ويلهون ويتندرون تارة أخرى، وفيهم مَن يستمع إلى خطب البلغاء وقصائد الشعراء، ومَن يجلس للحكم على ما يرتجل من الخطب وينشد من الشعر، أما حفلات السباق ومشاهد المصارعة بين البسلاء من الأبطال فمما يحرص على مشاهدته مَن يأتون إلى السوق ليروا الوجوه الجديدة تُضاف إلى ما يعرفون من الوجوه المشتهرة، ذلك ما تزخر به عكاظ من نشاط سنوي، وبعض ما قدمت لأجله قافلة الفتى القرشي عمر بن الخطاب.

لقد كان ابنُ الخطاب تاجرًا ذائع السيرة في مجتمعه، فإبله المُثقلة ترمي حمولها المُكدَّسة ليتدافع إليها مَن عرفوا براعة عمر في انتقاء العروض وجلب الطرف من أقاصي البلاد، وفيه صدق وحمية، أما صدقة فيمنع اللجاج في المساومة والمماكسة في البيع، وأما حميته فتخلع عليه هيبة واحترامًا، فما يُحدِّث امرؤ نفسه بانتقاصه أو التهجم عليه، وعمر مع إنه تاجر مرموق ذو لسان ناقد فهو ينتهز مجالس السمر بالليل ليتوجه إلى خيام الشعراء، فيسمع ما يُروى وينقد

بعض ما يسمع، وقد سارت له شهرة بحب قصائد زهير بن أبي سلمى، وتفضيله على شعراء العرب جميعًا؛ لأنه في رأيه مثال العاقل الحكيم الذي يصدق القول ويهجر المبالغة، ويجري بالقول على اطراد متسلسل لا معاظلة به ولا تعقيد، أما من يليه من الملهمين فهو نابغة بني ذبيان، لاتئاد منطقه وخلوصه إلى اللباب دون حشو، والناس يستمعون أحكام الشاب القرشي فيتناقلونها ويختلفون في تقديرها بين مُؤيِّد ومُتحفظ، وعمر لا يعنيه أن تكون أحكامه مجال اتفاق تام، وإنما يعنيه أن يفصح عن رأيه دون خفاء!

على أنه لا يقتصر في عكاظ على التجارة والشعر، بل يسهم في المصارعة الرياضية؛ لأنه شاب جلد، تفور في أجلاده حميا النشاط، وقد كانت له جولات رياضية شهدها النظارة، فحذروه واتقوه، بل إن مصارع كنانة قد تحدَّى القرناء ذات أمسية قمراء، وفيهم عمر، فلم يلبث الصيال أن نشب، وقد تحلقت الأفواج في الساحة الممتدَّة على هيئة دائرة مكتملة، واشرأبت الرقاب، وتطلَّعت الأبصار، وحبست الصدور أنفاسها، لترتد حين تحين النهاية فينتصر عمر وتبتهج قريش بفوز ابن الخطاب، فترجع بعد انفضاض السوق، وفيها عجب وبها مباهاة.

رجع عمر ليحج البيت مع من رجع؛ إذ كانت عكاظ تسبق ميقات الحج، لتنتهي بابتدائه، ثم ليقضي بعد ذلك أيامًا معدودات، ليهيئ أسباب الرحلة التجارية إلى بلاد الشام، وكان انتصاره في المصارعة بعكاظ باعثًا على الاطمئنان إليه؛ إذ يستطيع أن يحمي القافلة النازحة إلى الأفق البعيد، فأقبل القرشيون يتقدَّمون بعروضهم إلى عمر، ليكون سيد أمرها، وليرجع بالربح الجزيل، فيشاطر أصحاب العروض مكاسبهم بما حقق من ربح، وهي مكاسب ترتفع على يده إذا قيس بنظرائه.

وحار عمر فيما يتدفق حوله من بضائع، ولكنه هيَّأ لكلِّ شيء حسابه، حتى إذا حان الموعد سار الشاب القرشي حاميًا قافلة لم تعهد له من قبل، وقد باهى بمكانته؛ إذ توافد أصحاب العروض لتوديعه في ساعة مشهودة، وفيهم مَن يحتضنه في حرارة، ومَن يقبل في شوق، ومَن يسلم في رجاء، وما زالت العيون تتبع القافلة النازحة حتى توارت عن الأنظار، فرجع المودِّعون إلى بيوتهم بمكة يتحدثون بما ينتظرون من خير على يد عمر، وسار هو في مقدمة القافلة، وله ثقة مطمئنة، وقد عرف كلَّ فرد من أفراد جماعته، وحدَّد لكلِّ إنسان عمله وموقعه، وأجَّج من حماسة الركب حين وعد بالكسب المتاح والأوبة الحميدة عن قريب.

ومن شأن عمر أن يلم بكل شيء يُهيمن عليه، حتى عجب منه من رجال القافلة مَن لم يكن صحبه من قبل، فهو يعرف منابع الماء في الأرض المستكنة، فيأمر بالحفر حتى تجود الرملة بمائها، وله دراية بشيوخ الأحياء ورجال القرى الممتدة في الطريق، يقابلهم مقابلة الصديق، وفيه مع ذلك حرص وإمساك، فلا يسمح لمشترٍ أن يرخص ما حقه أن يغلو، وقد اشتدَّ ذات مرة فلامه بعض رفاقه، فقال: أنا أدرى بما أصنع، وأنا لا أغالي ولكني لا أفرط، وكان إذا نزل الركب للطعام هيمن على الطاعمين من إنسان وحيوان بنفسه، وساعد على الإعداد، وتلك عادة لزمته حتى في مؤخر حياته؛ إذ يرى من حق القائد أن يطمئن إلى راحة أتباعه، حتى إذا استوثق من كل شيء وجاء وقت الراحة اعتزل غير بعيد، لينام وحده، نوم من يحرص على النهوض في موعده الذي حدده دون إبطاء، وما زال يطوي القرى والمدائن حتى بلغ (إيلياء) بادية الشام، فنزل القوم عن ركابهم وتهيئوا للقيلولة ردحًا من الزمان.

مدَّ عمر بصره إلى الفضاء الممتد، فلمح رجلين، أحدهما طويل جسيم والآخر هزيل ضاوٍ، يتعاونان على حمل شيء ثقيل ويجرانه جرًّا؛ إذ لا يطيقان رفعه عن الأرض، فرأى من المروءة أن ينهض لمعونتهما، وكان نظره قد خدعه، فحسب البعيد قريبًا فأسرع على عادته، إذ كان طويل الساقين يُتعب من يسايره كي يستطيع محاذاته، حتى بلغ ما أراد، فرأى الرجل الكبير راهبًا من شيوخ النصارى، أرسل لحيته الممتلئة، ويرتدي عباءته السوداء المنفرجة، أما تلميذه فراهب صغير، ينم مظهره عن بؤس ومرض معًا، ولكن عينيه ترسلان بريقًا مشعًّا إذا أطال النظر، فلم يلبث أن حمل الصندوق وحده، وسأل عن المكان، فأشار الراهب الكبير إلى دير قريب، وصلوا إليه جميعًا، وما كاد الراهب يدخل ساحة الدير حتى خلع عباءته وامتشق سيفًا، وقال لعمر في غلظة: ستكون خادمي من الآن مع هذا التلميذ المريض، ولن تبرح الدير حيث أوصده عليكما، وإذا حاولت الفرار فلن تستطيع، فأنت شاب جلد تستطيع أن تقوم بتنظيف الدير خادمًا مطيعًا مع هذا الخائب، ولا عليك فستأكل وتشرب، وماذا تبتغي بعد هذين!

سمع عمر تهديد الراهب الماكر، ورأى نفسه أعزل لا يستطيع مقاومة السيف في يد من يدَّعي الرهبنة، وهو قاطع طريق مارد، فجلس على الأرض كمَن يُفكر، ثم أغلق الراهب باب الدير وخرج.

تطلَّع عمر إلى الراهب الشاب صامتًا، ولكنه وجد دموعه تترقرق في عينه، فسأله عن بكائه، فقال الشاب مخزونًا:

لقد كنت راهبًا في دير حمص، فعمد هذا الشرير إلى زيارتنا منذ عامين، وأظهر من التسبيح والتقوى ما خدع رفقائي بالدير، ثم جعل يطيل النظر إليَّ في مودة، حين سمع مِن حديثي ما عرف به منزلتي من العلم والدراية، فأجهش

بالبكاء وقال لرفقائي في ضراعة: لقد تقدَّمتْ بي السن وأنا في حاجه لمَن يتلو تراتيل الأحد ويعظ المُصلِّين، بعد أن ثقل لساني، وأرى أن يصحبني هذا الشاب، ليكون راهب الدير بعدي، فصاح رئيس الدير: تلك رسالته ولن يتخلى عنها، واجتمعوا عليَّ فأذعنت، وما حللت هذا المكان حتى وقفت على سيرة راهب ليس له أدنى صله بالمسيح، يكذب وينهب ويدبر مكايد القتل حينًا، كما أنه لم يكن شيخًا ثقيل اللسان كما ادَّعى، ولكنه خبيث ماكر تصنَّع وافتعل حتى تمكَّن وقادني.

قال عمر مغيظًا: وكيف نصبر على هذا؟

فأجاب الراهب الشاب: إنه يُغلق الباب الحديدي ومفتاحه في جيبه، ولن يرجع قبل المساء، وعلينا أن نقوم بالتنظيف والتهوية حتى نأمن اعتداءه، كما أنه لا يترك خنجره، بل يحمله في وسطه أنى سار، لأن أعداءه كثيرون، فحاذر أن تهجم عليه فهو شرير شرير!

أخذ عمر يجول مع صاحبه في الدير فلمح قرابًا في زاوية خافية، هزَّه قليلًا فعلم أن السيف داخله، فترك مكانه حتى إذا ألم بكثير من محتويات الدير رجع إلى الراهب الشاب، وجلس يُحدثه، فوجد الراهب يتأمله كالحائر، وكأنه يعرفه من قبل، ثم سأله في رقة حانية: ما اسمك يا سيدي؟

فقال: أنا عمر بن الخطاب، عدوي من قريش!!

فأكب الشاب على يده مُقبِّلًا، وصاح: صدقتْ فراستي.

قال عمر دهشًا: أية فراسة هذه؟ قال الراهب: ستكون صاحب الأمر في هذه البلاد، أنت شاب آدم طوال أصلع أشقر، بعيد ما بين المنكبين، شديد الحمرة، عربي قرشي، واسمك عمر، ستدول دولة الروم في الشام على يدك، والله ما خدعتني نفسي!

تعجَّب عمر وصاح: نحن الآن أسيران، دعنا من نبوءتك.

فسأل الراهبُ: أوَ تقرأ وتكتب يا عمر؟ فقال: نعم.

فنهض سريعًا إلى قرطاس وقلم، وقال له اكتب: «هذا عهد من عمر بن الخطاب إلى راهب لقيه في دير إيلياء، له ما لأصحابنا، وعليه ما عليهم، لا نظلمه ولا نخذله ولا نفرض عليه ما لا طاقه له به، وله ديره وما ملك».

فقال عمر: أمُصمِّم أنت على أن أكتب؟

فقال الراهب: لن تخسر شيئًا.

قال عمر: أوَما ترانا أسيرين!

صاح الراهب: ستنجو وقد أنجو معك.

فبسط عمر القرطاس وكتب، ولكن تفكيره كان متجهًا إلى الخلاص من قبضة الراهب، وقد علم صاحبه أنه إذا أقبل سارع وأوصد الدير، وفي كفه الخنجر.

فقال عمر: لا بأس.

وقبل أن تغيب الشمس سمع عمر مَن يفتح الباب الحديدي، وكان قد دبَّر أمرًا إذ رجع إلى السيف فحمله وتقدَّم إلى الباب قبل أن يفتح ففاجأ الراهب بضربة سقط بعدها، وصاح الراهب الشاب: هيَّا، فانطلق معه فرحًا، وصاح: نجوت يا عمر ونجوت معك المرة الأولى، وسأنجو على يدك للمرة الثانية، وما فارقا الدير حتى جدَّ عمر في اللحاق بالقافلة، واتَّجه رفيقُه إلى حمص، حيث كان من قبل.

-٢-

مرت السنون خلف السنين، وجدَّت أحداث وأحداث، كان أظهرها جميعًا مشرق الإسلام في مكة، وائتلافه في ربوع الكون، ممتدًّا إلى ديار فارس،

وممتلكات الروم بالشام ومصر، وتقدَّمت كتائبُ خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص، ودخلت حمص ودمشق وإيلة والجابية في دين الله، وانطلقت الكتائب الظافرة إلى بيت المقدس في فلسطين بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، فتمَّ نصر الله، وأصر أهلُ البيت المقدسي أن يدخلوا في عهد المسلمين وحمايتهم، على أن يكون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نفسه من يُوقِّع العهد، وفى بيت المقدس بالذات.

وكانت في نفس الفاروق رغبة في أن يتعهد بلاد الشام، ويرى بعينه نور الإسلام يأتلق في ربوعها، مؤذنًا بالعدالة والحرية والمساواة، فنزح عن المدينة ولكن مع مَن؟ مع غلامه أسلم وحده، وتقدم الشاميون ممَّن رأوا موكب هرقل قبل عشر سنين عقب انتصاره على الفرس، يزحم الأرض في مائة ألف جندي من أبطاله، ومِن فوقهم الأعلام والرايات، وبأيديهم السيوف والرماح، وعلى صدورهم الأوسمة والنياشين. تقدَّم هؤلاء ليروا موكب أمير المؤمنين الذي أطاح بجيوش هرقل، فكانوا كالهباء ظانين أنه سيرجّ الأرض رجًّا بزحفه الحافل، ولكنهم وجدوا بعيرين يركبهما رجلان، فسألوا متى يجيئ موكب أمير المؤمنين؟ فسكت، ثم قالوا: أين هو الآن؟ فقال عمر في بساطة مستغربة: هو أمامكم!

وكان قميص عمر قد تغيَّر من غبار السفر وعرق الهجير، فدفعه إلى من يغسله، وسارع أحدُ الرهبان فأحضر قميصًا من حرير، فنظر إليه عمر في تواضع وقال له في رقة: خُذه، لا يتحمل عرق الرجوع، قميص القطن أمتن وأرخص، ثم انتقل عمر من دمشق إلى بيت المقدس فقدَّم له أبو عبيدة جوادًا ذا قوة وأصالة، وقال: إنه أسرع من البعير، والقوم ينتظرون أمير المؤمنين على عجل، فركبه عمر فوجده ذا خيلاء وعجب، فنزل سريعًا وقال: ما لي ولهذا؟ هاتوا فرسًا من أفراس

العامة، كيلا ينتقل إليَّ زهو هذا فأضيع! وكان دخوله بيت المقدس ليلًا، فتوجَّه إلى محراب داود ليُقيم الصلاة، ومكث بعد العشاء في المسجد حتى حان الفجر، فأَمَّ الناسَ وقرأ قول الله عن نبيه داود: ﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٧﴾ ﴾[1] وسبعة آيات بعدها في الركعة الأولى، وقرأ في الركعة الثانية الآيات الأولى من سورة الإسراء.

وتناول طعام الإفطار في المسجد، ولم يزد عمَّا كان يأكله في الطريق، ثم نظر فوجد كناسة حول البيت الشريف، فطلب مكنسة، وقال: أيها الناس، اصنعوا كما أصنع، وبدأ بإزالة الكناسة، فنهض القوم يعاونونه حتى نظف المكان، فرجع عمر إلى مصلاه، وجعل يتحدث عن حقوق الإنسان في ظل الإسلام، فما راعه أن يسمع مَن يصيح: يا أمير المؤمنين، فنظر فإذا راهب إيليا يتقدَّم إليه باسمًا، ويُقدِّم له قرطاسًا كتبه عمر من قبل فيقرأ فيه:

«هذا عهدٌ من عمر بن الخطاب إلى راهب لقيه في دير إيلياء، له ما لأصحابنا وعليه ما عليهم، لا نظلمه ولا نخذله، ولا نفرض عليه ما لا طاقة له به، وله ديره وما ملك».

حار عمر وقد جاشت به الذكرى، فانتفض الماضي أمامه بملامحه وقسماته، لم يغب منها شيء، ثم ابتسم للراهب قائلًا: هذا عهدي، ولك ذمة في عنق كل مسلم، والتفت إلى أبي عبيدة وقال له: أسمعت؟ ذلك جاري وله الأمان والذمة، ثم سقطت عبرة من عينه وهو يقول: الحمد لله رب العالمين.

❁❁❁

(١) سورة ص، الآية: ١٧.

إلى بيت المقدس

- ١ -

لم ينعم موريس بفراشه؛ إذ أخذ يتقلَّب عليه دون أن يغمض له جفن، وكيف ينام وعمُّه الذي اغتصب مال أبيه يرهقه بأشق الأعمال طول اليوم، ولا يسمح له باستراحة القيلولة، كما يستريح أبناء عمِّه، وهم لداته، يرفلون في أغلى الثياب، ويطعمون ألذ الطعام، ويسافرون للنزهة مع والدتهم في المصيف، على حين لا يبرح المزرعة، وكأنه عامل غريب لا يمت إلى عمِّه بنسب! على أنه سمع مِن أُمِّه قبل رحيلها المفاجئ أن مال عمِّه قد سرق من خزانة أبيه؛ إذ اشتغل المنزل بوداع جنازة الراحل، وتهيئة مراسم التشييع، فلما رجعوا من الكنيسة وجدوا خزانة المال منهوبة، ولم يحضر الأخ جنازة أخيه، وشُوهد يخرج من المنزل مُتسلِّلًا أثناء الدفن؟ لقد ماتت الأم بحسرتها وتركت موريس في مهبِّ الريح، فرأى عمُّه أن يضمه إليه، لا ليكون نجلًا عزيزًا، بل ليكون عاملًا يفلح الأرض في النهار ويقضي حاجات المنزل شراء وتنظيفًا في الليل، حتى إذا أجهده التعب نام حيث يعمل مكتفيًا بفتات الزاد ورخيص الملبس.

وقد فكَّر كثيرًا في الفرار مِن سجنه المرهق، ولكن إلى أين يتَّجه؟ وعمه صاحب كلمة مسموعة يستطيع بها أن يرده إلى منزله، وأن يدعي حق رعايته؛ لأنه ابن أخيه الراحل، وقد أوصاه به قبل أن يرحل.

ورأت القرية الجاثمة في سفوح (الألب) وفودًا مُحتشدة تتجمع من كل صوب، يباركها القسس والرهبان، ويتقدَّمها الوجهاء من أمراء البلاد، وتظللها

الرايات، تحمل الصليب وصور المسيح والعذراء، فتساءل موريس في حذر، فعلم أن القوم يرحلون للشرق لينقذوا قبر المسيح من كفرة المسلمين، وأنهم يجمعون الشباب من كل ناحية ليكونوا من جنود الحروب الصليبية، وقد أعلنت الكنيسة غفران الله لكل نازح، إذ ضمن الجنة بكفاحه سواء استشهد أم عاش؛ لأنه منذ انخراطه في الجيش الغازي سيكون في رعاية (يسوع) يرعاه أنى سار!

حديث عذب رائع، استمع إليه في شوق، ولكنه كتم فرحة النجاة في نفسه حذرا من سطوة عمه، فقد يقف حائلًا دون إرادته، وقد يبادر بسجنه أيامًا مظلمة في الطابق الأسفل بمنزله، كما فعل من قبل، لقد رجع إلى عمله منهمكًا، بعد أن عرف طريق النازحين إلى البحر الممتلئ بالسفن، كي تحمل المجاهدين، وما كاد الليل يرفرف بأجنحته السود حتى تسلَّل في حذر، بعد أن أوهم مَن في المنزل أنه ذهب لينام، وجعل يسترق الخطى مُتمهِّلًا يدور بعينه وينصت بسمعه، حتى تراءى له الموكب الهائج بضجيجه، يحتل الشاطئ في جلبة، فعلم أن ساعة الخلاص قد دنت، ورأى السفن تحمل القوم دون انتظار لمعرفة الأسماء، فرمى نفسَه في أقرب سفينة، وولج إلى أخفى مكان يُظلِّله السقفُ، واصطنع النوم كيلا يتحدث مع أحد فيعلم شيئًا مِن أمره ويدل عليه إذا جاء مَن يسأل عنه، وما كاد الصبح يُرسل نورَه الباهر، حتى سارت السفن في اتجاهها صوب المشرق، وملك موريس أنفاسَه، فلم تعد تضطرب في خوف حين رأى نفسه فوق الماء وتحت السماء.

تفرَّقت السفنُ حين وصلت إلى الشرق، وكان مِن نصيب موريس أن ترحل سفينته إلى بيت المقدس، وكان سروره بذلك عظيمًا؛ لأنه سيكون على مقربة من قبر المسيح، وسيعيش في جوِّ العذراء الطاهرة، وسيبذل دمه في الدفاع عن القبر المقدَّس إن تعرض لأدنى حادث.

على إنه دُهش حين وجد الحياة هادئة في إمارة بيت المقدس، لقد ملأوا سمعه في السفينة، بأن المسلمين وحوش ضارية تتصيد الناس في كل مكان، وأن القبر المقدس كان من قبل تدوسه خيول الكفرة من المسلمين، وتبول عليه، وأنهم يلبسون جلود الحيوانات، ولا يتفاهمون بغير الصياح والصراخ، وعلى مَن يسير ليلًا أن يحتمي بخنجره؛ لأنه سيتعرض للسلب إذا كان رجلًا، وللاغتصاب إذا كان امرأة! نزل موريس بيت المقدس، وهذه الأفكار تُعشِّش في ذهنه، وتسود الأفق في عينيه، ولكنه ما كاد يجول في المدينة، حتى رأى المسلمين والنصارى يبيعون ويشترون متفاهمين، وجاء الليل فوجد الأنوار تضيء المحلات والشوارع، والناس يسيرون في اطمئنان، وكأن الحرب لم تعرف في هذه الأرض.

رجع إلى الموضع الذي تحدد للوافدين، فرأى خيمة خُصِّصت له في أطراف المدينة، جوار خيمات كثيرة تملأ الفضاء الفسيح، فسأل: أتكون لي وحدي؟ فقيل له: إذا تزوَّجت انفردت بها مع أسرتك، وإذا بقيت عزبًا فسيُشاركك نظراؤك.

فسأل: وهل الزواج سهل هنا؟

فنظر إليه أحد الجالسين طويلًا، فعرف أنه يريد أن يُحدثه، فدنا منه على حذر، فسمعه يقول: لقد خدعوا نساءنا وبناتنا في أوربا، فأفهموهن أن الموت في أرض يسوع شهادة، وأن البقاء دون موت تمتع برياض الشرق الزاهرة، وشمسه الدافئة، وثماره المكدسة، وأفقه المنير، فجئن أسرابًا يُزاحمن الرجال، وتدور المعارك بين الآونة والآونة، فيموت الرجال وتترمل النساء، ثم تحضر الوفود منهن خلف الوفود، فيصبح الزواج سهلًا؟ وقد أُعدِّت خيمة لكل أسرة، فهل تود؟

فرفع موريس رأسه يقول في حيرة: وهل الزوجة أصبحت بضاعة تُشترى من البقال، أو لحمًا يجيء من القصاب عفوًا دون اختيار!

قال له: يا صاحبي لعلَّك قد سمعت!

نام موريس، ورأسه كموج البحر ممَّا يجيش به من الفكر، لقد قدم ليُحارب، وها هو ذا يُجبر على الزواج، وممَّن؟ ممَّن لا يدري؟ ثم تذكر أنه شاهد عشرات الحِسان من بنات جنسه، أثناء جولة اليوم، وإذن فليست المسألة صعبة، وله أن يختار، وأمامه أسبوعان!

وفي الصباح سئل عمَّا سيفعل، والزمن زمن هُدنة لا حرب فيه، أيُتاجر؟ أيزرع الأرض؟ أينضم إلى قوة الأمن؟ أسئلة تواردت على ذهنه، ثم رأى أن يفلح الأرض، فسيق إلى حديقة جوار معسكر (جونار)، وهو قائد بيت المقدس الحربي في زمن القتال، ورئيس الشرطة البوليسية في زمن الهدنة، ليقوم بأمرها سقيًا وزرعًا وتشذيبًا، وقد كان يفلح أرض عمِّه في فرنسا، فأهون شيء لديه أن يزرع حديقة محدودة المساحة، سهلة الري، وكل شيء متاح؛ لأنها حديقة (جونار)، وما أسرع أن تسلم موقعه، ثم ما أسرع أن قادته المصادفة لزواج سعيد، لقد كان حارس الحديقة صليبيًّا مثله، حضر مع أخته الشابة (مادلين) قبل أن يحضر موريس بثلاثة أشهر، وجمعهما العمل المشترك في مكان واحد، فتحدثا كثيرًا، وَزَارَهُ في خيمته مرات ومرات، فمال إلى مصاهرته، ورضيت مادلين بصاحبها، وتم الزفاف في مظهر هادئ، لا تضج به الزغاريد، ولا تُقام به الولائم، وكيف؟ وهم غرباء متقشفون!

جعلت الأرض تدور في عين موريس دورات متشابهة، فالأمس كاليوم كالغد، لا يطلع نهار عليه بجديد، لقد جاء ليُحارب وينتصر ويتفقد قبر المسيح، هكذا قالوا له في فرنسا، ولكنه يعيش في بيت المقدس حيث قبر المسيح مصون مقدس، تؤمه الجموع آملة راغبة، فأين ما زعموه من اتهامات ضاله، تتردد بهتانًا دون حق!

لماذا يمكثون إذن! إذا كان إنقاذ القبر هدفهم المنشود، ولماذا تعددت الإمارات الصليبية في أنطاكية وطرابلس والرها وبيت المقدس؟ بل لماذا يُحارب ملوك النصرانية بعضهم بعضًا، إذ يطمع كل ملك في ما ليس له، أمن المعقول أن تأتي الجيوش من أوربا ليُحارب المسيحيون بعضهم بعضًا، وتسيل دماء كان من الأوفق أن تُصان ليتّحد الجميع أمام صلاح الدين!

وتمضي به الحيرة إلى أقصى مداها، حين يرى ميشيل نجل القائد جونار يأتي كل يوم، فيدخل من باب الحديقة مع كوكبة من المتبذلات، ثم يصفق ميشيل بيده لينهض كلّ من بالقصر والحديقة مُلبيًا ما يريد، فهذا يعد الطعام وذلك يُهيئ الشراب، وذلك يحضر أدوات الغناء والقصف، وتمضي السهرات الدامية إلى منتصف الليل، وضحاياها من التعسات ممَّن غُلبن على أمرهن، فساقهن الشاب المُدلَّل بسلاح الرهبة، أبالفسق يرضى يسوع، وتنتصر المسيحية على الإسلام؟

تأزَّمت نفسُ موريس، وحادَث صهرَه حارس الحديقة فيما يرى من المساخر، فأغراه بالسكوت؛ لأن الدم الإنساني رخيص في بيت المقدس، وهو أرخص شيء في عين جونار بالذات، ولا يأمن أن يعترض ولو بصوت خافت، فيرديه (ميشيل) بطعنة غادرة، وقد فعلها مِن قبل مرات مع سواه، والنفس اللوامة لا تستطيع الإغضاء بسهولة، فللضمير وخذاته الأليمة، حين يظل ينغر كالجرح الدامي، فلا يهدأ صاحبه بحال، إن الذي أغراه بالسكوت لا يحس وخزًا للضمير، فهو ينام هادئ البال يرى الجرم الفظيع فلا يترك في نفسه أثرًا يؤلم، وحسبه أن يقنع نفسه بأنه لم يقترف شيئًا؛ لأن الجاني غيره، أما موريس فقد حاول الإغضاء فاستحال.

ورأى أن يستعين بمَن ظنَّه طوقًا للنجاة، فلجأ إلى راهب الكنيسة يعترف له بما يُؤرق عينه، ويقض مضجعه، فقصَّ عليه موجز حياته بادئًا بما كان مِن مأساة عمه، ومارًّا بتعيينه بستانيًّا للحديقة، ومُنتهيًا بالحديث عمَّا يرى من مخزيات ميشيل، التي لا يستطيع أن يسكت عليها، وانتظر أن يرى الردَّ العملي، طامعًا أن يزور الراهب قصر (جونار)، وأن يعظ الماجن الداعر، حين يجده يبتذل وينتهك في عصابة آثمة من حاشيته المنحدرة، فإذا لم يستقم هدَّده بإذاعة منكراته على الملأ، وهو بعد راهب بيت المقدس، وله صوته المسموع. انتظر موريس أن يرى الردَّ العملي من الراهب الجليل، ولكنه أطرق قليلًا ثم سأله:

- أأنت تُجيد رعاية الحديقة غرسًا وريًّا وتشذيبًا؟

- نعم يا سيدي.

- سأطلبك بعد يومين من (جونار)، تقوم فيها على رعاية حديقة الكنيسة؛ لأنها حديقة يسوع!

- وماذا ستصنع في مسألتي التي جئت من أجلها؟

- لا شأن لنا بالقائد وولده، وحذار أن تنطق بكلمة واحدة عن ميشيل، فأنا صديق أبيه.

- ذلك أدعى أن تقول الحقَّ كي يرتدع، ما دمت صديقًا.

- حدِّد ما تحب من أيام الأسبوع حتى لا أفرض عليك يومين لا ترضاهما!

- سيدي، سيدي!! ألهذا جئتُ؟

ولم يفت الراهب أن يقتنص الفرصة، وقد عزَّ على موريس أن يُستغل هكذا بمشيئة ماكر يتربى بلباس الرهبانية، وهو يأبى أن يدل على الخير، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وخلا في المساء بزوجته، فحدَّثها عمَّا يُثير شجونه، وكانت

عاقلة مُتزنة، فأرادت أن تهون الأمر عليه، فقالت في ابتسام: لـم تـزد أعبـاؤك شيئًا، فأنت تشتغل هنا كما تشتغل هناك، وهناك أفضل من هنا، فأنت تعمل في كنيسة يسوع، ترعاك عينه ويحميك مجده، وأنت هنا ترى كل يوم ما يُخالف إرادة يسوع، من أعمال (ميشيل)، فتتأوه صامتًا، اذهب إلى خدمة الكنيسة يا موريس! ففكَّر قليلًا ثم قال ملاطفًا: هوّنت الأمر عليَّ يا مادلين!

كان موريس يظن أن شواغله النفسية ستهدأ في الأسبوع يومين، ولكنه تألَّم كثيرًا حين رأى من الراهب ما لا يُحب، فهو يبعث به كي يجمع النقود من بني جنسه، ليقدمها للمرضى والضعفاء، ممَّن يأتون الكنيسة شاكين، ولكنه يدخرها لنفسه، دون أن ينفق منها في اتجاهها المنشود، وهو يُرسله لشراء ما يريد من السوق، ويعد بالدفع ثم لا يدفع، فإذا جاء التجار مُطالِبين لاطفهم في مودّة، وقال لهم: كل أموال الكنيسة في خدمة فقراء النصارى فاغنموا المثوبة، وهبوا أموالكم ليسوع! ثم هو شحيح شحيح، يأتي كل صباح ليتصفح فواكه الأشجار بالحديقة، مخافة أن تمتد يد العامل إلى واحدة منها حين يعضه الجوع، ولا يرى مانعًا من أن يفتري عليه مؤنِّبًا فيصيح به: كانت هنا بالأمس برتقالة ناضجة فأين ذهبت؟ إن التوت اليوم في الأغصان أقل منه بالأمس، فهل ذهبت ببعضه إلى السوق؟ ممَّا يضيق به صدر الحليم.

وقد انفجر بركان موريس ذات صباح، حين وجد سائلة عجوزًا مريضة، تفد إلى الكنيسة شاكية ألَم المرض والجوع، آملة أن ينفحها الراهب الراعي بعض ما جمع، وقد أشاع في الناس أنه يُنفق شمالًا ويمينًا دون أن يبقي شيئًا في يده! انفجر موريس حين وجد الراهب يعبس في وجه المسكينة صارخًا: إنه أنفق كل شيء على شبيهاتها من المساكين، وليس معه دانق واحد، فقال له موريس: لقد جمعت

لك بالأمس ثمانمائة درهم، ممَّن بعثتني إليهم، ولم يأتك سائل واحد، فاربد وجه الراهب، واشتعل اللهب في عينه وصاح: أنت تُحصي علي، سترى! ثم خرج غاضبًا إلى حيث لا يعلم البستاني الذاهل إلى أين يسير.

لم تمض برهة حتى جاء صهره الحارس مُضطربًا يرتعد من الخوف، وقد صاح بموريس: انجُ بنفسك، ماذا صنعت يا أحمق، لقد جاء الراهب إلى قصر القائد فأيقظ ميشيل على عجل، وقال له: إنك تُشنِّع عليه في كل مكان، وأنك تصفه بالفسق والفجور واغتصاب الضعيفات، فاستشاط غضبًا، وطلب منِّي أن أسارع فأُحضرك، وليس أمامك إلَّا أن تفر من بيت المقدس إلى إمارة أخرى، فالشاب نزق مجرم، وسيُدبر اغتيالك كما اغتال سواك!

فُوجئ موريس، فاحتبس الكلام في حلقه وجرت دموعه منحدرة، تلذع خده كالنار، فصاح به صهره: على ما اعتزمت، ليس لديك وقت!

فأطرق المسكين: أأهرب فارًّا وأترك مادلين وهي حامل في شهرها الأخير؟

قال الحارس: أنت أمام خطر مُحقق، وسأقوم برعاية أختي قدر ما أستطيع؟

هيَّا، إن الزمن ليس معك بل عليك!

قال موريس: وماذا ستقول لميشيل؟

فأجاب صاحبه: سأقول بحثتُ عنه في كل مكان بالكنيسة وفيما حولها فلم أجد له أثرًا، ولا بد أنه سيأتي بعد حين.

- ٢ -

انطلق الهاربُ المضطرب إلى حيث لا يدري أين يذهب، إنه فرَّ من بيت المقدس دون خطة يتبعها، وعليه بعد أن أصبح بعيدًا عن الخطر بعض الشيء أن يجلس قليلًا ليُفكر؟

تـراه يلجـأ إلـى إمـارة صـليبية؟ مَـن يـدري لعلهـم يسـألونه عـن أيامـه ببيـت المقدس، ولماذا فرَّ منها؟ وقد يعتبرونه جاسوسًا لبعض مَن يتنافسون؟ فهم على اتحاد الدين أعداء يتصارعون، بل ربما عرف جونار مكانه، فبعث يطلبه، وقد يدَّعي أنه مجرم لص أو قاتل، ولا بد أن يُلبي طلبه أمير المقاطعة؛ لأنه أيضًا يطلب مَن فرَّ لذنب اقترفه فيُجاب لساعته، لا أمان إذن في إمارات الصليبين ولا اطمئنان، ثم تابع خواطره المسترسلة، فأخذ يسأل نفسه: أيكون الأمان لدى صلاح الدين؟

أي مفارقة هذه؟ أأحضر من فرنسا لأقاتل المسلمين ثم لا أجد الاطمئنان إلَّا لديهم، ويترصدني الخوف لدى إخواني الذين جاءوا كما جئت ليُنقذوا قبر المسيح!

وهبْني ذهبت إلى بلاد صلاح الدين أليس مِن الجائز أن أُعامل معاملة الأسير، فتُحبس حريتي؟ وأنتقل من ضيق إلى ضيق، ولكني مع ذلك أكون بمنأى عن جونار وولده ميشيل، فلا يستطيعان أن يرجوا صلاح الدين في تسليم لاجئ مُستجير، لا مفرَّ إذن من الذهاب إلى هؤلاء، ولن أخسر شيئًا، إذ لا يُجبرني أحد على أن أهجر عقيدتي وأفارق يسوع!

هذا ما انتهى إليه موريس، وصمَّم عليه، ولكنه ظلَّ نهب صراع متأزم؛ لأنه قد اضطر في رأيه إلى المسلك الصعب، تجنبًا للمسلك الأصعب، ولم يكن يعلم أنه فتح صفحة جديدة مشرقة، حين اتجه إلى صلاح الدين، فقد رأى نفرًا من زملائه يُسالمون المسلمين ويعملون معهم، وهم – على قلَّة عددهم – مُصمِّمون على الانتظام في جيش صلاح الدين لو سمح لهم بذلك، ولكنه يحتاط معهم، فيعهد إليهم بالخدمة في شئون الغذاء والكساء ورعاية الدواب وإقامة الخيام، تحت رعاية خبير مسلم يُدير الشئون الإدارية بحذق ومهارة، ولن يضر المائة مثلًا إذا

كان بينها خمسة يكونون تحت الاختبار، وهم لا بد ناجحون، فقد انضمُّوا إلى العمل مختارين.

أخذ موريس يختبر مجتمعه الجديد متفحصًا متفرسًا، فرأى ما بدَّل فكرته عن المسلمين، من النقيض إلى النقيض، فهم تحت قيادة صلاح الدين سواسية، ليس لرئيس أن يتجبَّر على مرؤوس، وهم يأكلون جميعًا ممَّا يأكل السلطان وحاشيته، دون تمييز، بل إن السلطان نفسه في أحيان كثيرة يجود بما يُقدَّم إليه من الغذاء لمَن يحضر مجلسه، في بشاشة، وفى حياته زهد وتقوى؛ إذ يصوم كثيرًا في غير أيام رمضان، ويحرص على أداء الصلوات الخمس في جماعة عامة، مبتدئا بصلاة الفجر في غبش الظلام، وله مجالس متعددة لقراءة الحديث، ودراسة تاريخ السلف، يحضرها كبار العلماء، فيتصدرون المجلس والسلطان مطروق يسمع، ويناقش كأحد المجتمعين دون تمييز، أما استماعه للمظالم والشكايات فمما لا ينقطع، وقد يكون سائرًا لمهم عاجل، فتوقفه امرأة لتشرح حاجتها أو عجوز ليعرض ظلامته، فلا يدَّخر وسعًا في إنصاف المظلوم وإغاثة اللهيف، وخاصته المقربة من أفاضل العلماء، وهم مستشاروه، وقد يبدي الرأي فلا يقع منهم موقع القبول فيخالفونه علنًا لأمور يبدونها في تعقل، فيستمع باسمًا، ويعدل عمَّا قرر حين يتضح له الصواب! أي سلطان هذا، بل أي ملك، إني أقارن بينه وبين من أعرف من ملوك الفرنجة، فأرى الفرق شاسعًا، لماذا تغيَّر شعوري؟ لقد أصبحت وكأني مسلم.

مضت سنوات ثلاث، وموريس لا ينفك يلاحظ ما يأتي به المسلمون من بطولات مخلصة، فيتساءل أولًا: أليسوا يدافعون عن أوطانهم التي احتلها الغرباء! فهم مُحقِّون فيما يبذلون من تضحية، ويهيئون من سلاحٍ ثم يتساءل ثانيًا: لماذا

جئنا نحاربهم دون حق! ألننقذ قبر المسيح؟ لقد أنقذناه منذ أكثر من ثمانين عامًا يوم أن احتل الفرنجة بيت المقدس، ففيم بناء القصور وإقامة الإمارات الصليبية في بلاد تبعد عن قبر المسيح؟ خرج أصحابها منها مُرغمين، واقتحمناها غاصبين، ثم يكر به تفكيره راجعًا: فيتساءل ثالثًا: وهل كان قبر المسيح كما ادَّعوا وزعموا في أوربا مُهانًا مُزدرى تحت سلطان المسلمين! لقد عشتُ في بيت المقدس سنوات عدة وألممت بتاريخ القبر، وسمعت عن يقين أنه كان موضع احترام المسلمين والنصارى معًا؟ فلماذا جئنا هنا! لقد أتينا استجابة لمَن يحلمون بالسيطرة والمُلك وإقامة الدويلات، على أشلاء الآمنين، من أصحاب الوطن المُستباح.. مرة ثانية أقول: لماذا تغيَّر شعوري، لقد أصبحت وكأني مسلم!!

ثم توالت انتصارات صلاح الدين في حطين وعسقلان، واتجهت جيوشه إلى بيت المقدس، وهنا خفق قلبُ موريس، وتذكر مادلين زوجته وأخاها صهره، وطفله الذي لم يره، فصمَّم على أن ينهض مع الجيش، ولكن كيف يدخل المدينة وجونار وابنه يسيطران عليها، وقد يقع في قبضتهما؟ إن عواطفه الهائجة تسوقه سوقًا إلى بيت المقدس، وسينتظر بعيدًا خلف الأسوار، فإذا لاحت بوارق النصر واطمأن على حياته خف إلى أهله، وإذا كانت الأخرى رجع مع العائدين!

كان جيش صلاح الدين قويًّا كثير العدد والعدة، وقد وصلت أنباء انتصاراته الباهرة في حطين وعسقلان، ففتت في أعضاد الصليبيين، وتقدَّموا بطلب الأمان، وفتحت المدينةُ أبوابَها لاستقبال السلطان الظافر، وكان رائعًا أن يصدر أمره الرحيم بالسماح لسكان القدس من الروم والفرنجة غير المحاربين أن يُقيموا كما شاءوا، وإن يتمتعوا بحقوق الإنسان دون نقص، أما المحاربون فعليهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم، خلال أربعين يومًا، نظير فدية متواضعة، وقد عجز

بعض النازحين عن الأداء، فتحمَّل السلطان فداءهم، حتى دفع فدية عشرة آلاف، ودفع أخوه الملك العادل فدية سبعة آلاف، وخرجت عدة آلاف دون فداء ما، وقد حمل الكهنة ذهب الكنيسة وفضتها معهم دون أن يفتدوا أسيرا واحدًا.

هرعت طوائف كثيرة من النصارى إلى الرحيل، ووقف موريس يتصفَّح الوجوه، فرأى مسلمًا يحمل طفلًا صغيرًا تفرَّس في وجهه، فحنَّ إليه حنينًا جائشًا، وحمله بين يديه ثم قبَّله في شغف، وكأن له به عهدًا، فسأل عنه حامله، فقال: وجدته وحيدًا يبكي، فعطفت عليه، ومضت برهة فإذا سيدة تُقبل صارخة مهتاجة تقول: ولدي! ولدي! ولم يكن الصوت غريبًا على أذن موريس، فتطلَّع ليرَى زوجته (مادلين) نادبة تسأل عن فلذتها، وكانت مفاجأتها شديدة إذ رأت موريس يحمل الطفل ويتقدَّم لعِناقها، ومرَّت لحظات لا تُعد في حساب الزمن لديهما، حتى هدأت مشاعرهما قليلًا، فسألها موريس: أين كنتِ ذاهبة؟ قالت: إلى طرابلس مع هؤلاء! فقال موريس: وإذا كنت أنا في جيش صلاح الدين!؟ فلم تتردد بل قالت: سنكون إذن معًا في رعاية السلطان الرحيم.

❁❁❁

خاتمه الهرمزان

- ١ -

جلس كسرى (يزدجرد) على سريره الذهبي في صدر الإيوان، ومِن حوله رؤساء جيشه، وأمراء مملكته، وذوو المكانة من المرازبة والدهاقين، وقد قام الجلاوذة من حوله يحملون السيوف، ووجهه يلتهب كالجمرة المتوهجة غضبًا، وتكاد شدة غيظه تمنعه من الكلام، فهو يتلفت ذات اليمين وذات الشمال مُرسلًا زفراته التي لا تنقطع، حتى طال ذلك منه، والقوم من حوله صامتون ينظرون في حيرة، ولا يدري أحدهم كيف يبدأ الحديث، إجلالًا لكسرى، وهيبة لمقامه، حتى تجرأ الهرمزان، فوقف مُتأدبًا ليقول في انحناء:

إذا لم يشأ سيدي أن يدخل عليه رسول سعد بن أبي وقاص، فليصرفه، وإذا شاء أهلكناه، وجعلناه عبرة لسواه.

فصاح (يزدجرد): ما هذا يا هرمزان، نحن الذين دعوناه، لنسمع ما عند هؤلاء! بعد أن هجموا كالوباء!

قال الهرمزان: إن دعوة رسول سعد إلى الإيوان تدفع المسلمين إلى الغرور الكاذب، وربما ظنُّوا أنهم شيء، ومَن هم يا مولاي؟

لم يكد (يزدجرد) يسمع حديثه حتى صاح في حدة:

تقول مَن هؤلاء! كأنك لا تدري! إنهم اللذين هزموا رجالنا يوم ذات السلاسل، حين نكبوا (هرمز) وفرَّ مِن وجوههم مذعورًا، وقد قتلوا الآلاف، وغنموا الكنوز، إنهم اللذين هزموا قائدنا يوم الثنى (قارن)، ومعه (قباذ)

و(أنشوجان) فلم يتحملوا صعقات المثنى بن حارثة، وهجمات خالد بن الوليد، واندحروا تاركين آلاف القتلى، وما كانوا يحملون من ذخيرة وعتاد، إنهم اللذين فرَّقوا جيوشنا يوم (الوليجة)، ودحروا (الأندرزغر) و (جاذويه)، فقُتل الأول وهرب الثاني!

إنهم اللذين فتكوا بنا فتكًا يوم (أليس)، فاستسلم للأسر مَن استسلم، وغرق في النهر مئات الفارين من الذعر، واندحر قائدانا (جابيان) و (جاذوبه)، ولم يستفد الأخير من معركة (الوليجة) فيغير الخطة، وقد علمت أن خالد بن الوليد كان يُحدث في كل معركة نهجًا مخالفًا يأخذنا به على غرَّة، ونحن جبناء، أما يوم (الحيرة) ففضائحنا فيه معروفة، وأمضها في النفس استسلام الدهاقين لابن الوليد بأموالهم وبضائعهم، وخضوعهم لما فرض من صلح يطعننا في الصميم، ماذا أقول، أأتكلم عن فضائحنا في (ذات العيون) وهروب قائدنا (شيرازاز) أم عن هزيمتنا في (عين التمر) وهروب قائدنا (مهران بن بهرام)، أم عن نكبتنا يوم (السقاطية) وفرار (الجالنوس)، أم عن فضيحة (يوم النمارق) وهزيمة (شهريران) رعبًا من المثنى بن حارثة! وأقرب معركة لنا (يوم البويب) وقد انهزم بها رستم والفيرزان ومهران، وهم أكبر جنودنا! ويجلسون معكم الآن!

ثم علا صوته وصرخ: أتقول بعد هذا يا هرمزان إنهم مغرورون مخدوعون، أنتم المغرورون أيها القواد العظام!!

ثم صفَّق بيده، فجاء الحاجب الأعظم، فسجد بين يدي (يزدجرد) فصاح به: مَن مِن العرب بالباب؟

فقال الحاجب في اهتمام: رجلان يُسمى أحدهما النعمان بن مقرن، ويُسمى الثاني (المغيرة بن زرارة).

فقال كسرى: أدخلهما.

ثم التفت مغيظًا إلى القوم وهو يقول: ستسمعون ما لا تطيقون، بعد أن شهدتم في وقائعهم ما لا تتصورون.

دخل النعمان والمغيرة ثابتَيْ الخطو، مرفوعَيْ الرأس، فنظر كسرى إلى الترجمان في كراهية وقال: سلهما ما يريدان؟

فانطلق النعمان يقول: إن الله رحمنا فأرسل لنا رسولًا يدلنا على الخير، ويأمرنا به، ويعرفنا الشرَّ وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة فدخلنا في طاعته بعد خلاف حسم في سنوات، وعرفنا فضل ما جاء به، ثم أمر أن نبدأ بمَن يلينا من الأُمم، فندعوهم إلى الإنصاف، فإما أن يدخلوا في ديننا، أو يعطوا الجزية، أو تقوم الحرب، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه لتحكموا بحكمه، ونرجع عنكم، وإن اكتفيتم بالجزية قبلنا، وحميناكم ومنعناكم ممَّن يُغير عليكم، وإلا قاتلناكم.

فانتفض كسرى يقول وصوته مرتفع: إني لا أعلم في الأرض أُمَّة كانت أشقى ولا أقل عددًا ولا أسوأ منكم، وقد كنا نوكل بكم قرى الضواحي أنفة من أن نغزوكم، فإذا دخلكم اليوم الغرور فلا يغرنكم، وإذا أدرككم الجهد فرضنا لكم القوت، وأكرمنا رؤساءكم وكسوناكم، وملَّكنا عليكم ملكًا منكم يرفق بكم.

فسكت النعمان وتوجَّه بعينه إلى المغيرة ليتكلم، فقد جاء دوره، فقال المغيرة من كلام مسهب: أيها الملك، لقد وصفتنا بما لا تعلم، أما جوعنا فلم يكن يُشبه الجوع، كنا نتقاتل ونتشاجر ويُغير بعضنا على بعض، حتى بعث الله لنا نبيًّا، نعرف حسبه ونسبه، فرفع الظلم، وأقام العدل، ودعا إلى توحيد الله، وإلى المساواة بين الناس، وقال: مَن تابعكم فهو منكم، ومَن خالفكم ورضي بالجزية فامنعوه ممَّا

تمنعون منه أنفسكم، فهو في حماكم، ومَن أبى فقاتلوه، فاختر ما شئت.

فصاح يزدجرد: أتستقبلني بمثل هذا، والله لولا أن الرسول لا يُقتل لقتلتكما، وصرفهما وقد حملهما التراب ليهينهما في رأيه، ولكنهما ضحكا وقالا: إذن هذه بشارة، فسنرى الأرض، وخرجا وكسرى متشائم متضايق فزع لما قالاه.

ثم نظر إلى جلسائه، وقال: تشاوروا، فأجابوا جميعًا: لك الرأي، فقال: يتولَّى رستم القيادة، ويكون على مقدمته الجالنوس، وعلى الميسرة مهران بن بهرام، وعلى الميمنة الهرمزان، فقال رستم: أرى أن أكون معك في المدائن لنرسم الخطة معًا، وفي هؤلاء من يقود.

فلم ينتظر الهرمزان بل قال: الرأي ما قال كسرى، وكلنا طوع أمره.

ثم خرج القوم متأهبين، وفي نفس رستم حزازة من الهرمزان عرفها في وجهه، فسأله: لماذا تحاول التنحي عن القيادة؟ فقال رستم متخابثًا: أعرف شجاعتكم وأقدرها، فلماذا تتنصلون؟ وأنا أريد لكم المكان الأعلى وتحجمون؟

قال الهرمزان: سنقتدي بك ولا محيد.

تلكأ الجيش الفارسي قرابة أربعة أشهر، لا يحاول أن يهجم، وقد أخذت جنوده تعبث في القرى، فتنهب وتسلب وتفجر، حتى ضجَّ الناس، فذهب كبارهم إلى رستم يشكون ما فعل الجنود، وكان في أشد الضيق النفسي، فصاح بمَن حوله: أقسمت لقد صدق العرب، ما أسلمنا إلى هذه الحال إلَّا سوء ما نصنع، وما أسلمهم إلى هذا التوغل إلَّا خير ما يصنعون، إننا كنا نأمل النصر بحُسن السيرة، وكرم المعاملة، فإذا انعكس الوضع فأبشروا بالخذلان.

ولم يلبث القتال أن نشب، وتجالد القوم تجالدًا رهيبًا، وصدق الله وعده، فتمَّ النصر في القادسية، ووقائعها مشتهرة ذات ذيوع.

لم يكن من هم الهرمزان أن يضحي بكل رخيص وغال في سبيل النصر، وإنما فكَّر فعرف أن قوة المسلمين تتضاعف بعد هذه الانتصارات، فرأى أن يُوجِّه الميمنةَ التي يقوم على قيادتها دون أن يتقدَّم الطليعة، مدعيًا أنه يرسم الخطة ويتدبر الأمر، لذلك نجا سالمًا من المعركة، على حين قُتل رستم ونفرٌ من كبار قواده، فلمَّا هدأت المعركة انحاز الهرمزان إلى الأهواز، طامعًا أن ينضم إليه مَن بها من العرب، وأن يكون رجل فارس الأوَّل في عين كسرى، وأخذ يُغير على أهل ميسان، وهم عرب لم يشتركوا في القتال، وتلك حماقة منه؛ لأنه إذا كان قد استرضى عرب الأهواز، فأحرى به ألَّا يُغضب بني جنسهم في ميسان، وبينهم مِن المصاهرة والترابط ما يجب أن يكون موضع الاعتبار، وذلك كان في صالح المسلمين؛ إذ ما كاد والي البصرة عتبة بن غزوان يعرف ما اعتزمه الهرمزان حتى خاطب سعد بن أبي وقاص فأخذ للأمر أهبته، وتوجَّه الجيش الإسلامي لمنازلة الهرمزان بالأهواز، فعرف أنه مخذول لا محالة، وأعلن التسليم، وطلب الصلح، فأجابه عتبه بن غزوان: على أن يكون للعرب ما غلبوا عليه من البقاع ولهرمزان ما لم يصلوا إليه من الأهواز، فأظهر القبول وأبرم الصلح، ولكنه أخفى في نفسه الشر، إذ التمس هدنة لاجتماع أمره فحسب، ريثما يستوثق من قدوم الجيوش الفارسية، وقد جاءته الأنباء بأن كسرى سيمده بأعظم العدد وشجعان الرجال، فأخذ يُشاكس من أبرم معهم الصلح، مُدعيًا أن له حقوقًا أخرى فيما تحت أيديهم من الأرض، وتحبَّب إلى فريق من الأكراد، فضمَّهم إليه بعد أن وعدهم أنهم سيكونون أُمراء البلاد، بدلًا من العرب المُغتصبين، وجاء النبأ إلى عتبة، فهيَّأ الجيشَ الإسلامي، وقاتل الهرمزان، فانهزم بمَن معه من الفرس والأكراد، وطلب الصلح للمرة الثانية مُعتذرًا، فأُجيب بعد أن ترك الأهواز وأقام في (رامهرمز).

لم يكن (يزدجرد) خلال هذه الأحداث الصاعقة بالنسبة إليه، بغافل عمَّا يتهدده في مسقط رأسه بالمدائن، فأخذ يجمع أعياد البلاد ويُرسلهم إلى الأماكن النائية، ليُواجهوا معه الخطر قبل زحف العرب إلى عاصمة مُلكه، وجاءت رسل يزدجرد إلى الهرمزان، فصمَّم على الغدر مرة ثالثة، وانتقل إلى (تستر) ليقود حشدًا تجمَّع من آفاق فارس، وكان بتستر خنادق كثيرة وقلاع ذات أسوار عالية، فتحصَّن الفرس بها، وحاصرهم المسلمون أشهرًا.

وكان البراء بن مالك ﷺ يدعو للمبارزة، فقَتل أكثرَ من مائة فارس تهيئوا للمبارزة، واحدًا بعد واحد، ولكنّ الحصار لا يجلب النصر السريع، فأعمل المسلمون شتَّى الحيل حتى اهتدوا إلى مدخل يَلِجون منه إلى الحصون، فكبَّروا ودخلوا مُقْتحمين، ودارت أعنف المعارك الحمراء، وتحصَّن الهرمزان بأعلى القلعة، ثم وقف صارخًا: أيها المسلمون معي مائة نشابة مسمومة، وسأرمي بها لأقتل منكم مائة فارس فأكثر، ولن تصلوا إليَّ إلَّا بعد فناء أبطالكم، فهل تضمنون لي أن تُبقوا عليَّ، وأذهب إلى المدينة إلى أمير المؤمنين ليحكم في أمري!

فقال النعمان بن مقرن: لك ذلك، فرمى أقواسَه، وأمكنهم مِن نفسه، فشدُّوه وثاقًا، وتحمَّس بعض الأبطال لقتله؛ إذ أنه رمى بسهامه المسمومة البراء بن مالك ومجزأة بن ثور، وهما من أعاظم الأبطال، فصُرعا لوقتهما، ولكنّ النعمان ابن مقرن قال: العهد العهد يا قوم! سيذهب إلى عمر وأمره إليه، فسكت المُتحمسون.

كانت الطريق قلقة ترتج بنفس الهرمزان؛ لأنه يعرف أنه قادم على عرين الأسد، ويجيل في نفسه كلامًا يبدؤه ويعيده، لعلَّه يجد منفذًا لجرمه المتعدد، وقد دخل المدينة لابسًا كسوته من الديباج، واضعًا على رأسه تاجًا مُكلَّلًا بالياقوت وخيوط الذهب تلمع بحلته، وتزيدها الشمس وهجًا وبرقًا، حتى تجمَّع حوله

الناس وكأنه يسير في موكب، فسأل أنس بن مالك - وهو أحد الذين صحبوا الرجل – عن عمر، فعرف أنه في المسجد فيمَّموه، وكان المسجد خاليًا ليس به غير الفاروق نائمًا، يرتدي برنسًا من قطن، فجعل الهرمزان يسأل: أين عمر؟ أين حرَّاسه؟ أين الحجاب والكُتَّاب؟ فقيل: إنه هو هذا؟ فقام أمير المؤمنين على ضجيج الجلبة، ونظر إلى القوم، فعرف الهرمزان بما يلبس على جسمه ويُكلل رأسه، فتأمَّله مليًا، ثم قال: الحمد لله الذي أذلَّ بالإسلام هذا وأشياعَه، فقال أنس: هذا مَلِك الأهواز فكلِّمه يا أمير المؤمنين، فقال: لا، حتى يخلع كلَّ حلية يرتديها، فرمى كلَّ شيء إلَّا ما يستر الجسم، وألبسوه ثوبًا صفيقًا.

ثم تفرَّس عمرُ في وجهه قائلًا: هيه يا هرمزان، كيف رأيتَ عاقبة الغدر، بعد أن عاهدتَ وغدرتَ ثلاث مرات؟

قال الهرمزان: يا عمر، كُنَّا نغلبكم في الجاهلية ولم يكن الله معكم، فلمَّا أسلمتم غلبتمونا بنصر الله!

قال عمر: أجب ما عذرك؟ حتى تغدر مرة بعد مرة.

فردَّ الهرمزان: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك، قال: لا تخف.

ثم طلب الهرمزان ماء، فأتى به، فجعلتْ يدَه ترتجف والكوز في كفِّه، وهو يقول: أخاف أن أُقتل وأنا أشرب الماء.

قال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه، فأكفأه.

فقال عمر: هاتوا له ماء آخر، ولا تجمعوا عليه القتل والعطش.

فقال الهرمزان: لا حاجة لي بالماء، إنما أردت أن أستأمن.

فقال عمر: ستُقتل: قال: لقد أمَّنتني قال: كذبت.

هنا قال أنس بن مالك: بل صدق يا أمير المؤمنين، قد أمَّنته.

فصاح عمر: ويحك يا أنس، أأنا أؤمِّن قاتل مجزأة بن ثور والبراء بن مالك؟ والله لتأتين بدليل أو أعاقبك!

قال أنس: قلتَ له: لا بأس عليك حتى تُخبرني، وقلتَ له: لا بأس عليك حتى تشربه.

فأقبل على الهرمزان وقال له: خدعتني، وأنا والله لا أنخدع إلَّا لمسلم.

قال الهرمزان: وأنا مسلم، أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأن محمدًا رسول الله، فتراجع عمر، وفرض له ألفين، على أن يظل بالمدينة ولا يبرح.

- ٢ -

استيقظ عمرُ بن الخطاب كعادته قبل الفجر بما يكفي لمروره على منازل المدينة، داعيًا إلى الصلاة ليصحو النائم، وينتبه الغافل، حتى إذا أتم دورته توجَّه إلى المسجد، فوجده مُمتلئًا بالراكعين والذاكرين، فصلَّى ركعتين خفيفتين، وجلس يستمع أذان الفجر، وإذا حانت صلاة الجماعة تقدم للإمامة في المحراب، وما كاد يسجد السجدة الأولى حتى بادره من برك على ظهره، وأخذ يطعنه بخنجر ذي شعبتين، فصاح الخليفة، ورفع الساجدون رءوسهم دهشين، فوجدوا (أبا لؤلؤة المجوسي) غلام (المغيرة بن شعبة) ينهض وفي يده خنجره يشغب دمًا، فاحتاطوا به، ولكنه جعل يطعن في جنون مَن يتقدَّم إليه، حتى بلغت طعناته الدامية حدًّا مزعجًا، ففكَّر بعضُ المشاهدين في إنقاذ الموقف، فرمى بعباءته على وجه القاتل، وجذبه بعنف، فتقدَّم مَن يستل الخنجر من يده، ولكنه بادر بطعن نفسه عدة طعنات أصابت سويداء قلبه، فخرَّ صريعًا دون أن يتكلَّم بحرف، أما عمر فقد قال في ألم: أين عبد الرحمن بن عوف؟ فصاح ها أنذا يا أمير المؤمنين، فقال في صوت خافت: قُم فصلِّ بالناس!

واعتمد الخليفة بكوعه على الأرض، وحاول أن يضم بيده طيات بطنه المبقورة، وصلى مع الناس جالسًا، وبعد الانتهاء من الصلاة سأل الفاروق في صوت خافت عمَّن أصابه، فقالوا: إنه أبو لؤلؤة المجوسي، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل مصرعي بيد مسلم يشهد معي أن لا إله إلَّا الله، ثم أمر بانتقاله إلى منزله، ولم تنسه شدة الألم أن يُقيم صهيبًا نائبًا عنه حتى يفرغ المسلمون مِن اختيار واحد من كبار الصحابة، الذين عينهم بنفسه، ثم طلب مَن يذهب إلى السيدة عائشة يستأذنها في أن يُدفن جوار رسول الله وخليفته أبي بكر، فأجابت على الفور، وهي تعتصر ألمًا لما جد.

مات أبو لؤلؤة المجوسي وسِرُّه في صدره، حيث لم يتح لأحد أن يستكنه أمره بعد أن طعن نفسه منتحرًا، وجاء مَن قال إن أبا لؤلؤة قبل ثلاثة أيام قابل أمير المؤمنين فقال له: أعدني على المغيرة بن شعبة، فإن عليَّ خراجًا كثيرًا، فقال له عمر: كم خراجك؟ فقال: درهمان في كل يوم، فقال عمر: وفي أي شيء تعمل؟ قال: نجار حداد نقاش، قال عمر: ما أرى خراجك كثيرًا مع هذه الأعمال، لقد بلغني أنك تقول: لو أردت لعملت رحى تطحن بالريح، قال: نعم، قال: فاعمل لي رحى، قال أبو لؤلؤة: سأعمل لك رحى يتحدث بها مَن بالمشرق والمغرب، ثم انصرف، فقال عمر: لقد توعَّدني العبد.

تردَّد هذا الحديث، ولكن مَن سمعوه قالوا: لا يمكن أن يكون قول عمر إن درهمين ليسا بكثير سببًا لهذا الجرم الفظيع؛ إذ لو كانت المسألة استياء مِن كثرة الخراج لوجَّه الانتقام إلى المغيرة بن شعبة، سيده الذي فرض عليه القيمة، أما أن يُوجِّه الانتقام لعمر وبهذه الطريقة المستبشعة لمجرد موافقته على الأجر فهذا ما يُستبعد.

وفي غمرة هذه الاحتمالات تقدَّم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فأدلى بشهادة خطيرة، حين ذكر أنه رأى أبا لؤلؤة ليلة مصرع عمر واقفًا مع الهرمزان، وأبي جفينة النصراني يتحدثون في همس، فلمَّا تقدَّمتُ منهم أظهروا الوجل، وسقط منهم خنجر له رأسان ومقبضه في وسطه، هذه هي صفة الخنجر الذي طُعن به عمر، وما ظننت إلَّا إنهم يتحدثون في أمور تخصُّهم، ولكنِّي بعد مصرع أمير المؤمنين أُرجِّح أن مؤامرة دنيئة قام بها هؤلاء!

كلامٌ خطير ذو دلالات منكرة، وكان مِن المُنتظر أن يُقبض على الهرمزان الفارسي، وأبي جفينة النصراني؛ ليُحقق معهما فيما قيل، ولكن عبيد الله بن عمر أدركه ما يُشبه الذهول، فحمل سيفه وتوجَّه إلى الهرمزان فصرعه، ثم إلى أبي جفينة فقتله؛ إذ تأكَّد مِن دورهما في مأساة أبيه، حيث لا يُعقل أن يقوم غلام مولى بعملٍ مُنكر مثل هذا دون تحريض، وإذا كان الخنجر هو الخنجر، وقد رآه عبد الرحمن مع المتآمرين فقد قام الدليل.

انتهت حياة الهرمزان صريعًا بسيف عبيد الله بن عمر! وقد هال المسلمين أن يُقتل الهرمزان دون تحقيق قضائي، وإذا كان مِن قصاص فلا بد مِن صدور الإدانة صريحة، لا تحتمل اللبس، وقد رأى علي بن أبي طالب أن يقتص من عبيد الله فيُقتل بما جنى؛ إذ ليس مِن حقِّه أن يتعجل، ورأى غيره أن مِن البلوى أن يُقتل عمر في يوم ويُقتل ولده في يوم تال، فلا بد مِن التريّث!

تولَّى عثمان بن عفان خلافة المسلمين، وواجه المشكلة القضائية، وما كان له أن يتجاهلها وهو خليفة رسول الله منذ صار أمير المؤمنين، فجمع رؤساء الصحابة للتشاور فيما ينبغي أن يكون، بعد أن صمَّم علي بن أبي طالب على وجوب القصاص، إذ لا مفر منه.

قال عمرو بن العاص لعثمان: إن الله قد أعفاك يا أمير المؤمنين من هذا الأمر أن يحدث في أيامك، فقد حدث قبل مبايعتك ولا سلطان لك، فاصفح عن عبيد الله فهو أجدر بالغفران.

ولكن عثمان يعلم أن الدماء لا تذهب هدرًا بين وفاة خليفة وانتخاب سواه، وإلَّا لانتهز الناس فرصة تتيح الفساد، واقترفوا الآثام إلى أن يُنتخب خليفة جديد، وهذا ما لم يقل به أحد، وما جاء به دين.

ثم تداول الخليفة الرأي، إلى أن انتهى إلى أنه ولي من قتلهم عبيد الله، وسيتحمل دياتهم، فيُؤدِّيها إلى أصحاب الدم، وقد دعا القماذبان بن الهرمزان فأمكنه من عبيد الله حين قال له: يا بني هذا قاتل أبيك، فإما أن تعفو أو تقتص، قال القماذبان: أفئن رأيت قتله أتمنعونه؟ قالوا: لا، أنت صاحب الأمر، قال: إذن أعفو عن مقدرة، فسُر الحاضرون، وحملوا القماذبان على رءوسهم حتى بلغوا منزله تكريمًا لتنازله.

قال الراوي: وهكذا هدأت النفوس، ولم يُعطَّل حدٌّ من حدود الله، مهما تشابكت العقد، وتأزمت الأمور.

❁❁❁

زينب الثانية

- ١ -

علم أهلُ مصر أن السيدة زينب بنت علي شقيقة الإمام الحسين في طريقها إليهم، حيث اختارت أن تُقيم بمصر بعد أن أمرها والي المدينة أن ترحل منها إلى حيث تشاء، علموا ذلك، فرأوا أن يخفوا إلى استقبالها من الفسطاط إلى بلبيس، وقد غمرتهم فرحة سعيدة؛ لأن مصرع الحسين كان قد أشعل الصدور وجدًا، كما جذب النفوس إلى أهل البيت هيامًا وافتداءً، وبدون أن يطلب منهم أحد أن يهرعوا إلى استقبال الوافدة العزيزة تألف تلقائيًّا موكب حاشد يتقدَّمه القضاةُ والفقهاء ورءوس الناس من كافة الطبقات، ورأى والي مصر مسلمة بن مخلد أنه ليس أقل شعورًا بمكانة السيدة الوافدة، ولا أضأل رغبة من هؤلاء في الترحيب بها، فتقدَّم الحشد الزاحف، وتعجَّب القوم مِن صنيع مسلمة، وهو والٍ ليزيد بن معاوية على مصر، حين لم يخش أن يقع تحت طائلة اللوم والمؤاخذة، وقد يأتي الأمر بعزله واستدعائه إلى دمشق، ورأى مسلمة ما في وجوه القوم من التساؤل، فصاح بهم: يا أهل مصر، دعونا نرضي الله في يوم واحد.

ولم يكدْ ركب السيدة الكريمة يهلّ على بلبيس وهي في نفر من ذويها لا يبلغون أصابع اليدين حتى أدركها العجب الشديد؛ لما رأت من جموع، وظنَّت بادئ الأمر أن الحشد الحاشد لم يقدم لاستقبالها، وإنما اجتمع الناس لأمر آخر لا شأن لها به، ولكنها وجدت الترحيب الحار، والشوق المندفع، والناس يصيحون في بهجة: مرحبًا بأهل البيت، مرحبًا ببنت رسول الله، وجالت بذهنها

ذكريات وفودها على الكوفة ثم دمشق ثم المدينة، فهالها الفارق الشديد بين استقبال واستقبال، وقالت لزينب بنت ابن عمها مسلم بن عقيل، وكانت معها: عجبًا، كنت أخشى ألا نجد مكانًا في مصر، حيث لم يكن لنا بهذا عهد، وحيث تضيق الخلافة الأموية علينا الحصار في كل اتجاه، وها نحن أولاء نرى الجموع تتسابق مرحبة، بل نرى الوالي يتقدَّم المُرحبِّين، لو كان أخي الحسين يعرف مدى هذه المشاعر لرحل إلى مصر بدل الكوفة، ولكنه القدر المحتوم.

قالت صاحبتها: لقد كنت متفائلة حين ضاقت علينا المدينة؛ لأني أعلم أن الله سيختار لنا الراحة بعد العناء.

وأصر المجتمعون على أن تتقدَّم زينب الركب؛ إذ لا يجوز أن يسبقها في المسير أحد إلَّا مَن يُفسح الطريق ويرسم الاتجاه، حتى مسلمة بن مخلد آثر أن ينخرط في الجموع دون تمييز؛ إذ رأى أنه ليس الآن حاكمًا يتصدر، فذلك في غير هذا الموقف! أما هو في ركب زينب فخاشع مطيع، وصاح يقول في لوعة: واحسرتا على الحسين، فأطلت زينب من هودجها قائلة: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون.

بلغ الركبُ مدينة الفسطاط، وأصر مسلمة على أن تنزل زينب ومَن معها في منزله، فقبِلت على أن يُهيَّأ لها منزل خاص بعد حين، وتقاطرت الوفود خلف الوفود، لرؤية السيدة الطاهرة، حتى حار مسلمة فيما يصنع، ورأت ما يشغل باله، فخرجت للقوم تقول:

يا أهل مصر، أكرم الله وجوهكم الوضيئة، ولئن سرَّني إقبالكم النبيل على آل بيت رسول الله فإنه ليهمني أن أعلمكم أني نويت الاستقرار في هذه الأرض، ولئن امتد بي العمر فسأراكم وتروني على مهل، فانصرفوا مشكورين حتى أنتقل إلى

منزل خاص وعدني به أميركم مسلمة، وعندها سأُقابل وفودكم دون زحام، وفدًا بعد وفد، بحيث لا يزيد الجمع الوافد عن عشرة من الزوار، كيلا تحدث جلبة تعوق الطريق، فانصرِفوا الآن على بركة الله.

فقال مسلمة: لوددت أن تظلي بمنزلي ليخدمك أبنائي وبناتي.

فردَّت: أكرمك الله وحيَّاك، فقد سبق الوعد.

وما هي غير أيام معدودة حتى انتقلت زينب ورفاقها إلى منزل خاص بالفسطاط، وجعل الزوَّار يتوافدون وفق ما حددت من عدد، وما عينت من وقت، وكان العلماء من الفقهاء والمحدِّثين أول من أسرع بالزيارة في اليوم التالي لانتقالها، فخرجت إليهم مع ابنة عمها زينب بنت مسلم، وجلست في حجابها الأرفع، تُحيي الوافدين، فابتدأت تقول: شتَّان بين يومي في مصر ويومي في الكوفة، لقد أسرع عمر بن سعد بي وبإخوتي وأبناء أخي وبناته إلى الكوفة، ودموعنا تتقاطر ألمًا؛ إذ مررنا في الطريق على كربلاء، فصاح إخوتي: واحسيناه، وصحتُ أنا: يا محمداه، صلت عليك ملائكة السماء، هذا سبطك الحسين بالعراء مزمل بالدماء، مقطع الأشلاء، يا محمد، هذه بناتك سبايا، وذريتك مقتلة، فبكى كلُّ مَن سمعني، وأسرع ابنُ سعد في السير لنبتعد عن كربلاء.

ثم حانت الساعة البغيضة، ساعة دخولنا على عبيد الله بن زياد، والي يزيد على الكوفة، فصمَّمت على أن أرتدي أرذل ثيابي، أنا ومن معي، وجلست في أقصى المكان، فقال عبيد الله: من هذه التي انحازت فجلست ناحية؟ وكرَّرها ثلاثًا، فلم أنبس ببنت شفة، فقالت أمة لي تجلس جواري: هذه زينب بنت فاطمة وعليّ وبنت رسول الله.

فصاح اللعين يقول شامتًا: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم.

فوجدتُ في نفسي جمرة تتقد من الغيظ، وصحتُ في وجهه: الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه، وطهَّرنا من الرجس، وإنما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر، وهو غيرنا والحمد لله!

فردَّ في تهكم: كيف رأيتِ ما صنع الله بأهل بيتك؟

فأجبتُ في حدة: كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينهم وبينك فتختصمون غدا!

ثم سكتت زينب بنت علي إذ تمثلت الذكرى الوجيعة، فلم تستطع مواصلة الحديث.

وكان إلى جوارها زينب ابنة عمها مسلم، فقالت في أدب:

لم ينته الموقف إلى هذا الحد، فقد نظر ابن زياد إلى (علي بن الحسين)، وكان يجلس في صحبتها فقال له: مَن أنت؟ قال: أنا علي بن الحسين، فتهجم الطاغية وقال: لقد أدرك البلوغ فاذهبوا به، واضربوا عنقه. وهنا قفزت زينب من مكانها وقالت: يا ابن زياد، حسبك منَّا، أما شبعت من دمائنا، ثم اعتنقت عليًّا، وقالت: والله لا أفارقه، ولئن قتلته لأُقتلن معه، ولك أن تبدأ بي. وكان في أحد الجالسين بقية مِن مروءة، فأخذ يتشفع لعلي حتى تراجع الطاغية.

قالت زينب بنت مسلم: ثم خرجنا جميعًا فوجدنا من رجال الكوفة ونسائها مَن قدموا يتباكون على مصرع الحسين، وقد أسلموه من قبل، ونقضوا عهده الذي أبرموه معه في رسائلهم، فضاع دمه دون جند يلتف حوله، فاشتعلت السيدة غضبًا، وانفجرت تخطبهم في ازدراء، فكان ممَّا قالت:

يا أهل الكوفة أتبكون؟ فلا سكنت العبرة، ولا هدأت الرنة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا، تتخذون أيمانكم دخلًا بينكم، ألَا ساء ما تزرون، أتبكون وقد ذهبتم بعارها وثنارها، فلن ترحضوها بغسل أبدًا، وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة، وسيد شباب أهل الجنة؟ لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء، فلا تعجبوا إذا أمطرت السماء دمًا، ألا ساء ما سوَّلت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون، أتدرون أي دم سفكتم وأي كبد فريتم، وأي كريمة أبرزتم! لقد جئتم شيئًا إدًّا، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرُّ الجبال هدًّا، يا محمداه هذا حسين مرملًا بالعراء، وهؤلاء بناتك سبايا، وذريتك قتلى، يا أهل الكوفة إن ربِّي وربكم لبالمرصاد!

قال أحدُ الحاضرين: هذا كلام يفتت قلب الجماد.

ونظرت السيدة زينب فرأت الدموع تتقاطر والزفرات تتصاعد، فقالت لابنة مسلم: كفى يا زينب، لقد جاء القوم مسرورين برؤيتنا، فكيف تُثيرين هذه اللواعج، لننتقل إلى حديث آخر.

ولكن أصوات القوم ترتفع: لا يا سيدتي، نريد أن نقف على كلِّ ما كان، لنكتبه في كتبنا فتقرأه الأجيال، لسنا بعيدين عن المعترك، فكُلُّنا أحباء مخلصون، منَّا المؤرخ، ومنَّا الفقيه، ومنَّا المُفسِّر، ومنَّا المُحدِّث، ومنَّا الكاتب، ومنَّا الشاعر، ولابد أن تُدوَّن هذه الوقائع لتكون عبرة المعتبرين، وتبصرة المتأملين.

قالت السيدة زينب: وماذا بقي ممَّا لم تقله زينب ابنة عمي، لقد انتهى الموقف وتركنا الكوفة إلى دمشق حيث يزيد!

فأسرع قاضي الفسطاط يقول: وهل نرجع ولا نستمع ما كان من أمر يزيد؟ إنه حديث كما أتصور أشجى وأدمع!

فردَّت السيدة زينب تقول: كان المنتظر أن يكون الأمر كما تتصورون، ولكنِّي فُوجئت بما لم أتوقع، لقد توجَّهنا إلى منزل يزيد، فقابلنا نساؤه وجواريه في قصره مقابلة طيبة، كانت أمارات الحزن تشيع في ملامحهن، وقد حاولن تعزيتها بما ملكن من الكلام الطيِّب، كما قدَّمن من الطعام والشراب والملبس ما لم يكن لدينا استعداد نفسي لقبوله، ولكننا شكرنا هذا التعاطف، وعلمنا أن البداية طيبة!

ثم قابلنا يزيد فرأيناه واجمًا، ولم يهجم بالحديث الشامت كما فعل عبيد الله ابن زياد، وطال انتظارنا لقوله، وكان الموقف أكبر ممَّا أحتمل، ففاضت دموعي ودمع بعض الحاضرين من جلسائه، تعاطفًا وتأثرًا، فرأيتُ يزيد يتركني ويتوجَّه بالحديث إلى ابن أخي علي بن الحسين، فيقول في أسف: يا علي لعن الله ابن مرجانة - يريد ابن زياد - أما والله لو كنت هناك ما سألني أبوك خصلة إلَّا أعطيته إياها، ولدفعت عنه الحتف بكل ما أستطيع، ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن ماذا تنفع لو وليت، وقد قضى الله ما رأيت.

ثم أطرق ساكنًا وقال: أنتم مخيَّرون بين البقاء معنا في دمشق أو الرحيل إلى المدينة، فاخترت المدينة، وهنا أمر النعمانَ بن بشير أن يُجهِّز لنا الرحال، ويخصص لنا الحرس من الجنود الأشداء، فصدع النعمان بما أُمر، وهيأ على رأس الحرس رجلًا جلدًا شديدًا كان معنا كأحسن ما يكون الصاحب، حتى لكأنه بعض شيعتنا، كان يمشي من خلفنا نهارًا ويتقدَّمنا ليلًا، ويسأل عن كل ما نريد، فيُسرع بالإجابة سعيدًا، ويُبدي من التذلل والحب ما لم نره من قبل.

فلمَّا بلغنا مشارف المدينة، قالت لي فاطمه بنت أخي الحسين: لقد أحسن الرجل إلينا، فهل لنا أن نصله بشيء، ووالله ما كان معنا غير حلينا فخلعت سوارين ودملجين وبعثت بها إلى الرجل متعذرة عن قلة المكافأة، فما راعنا إلَّا أن بكى

وقال: لو كنت أصنع هذا الصنيع لذهب أو فضة لقبلت ما قدم إلي، وعددته كثيرًا، ولكني أحفظ عهد رسول الله في أهل بيته، وآمل أن يشفع لي يوم العرض، وبكى فبكينا معه!

وكانت المدينة ذات أرج طيب، فيها قبر جدي وجدتي وأمي فاطمة، وبها من ذوي الإخلاص والصدق والغيرة علينا ما نرجو أن يثيبهم الله على جزيل ما أظهروا من الحب، وواسوا وجاملوا، وقد رأيت عبد الله بن الزبير يرسل وفوده من مكة إلى المدينة مطالبًا بثأر الحسين، فتشجَّعت وبذلت الجهد في تأييده، وطار الخبر إلى يزيد، فكتب إلى عامله على المدينة عمرو بن سعيد طالبًا هجرتنا إلى مصر، وشاهدت مِن قرابتي مَن وافقوا على الرحلة، لنهدأ قليلًا ممَّا نعاني، فقد تهب العاصفة ولم نعد نتحمل، وها نحن الآن معكم، فالحمد لله.

ونظر القوم بعضهم إلى بعض فترجموا بنظراتهم عمَّا تُخفي الضلوع من طرب شجي، وقال قائلهم: حسبنا اليوم ما سمعنا، وسنعود لنسمع إذ طال الحديث، ثم نهضوا إلى الباب صامتين، وفي وجوههم خشوع، وفي مآقيهم دموع.

- ٢ -

تفرَّق القوم عن مجلس زينب صامتين، ثم اجتمعوا في المسجد متحدثين، فقال إمام المسجد، وكان بين المجتمعين: لقد كنتُ أضمر في نفسي سؤالًا ولكني تهيبت السيدة الطاهرة أن يكون فيه ما يمس شعورها الأخوي، ولكن السؤال يلح عليّ.

فقال قاضي الفسطاط: أفصح عن سؤالك لنا، فقد نجد إجابة له.

قال الإمام: كنت أريد أن أسال السيدة الفاضلة إذا كان شقيقها الإمام الحسين لا يملك الجند الكثير والأنصار المتحمسين، فلماذا ذهب إلى كربلاء وليس معه

غير نفر من ذويه، وفيهم النساء والأطفال، أما كان الأحرى أن يأخذ للأمر أهبته؟

قال القاضي سؤال يدور في أذهاننا جميعًا، ولا حرج في أن نلتمس الإجابة عنه من السيدة الطاهرة، فهي رفيقة جهادة وموضع سرِّه ونجواه، وليس الإمام الحسين ﷺ غرًّا حتى يقذف بنفسه وبأهله لتهلكة دون إعداد، وستجيب بما يشفي الغليل.

وإذا كان الحديث العام في المسجد لا يُكتم، فقد طار فحواه إلى السيدة، وأحست أن عليها أن تدعو جماعه الفقهاء والمحدثين إلى اجتماع قريب حددت يومه وساعته، ولم يتأخر أحد عن تلبية الدعوة، إذ ما حان موعد الاجتماع حتى توافد الشيوخ إلى منزل السيدة، فجعلت ترحب بهم في سماحة، وقالت: إن من حقهم أن يقفوا على مقدمات مأساة كربلاء، كما وقفوا على خاتمتها المروعة، وإنها ستروي ما شهدت دون تزيد، لتكون شهادة تنصف المظلوم من الظالم، ورب العرش عالم محيط.

قالت السيدة في وقار هادئ:

إن أخي رحمه الله قد ورث شجاعة أبيه؛ إذ ما كان يجاوز العشرين حتى انضم إلى جيش سعيد بن العاص الذي توجَّه إلى طبرستان، وأبدى من البطولة ما كان حديث الناس، ثم لم يكد يستريح بعد رجوعه حتى انضم إلى جيش أفريقية، وكان فارسًا معلمًّا يوم فتحت طرابلس؛ إذ أبدى من البسالة النادرة ما قرَّب الفتح وعجَّل النصر، ولا أذكر مواقفه في معركتي الجمل وصفين؛ إذ كان ساعد أبيه وموضع استشارته، وحين تم الصلح بين أخي الحسن وبين معاوية كان الحسين ممَّن عارض أخاه في شدَّة، ثم رأى أن يجمع الجموع ليقف أمام معاوية، فلم يكن أهل البيت من رأيه فأطاع! وحين رشح معاوية يزيد لخلافته وأرسل إلى الوليد

ابـن عتبـه عاملـه بالمدينـة أن يأخـذ البيعـة لـه مـن كبـار الصـحابة في الحجـاز، كـان الحسين أشجع معارض، فرفض هذه المهزلة وأرسل إلى شيعتنا بالكوفة ليستوثق من موقفهم، فجاءه الرد السريع يقول:

«أمـا بعـد، فالحمـد لله الـذي قصـم عـدوك العنيـد - يريـدون معاويـة - حـين اعتدى على الأمة، فاغتصب حقوقها، وغلب على فيئها ثم قتل خيارهـا، واسـتبقى أشرارها، فبُعدًا له كما بعدت ثمود! وإنه ليس لنا أمام غيرك، فأقدم علينـا، لعـلَّ الله أن يجمعنا بك على الهدي».

قرأ الحسين خطاب الكوفيين، وجمعنا نحن أهل البيت لنتشاور، أيرحـل بنـاء على خطاب أتى إليه أم يتريث، وكان من رأيه أن يُرسـل ابـن عمـه مسـلم بـن عقيـل للكوفـة ليـرى بعينـه، ويلمـس بيـده، ثـم يُخبرنـا بمـا يـرى ويلمـس، فوافقنـا علـى اقتراحه، ونشط مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الكوفة، ومعه كتاب للحسين يقول فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى الملأ مـن المـؤمنين، أمـا بعد، فقد فهمت كل الذي قصصتم، وبعثـت إلـيكم بـأخي وابـن عمـي، وثقتـي مـن أهل بيتي، مسلم بن عقيل، وأمرته أن يكتب إليّ بحالكم ورأيكم، فإن كتب إلي أنه اجتمع رأي ملئكم وذوي الحجا منكم، على مثل ما قد قدمت به رسلكم، وقـرأت في كتبكم، فإني أقدم إليكم وشيكًا، إن شاء الله».

فلما ذهب مسلم وجد حماسـة وتأهبًـا، وسـمع مـا يحلـو مـن القـول اسـتعدادًا للشهادة وتحفزًا للجهاد، وقد بايعه اثنـا عشـر ألفًـا، يعلنـون انضـواءهم تحـت رايـة الحسين، فكتب إلى أخي بما كان فاطمأننا، وتهيأنا للرحيل.

ثم سكنت السيدة كأنهـا تتذكر، ومـا لبثـت أن قالـت: لقـد عـارض الحسـين في مسيره رجلان؛ هما ابن عباس، والطرماح بن عدي.

أما ابن عباس فعارضه بالمدينة قبل أن يرحل؛ إذ أتى إلى داره وطلب أن يُحدِّثه على انفراد، حيث قال له: يا بن عمّ، لقد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فبيِّن لي ما أنت صانع؟

قال الحسين: إني قد أجمعت المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله.

قال عبد الله: إني أعيذك بالله من ذلك، فأخبرني رحمك الله أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم، وضبطوا بلادهم، ونفوا عدوهم، فإن كانوا فعلوا ذلك فسِر إليهم، وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم، وعماله يجبون إليه مال البلاد، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك، ثم يستغفروا إليك، فيكونوا أشد الناس عليك!

فقال الحسين: إني أستخير الله وأنظر ما يكون.

فلمَّا كان الغد عاود عبد الله بن عباس الكرَّة، فقال للحسين: إني يا بن العم أتصبر ولا أصبر، إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال، إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم، فإنك سيد الحجاز، فأقم به، وإن أبيت فاخرج إلى اليمن، فإن بها حصونًا وشعابًا، بها أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، فتكون بهم ذا منعة.

قال الحسين: إني والله لأعلم أنك ناصح مشفق، ولكني صمَّمت.

قال ابن عباس: فإن عزمت فلا تصحب معك نساءك وأبناءك، إذ أخشى أن يقتلوك وأنت تنظر إليهم كما قُتل عثمان وأهله ينظرون!

ثم سكتت السيدة، وقد سبحت في شجونها مُتحسِّرة.

فقال إمام المسجد: سيدتي، عهدناك ذات شجاعة وصبر، فلا تدعي للشجن بابًا يفد منه إليك، قد عرفنا قول ابن عباس، فماذا قال الطرماح بن عدي؟

فأسرعت السيدة تجيب:

قبل كل شيء أؤكد أن أخي كان واثقًا من كلام مسلم حين أخبره بأن اثني عشر ألفًا بايعوا الحسين، وهم مُستعدِّون لنصرته، ومن قبل جاءه كتاب الكوفة، فضم قولًا إلى قول، فاعتزم ونهض.

أما الطرماح بن عدي فقد قدم على الحسين ليقول له:

لقد غادرت الكوفة ولي أمل ألَّا تسير إليهم؛ إذ لا يقدرون على منعك، وإذا أردت مجالًا للجهاد فهلم معي إلى طيئ، فهم أهل بسالة وحمية، وأنا الزعيم أن أجمع لك عشرين ألفًا من طيئ، يضربون بين يديك بأسيافهم، ووالله لا يصل إليك عدوك ومنهم عين تطرف.

فقال الحسين: جزاك الله خيرًا، ولكن بيننا وبين أهل الكوفة عهدًا، وأنا في الطريق وهم منتظرون.

راجعتُ أخي فيما سمعت، فأطرق قليلًا، ثم قال: أمري في يدي، فإن لم أجد عونًا صادقًا وجيشًا مُتأهبًا فلي أن أوجه خطوي إلى مكان آخر، وإذا تحقَّق ما قال مسلم فالنصر قريب!

على أن الخطب بدا يُكشر عن نابه؛ إذ انطلقنا من المدينة إلى الكوفة فعلمنا في الطريق أن مسلمًا قد قُتل، وأن أهل الكوفة قد خذلوه.

هنا أسف الحسين، ورأى أن الخير في المسالمة، فانتظر حتى جاءه عمر بن سعد بن أبي وقاص على رأس جيش في أكثر من أربعة آلاف، فتقدَّم عمر، وقال للحسين: ماذا أتى بك؟ فقال: أخي، كتب إلى أهل مصركم أن أقدم، أما إذا نكلوا عهدهم فسأرجع.

فقال عمر: هذا هو الرأي.

وكتب إلى ابن زياد ليُخبره باعتزام الحسين على الرجوع، ولكن الطاغية تهجَّم وقال: لا بد من الحرب، وكتب إلى عمر كي يبدأ.

كان ابن سعد مُتهيِّبًا أن يُحارب آل رسول الله، فكتب إلى عبيد الله يقول: هذا حسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي جاء منه أو أن يسير إلى أي ثغر من ثغور المسلمين، أو أن يأتي يزيد فيضع يده في يده، وفي هذا رضى، وللأمة صلاح، وهذا كتاب ناصح للأمير مشفق على قومه!

ولكن ابن زياد قد اشتط فكتب مُصمِّمًا أن يحارب الحسين، وبعث إليه باللعين شمر بن ذي الجوشن، ليضرم الحريق، وشبَّت الحرب، واستُشهد الحسين، ولن أطيل، ثم انخرطت في بكاء طويل!

نظر الشيوخ بعضهم إلى بعض متحسرين، وقال قائلهم: لقد أعذر الحسين؛ إذ طلب المسالمة، وسأل القوم أن يأذنوا له في الرجوع.

وقال آخر: لم يقدم على مهلكة، فقد وثق بالكوفة، ولكن أهلها خذلوه، وحين تأكد من الخيانة تراجع!

فرفعت زينب رأسها وقالت في هدوء: هنيئًا له، قد لقي الشهادة، وليتنا ظفرنا بها معه، ثم علا صوت المؤذن ينادي للصلاة، فاستأذن القوم وكل واجم مطرق كأنه يسير في جنازة الحسين، وهي جنازة تتكرر كل حين؛ إذ لا يسأم المسلمون حديثهم عن استشهاد متحسرين!

❁❁❁

خارجيان يتوبان

كان الحسن البصري يتجه بعد صلاة العصر إلى حلقة درسه بجامع البصرة، فرأى التفافًا حول ضيفين غريبين، فتوجَّه إليهما محييًا، وسأل: مَن أنتما؟ فقال تلميذه عمرو بن عبيد: إنهما أسلم بن البراض، وفاتك بن أسامة الخارجيان، وقد جاءا إلى مجلس الحسن يُعلنان التوبة والانضمام إلى الجماعة، فابتسم الحسن، وربت بيديه على كتفيهما، وصاح بهما: هيا ستجلسان جواري، لتعظا الناس، فصاح ابن عبيد: من الذي يعظ يا مولاي؟

وسار الحسن بصاحبيه حتى توسط الحلقة، وأحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، ثم بدأ الحديث بقوله:

إن الحق لا يخفى طويلًا، وإن للباطل جولة ثم تنقضي، وأنا وإن كنت أخالف جماعات الخوارج مخالفة صريحة، إلَّا أني أرحمها، وأقدر بواعث شقاقها؛ لأن الخوارج مسلمون ضلوا الطريق، وهم أهل إخلاص وصدق، وقد سُئل علي ابن أبي طالب رضي الله عنه عن هؤلاء أكُفَّار هم؟ قال: مِن الكفر فرُّوا. رحم الله الإمام عليًّا كرم الله وجهه، فقد حاربه الخوارج وأرهقوه، وأفتوا بكفره، ولكن الحقَّ عنده فوق كل شيء، كان في مكنته أن ينتهز مروقهم عن طاعة الإمام وشنِّهم الحروب الدامية على معشره ليُوجِّه لهم أقسى الطعنات، فيتهمهم في إيمانهم، ولكنه استشعر حقَّ الفتيا، وهو باب مدينة العلم، ووارث فقه ابن عمه سيدنا رسول الله ﷺ فقال بصريح العبارة: من الكفر فروا... ثم التفت إلى أسلم بن البراض، وكان على يمينه، فقال له: كيف انضممت إلى الخوارج يا أسلم؟

فقال أسلم بعد أن حمد الله وأثنى عليه: لقد كنت قريبًا في المسكن من منزل صالح بن مسرح، صاحب شبيب بن زيد، وكان ورعًا نقيًّا مُتحرزًا، يقوم أكثر الليل، ويجاهد، ويعظ طيلة النهار، وكان زاهدًا ورعًا مصفر الوجه، له أصحاب كرام بالموصل، يقرئهم القرآن، ويعلِّمهم الدين، وقد دعا بالخروج على عبد الملك، واستنفار المسلمين لقتال إخوانهم المسلمين.

قال الحسن: لم يكن يصفهم بالمسلمين يا أسلم.

فقال أسلم: نعم، وهذا خطؤه، بل هذا ما استدرجنا إلى الانضمام إلى جماعته، وما زلت أذكر مديحه لرسول الله وأبي بكر وعمر بأجمل العبارات، حتى إذا وصل إلى عثمان وعلي، حرد ومرق، وكانت له لباقة في الدعوة إلى الجهاد، وما زلت أحفظ قوله: «لا تجزعوا من الموت، فإن لقاء الله حبيب أثير، والموت نازل لا محالة عن قتل أو غير قتل، فبيعوا لله أنفسكم طائعين».

وضع الحسن يده على ركبة أسلم وقال: مهلًا قليلًا فسأعقب، ثم اتجه إلى تلاميذه بالحلقة، فقال:

لقد أصاب صالح في ورعه وزهده، وتعليمه أبناء الموصل كتاب الله، كما أصاب في حبه رسول الله وأبا بكر وعمر، أما موقفه من عثمان وعلي فذو خطأ صريح، لقد مات عثمان شهيدًا قبل أن تبرز فتنة الخوارج؛ لأنهم لم يظهروا إلَّا بعد التحكيم في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وقد كانوا قبْل خروجهم في جماعته ثم مردوا عليه، لأنه قَبِلَ التحكيم، مع أنه كرم الله وجهه كان مُخالفًا له، ولكن جماعته أجبروه عليه، فنزل على رأي الجماعة، ثم انجلى التحكيم عن شقاق، رجحت به الكفة الباغية، هنا مرد الخوارج، وقالوا إن عليًّا قَبِلَ التحكيم، وإذن فقد كفر، ولا اتفاق معه إلَّا إذا أعلن كفره ثم رجوعه بالتوبة!

ثم رفع الإمام الحسن صوته قائلًا: ألستم معي في أن الإمام مظلوم، مظلوم حين اضطر إلى قبول التحكيم تحت تأثير جماعته، ودون رضاه الشخصي، ومظلوم حين اتُّهم بالكفر وهو أمير المؤمنين!

ثم اتجه إلى أسلم وقال له: استرسل كما تريد.

فقال أسلم: أوافق الآن على ما يقول مولانا الحسن، ولكنني حين اعتنقت مذهب صالح بن مسرح لم تكن الحقائق واضحة لذهني، كما تتضح الآن! على أني لا أنكر أن لجماعة الخوارج آراء هي من صميم الإسلام، وإني أحبذها كل التحبيذ!

فأشرق وجهُ الحسن، وتوجَّه إلى تلاميذه بالحلقة، وقال: استمعوا يا قوم، فقد يأتي الرجل لنا بما لا نعلم، ونحن أتباع الحق.

قال أسلم: إن جماعه الخوارج يذهبون إلى أن الخليفة لن يُختار إلَّا بانتخاب صحيح، تقوم به جماعه المسلمين كافة، لا خاصتهم، وإنه يستمر خليفه ما دام قائمًا بالشرع، فإذا وقع في زيغ وجبت مُحاسبته، وإن أتى ما يستحق القتل شرعًا قُتل. قال الحسن: نحن نرى أن الخليفة لن يكون خليفة شرعيًّا إلَّا إذا قام بالشرع والتزم بالأحكام، فإذا حاد عن حكم الله عُزل وحُوسب، أما إنه لا يُختار إلَّا بانتخاب تقوم به جماعه المسلمين دون استثناء، فهذا ما يتعذر، وقد تمضي السنوات دون أن يجتمع مَن في المشرق والمغرب مِن شتَّى بلاد الإسلام على انتخاب إمام واحد، وليت ذلك كان ميسورًا فنرتضيه، ولكن اللجوء إلى الصفوة المختارة من أهل الحل والعقد كان أقرب طريق للحق!

ثم اتجه إلى أسلم فقال له: أعندك شيء آخر؟

فقال أسلم: ألا ترى أن لصاحبي فاتك بن أسامة حقًّا في أن يتحدث، وقد بدأت فليثن!

فاتجه الحسن إلى فاتك وقال: دعاك أخوك للحديث فقُل لنا ماذا أعجبك لدى القوم غير مسألة اختيار أمير المؤمنين، وقد عرفت الجواب عنها!

قال فاتك: لقد ناقشت بيني وبين نفسي أوجه الخلاف بين الخوارج والجماعة، واهتديت إلى ضلال الخوارج.

فردَّ الحسن: أرشدك الله ثم أرشدك، فوضِّح لنا مشكورًا كيف اهتديت إلى الصراط السواء؟

فقال فاتك: أنت تعلم يا سيدي أن جماعة الخوارج يحكمون بتكفير أهل الذنوب، واعتبروا الخطأ في الحكم ذنبًا يصل إلى الكفر، ولذلك حكموا بتكفير علي كرم الله وجهه حين قَبِل التحكيم، لأن التحكيم في رأيهم ذنب، ومن أتى الذنب كافر لديهم، وكذلك حكموا بكفر طائفة من أصحاب رسول الله، وقد تدبَّرت آيات القرآن فوجدت أن الذنب لا يُكفر به صاحبه، بل يُمحى بالتوبة، وأمامنا النص الصريح من قول الله ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[1].

قال الحسن: حيَّاك الله ثم حيَّاك، ثم توجه إلى تلاميذه فقال:

إن الآيات الكريمة تدل على سعة عفو الله! فالله يقول: ﴿أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ والإسراف تجاوز حد، ولن يكون الإسراف من ذنب أو ذنبين، بل مِن عدة ذنوب، يتغمدها الله بعفوه إن تاب صاحبها توبة النصوح، ثم يقول: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ ﴾

(١) سورة الزمر، الآيات: (٥٣ – ٥٥).

والقنوط لا يكون من ذنب واحد أو ذنبين، لأن القنوط يأس مرير تضيق به الدنيا في وجه القانط، وهذا يحدث عند ارتكاب الكبائر لا اللمم، فإذا كانت الكبائر لا تستدعي القنوط فيفم التكفير؟، ثم يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾، وكلمة ﴿جَمِيعًا﴾ تفتح كل باب مُغلق، فمهما تخيَّلت من ذنب كبير تجسَّمت أهواله في عينك، فهو صغير في جنب رحمة الله، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وأدار الحسن وجهه إلى فاتك فقال: استمر يا فاتك!

فقال فاتك: جاءتني أقوال العلماء فيمَن ارتكب الكبيرة، إذ ذهبت الجماعة إلى أنه مسلم عاصٍ، وذهبتم أنتم إلى أنه بين المنزلتين!

فصاح الحسن: من الذي ذهب إلى أنه بين المنزلتين، منزلة الكفر والإيمان، إن ذلك رأي لتلميذي واصل بن عطاء، وقد خالفته بالحق، فاعتزل مجلسي، ونأى مع نفر من مؤيديه! أأكون أنا الذي قلت ذلك! وقد خطَّأت واصلًا وهاجمته حتى اعتزل! وسمَّى أصحابه بالمعتزلة! نحن مع الجماعة يا فاتك، فلا تتوهم! أما الخوارج فقد حكموا بتكفير مرتكب الكبيرة فأيأسوه من رحمة الله!!

قال فاتك وقد رجعنا بحمد الله عما يقولون!!

ابتسم الحسن وقال: الحمد لله! ما دمتما قد رجعتما فهنيئًا ثم هنيئًا، ولا بد أن نعرف منكما شذورًا عن مواقف القوة؛ إذ تأتينا الأنباء متضاربة مختلطة، ومثلكما لا يقول غير الحق، وأنتما الآن بعد الهداية من أهل الصدق واليقين!

ثم رفع الحسن صوتَه عاليًا مُتجهًا بالحديث إلى جميع مَن بالحلقة مِن تلاميذ ومستمعين، فقال: لا تظنوا أن الدرس الديني وقف على الشيخ وحده، فإن ممَّا يجمل بالعالِم أن يستمع إلى سواه في حلقة درسه، وإليه المرجع في التصحيح والتصويب، وقد كنت أتوق إلى أن أجلس مجلس المُستمع في مسجد البصرة

هذا، ولكنكم تأبون على إلَّا أن أتكلم، وما أنا بأفضل من ابن عباس ومن ابن عمر ومن ابن مسعود، وقد كانوا يجلسون فيستمعون العلم مناقلة ومدارسة، وقد بعث الله هذين الكريمين لأستمع إليهما معكم، فنلم ببعض ما لا نعلم.

صاح صائح من الحلقة: يا إمام، وهل عُدم المتكلمون حتى لم يبق غير حديث رجلين كانا بالأمس في ضلال مبين، فيتصدران حلقة العلم يتحدثان؟ قال: الحسن: مهلًا مهلًا يا رجل! أنت تعلم أن الخوارج خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، فلِمَ لا نغبط بالعمل الصالح فنقتدي به ولِمَ لا ننقد العمل السيء ونجافيه!؟

قال الصائح: وأي مواقفهم نغبط به؟

فردَّ الحسن: أغبط بموقف مرادس الخارجي -مثلًا-، حين حُبس في سجن عبد الله ابن زياد بالبصرة، فقال له السجان وقد رأى كثرة صلاته وتسبيحه: أنا أحب أوليك حسنة، قال مرداس: وماذا تستطيع أن تفعل؟ قال السجان: أتركك كل ليلة تذهب إلى بيتك ممسيًا، فإذا أذَّن الفجر قدمت علي، ففعل.

وفي ليلة جاء النبأ إلى عبد الله بن زياد أن الخوارج قد قتلوا صاحب شرطته، فأقسم ليقتلن مَن بالسجن منهم إذا طلع الصبح، وجاء الخبر إلى مرداس في منزله فتركه لفوره واتجه إلى السجن، ورآه السجان قبل موعده؛ إذ تعوَّد ألَّا يحضر إلَّا ساعة الفجر، فسأله: ماذا أتى بك الآن؟ فقال مرداس: علمت أن الأمير سيدعو من بالسجن قبل الصباح كي يقتلهم أخذا بثأر صاحب شرطته، وخفت عليك أن تقع في مؤاخذة إذا لم أكن بين المسجونين، فتعجَّب السجان وسأل مرداسًا: ولما بكَّرت هكذا قبل الفجر؟ قال: خفت أن يأتي الطلب الآن فتقع في المحظور ويلحقك المكروه، فاطرق السجان مبهوتًا وهو يقول: حرام أن يُقتل مَن يَفي بالعهد!

ثم سكت الحسن لحظة وقال: ألا أغبط بما صنع مرداس، ألا أضربه للناس في مجلس الوعظ مثلًا لمن يفي بالعهد وبصدق الوعد؟

أما ما أنقذه من سيئات الخوارج فأكثر مِن أن يُحصر، وقد سمعتم بالأمس رأيي في نافع بن الأزرق الحنفي، حين رأس الأزارقة ونادى بتكفير كل من لم يكن من رأيه، من جماعة المسلمين، وأباح قتل الأطفال والنساء ممَّن يشهدون أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وقال: الدار دار كفر إلَّا من أظهر أنه معنا، ثم أفتى بألَّا تُؤكل ذبائح المسلمين ولا تجوز مناكحتهم وتوارثهم لأنهم كفار كالمشركين، ولا يُقبل منهم غير الطاعة أو السيف! قال نافع ذلك، ومع فحش ما قاله، هادنه عبد الله بن عباس، وناقشه الرأي، وجادله في معاني بعض الآيات ولم يقل إنه كافر، بل قال إنه عاص ضال، وسأل الله أن يهدي الضالين!

ثم التفت الحسن إلى مكان المعترض وسأل في رفق: ألديك تعقيب فأزيد، فلم يسمع ردًّا.

فقال الحسن لجاره أسلم بن البراض: مع مَن كنت في الخوارج؟

فقال: كنتُ بفارس في جيش قطري.

والتفت إلى جاره الآخر فاتك بن أسامة، فسأله: ومع مَن كنت في الخوارج؟

فقال: كنت بالكوفة في جيش شبيب بن يزيد؟

فابتسم الحسن وقال: الصيد ثمين، سنعلم حديث القوم جميعًا ونحن مستريحون، هيَّا يا أسلم فتحدث عن بعض ما شاهدت في حروب قطري، وقد تأتي بالجديد:

قال أسلم: ليت لي بعض بيان الإمام الحسن، فأفيض بما لدي عن طواعية سلسة لا تعرف التكلف، ولكنِّي أتحدث بما يحضرني، فأقول: إني عرفت قطري

ابن الفجاءة بطلًا محاربًا لا يعبأ بالموت، فهو يهجم بالكتيبة القليلة على الجمع الكثير غير هيَّاب، شاهدته يوم دولاب، وكان أمير الخوارج حينئذ الحجاج ابن باب الحميري، فلم يزل يقاتل الخوارج، وأعداؤه أكثر منه عشر مرات، وقد رموه وجنوده بالقذائف القاتلة من الحجارة حتى غلبت الكثرة الهائلة القلة الضئيلة، واضطر الخوارج للفرار، وكادت تنحسم المعركة لجيش ابن الزبير، ولكن جماعة تظهر فجأة بقيادة قطري بن الفجاءة، فحملت على الناس حملة مَن يستميتون ولا يرجون بقاء لحظة في الحياة، السيوف في أيديهم والنبال تسبقهم إلى الأعداء، وصيحات قطري تعلو وهو يكر ويفر، لا يبالى قذائف الحجارة ولا نبل العدو ورماحه، حتى تغيَّر الموقف، فسقط قائد المسلمين حارثة بن بدر فظنَّه القوم صريعًا: فانخزل الجيش وتفرَّق ومن ورائه قطري يتتبعهم حتى بلغوا الأهواز، فمن رأى قطريًّا في هذا اليوم لم يحسبه إنسانًا بل يعتقد أنه جني انشقت عنه الأرض، وقد هزَّه الطرب عقب الخاتمة الناجحة بالنسبة إليه، فبعث بقصيدة من شِعره متشوقًا إلى زوجته البطلة النادرة أم حكيم فقال عنها:

ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى في الحرب غير ذميم
فلم أر يومًا كان أكثر مقعصًا ... يمج دمًا من قائظ وكليم
وضاربة خدًّا كريمًا على فتى ... أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تكن موطنًا ... له أرض دولاب وديار حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

فقلَّب الحسن البصري يديه دهشًا وهو يقول: «باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن»، إنهم سموا أنفسهم الشراة، أخذًا من قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾[1]، لقد صدقوا النية عن غفلة، وفهموا الباطل في صورة الحق، فما استقاموا على الطريق.

قال أسلم: كانوا في حاجة إليكم معشر العلماء لترشدوهم إلى السبيل!

فصاح الحسن: سبحان الله أو قصَّر العلماء! إن الفاقهين منذ عهد الإمام علي ابن أبي طالب يُجادلونهم بالتي هي أحسن، فما استمعوا إلى قول فقيه، كانوا يظنون أنفسهم حملة العلم وحدهم، وأن خصومهم جهلاء لا يفقهون كتاب الله وسنة الرسول، فماذا يصنع عالِم أمام من يرميه بالجهل الشنيع، استمر يا أسلم، فقد اهتديت!

قال أسلم: ولم ينحدر قطري عن طريق الميدان وحده، فقد نازل جيوش المهلب بن أبي صفرة دون مبالاة والمهلب رحمه الله بطل المعارك ورجل المواقف، وهو أسد ذو زئير، وأشباله مِن حوله: المغيرة والمفضل ويزيد وحبيب ومعن كالحلقة المفرغة، لا يدري أين طرفاها، كما قال القائل في وصفهم صادقًا غير متحيز، كل ولد بقبيلة في الميدان، ومن ورائه جيوش الخلافة، وتأييد الحجاج وحب المخلصين، ولكنه مع ذلك كله لم يجعل القتال وحده سبيل الظفر مع قطري، فأخذ يلجأ إلى الاحتيال وله فيه غرائب وأعاجيب!

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

قال الحسن: مثل!

فقال أسلم: كان قطري يعلم أنهم يتمسكون بظواهر النصوص، فيُرسل مِن جيوشه مَن يتظاهر بالانضمام إلى الخوارج ليُثير اللجاج الجدلي، فيتطاحن القوم ويتنافرون حتى دبَّت البغضاء بينهم، وحاربوا أنفسهم، وذلك نصر نفسي للمهلب! كان قطري يثق في مقاتل جريء من أبطاله يُسمى (عبيدة بن هلال)، فبلغ المهلب أن عبيدة يختلف إلى امرأة حداد متخفيًا، فأرسل من جيشه مَن يذيع النبأ، فهاج القوم وذهبوا إلى قطري يطلبون منه إقامة الحد، فقال لهم: لم يشهد شهود على الفاحشة، وعبيدة من الدين بحيث لا يجرم، ومِن القتال بموضع البطل الباسل، وقد شهد بلاءه، فقالوا: ولكننا لا نقره على الفاحشة، فاستدعى قطري عبيدة وسأله عن اتهام القوم، فقام فزعًا يقرأ قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[1].

فتراجع القوم وبكوا واعتذروا، ولكن رسول المهلب اندس بين الصفوف، وجعل يقول: خدعنا بآية من كتاب الله نزلت في سواه، فأحدث بلبلة، وهاج القوم على قطري، وانسحب من جيشه فريق كبير.

وقد تعب قطري ذات يوم تعبًا جسيمًا اضطره إلى الراحة، فقال له قومه: ألا نخرج الآن إلى القتال؟ فقال: كلَّا، ثم رأى تجمعهم وحماسهم فعزم على الخروج رغم مرضه، فصاح به الصالحون: قلت لا، ثم كذبت حين خرجت، أنت الآن مرتد؛ لأن الكاذب مرتد، وسمع رسول المهلب هذا اللجاج، فجعل يذيعه

---

(١) سورة النور، الآية: ١١.

متنقلًا بين الناس حتى هاجت الهائجة على قطري، وانسحب فريق آخر، واستطرد أسلم يقول: قلَّت جيوش قطري بعد هذا الانسحاب المتتابع، ولكنه لم يجبن حتى صُرع، ولم يُصرع مواجهة؛ إذ كان الأبطال يتهيَّبون لقاءه، ولكن فرسه قد سقط به على جبل وعر، فأخذ ينحدر متساقطًا دون أن يقدر على النهوض، وانتهزها القوم فرموه بالحجارة الصلبة، ففلقت رأسه، وتخلَّص المهلب من عدو خطير!

قال الحسن: ما أشد وجيعتي لفرقة المسلمين! ما ضر لو زحفت الجموع لنشر الإسلام دون أن يقع البأس بين المسلمين!

قُلْ يا أسلم، فقال: انتهى ما لدي، وجاء دور فاتك ليتحدث عن شبيب: فقال الحسن لجماعته: أوَ تأذنون الآن! أم نُرجئ إلى الغد. قالوا جميعًا: نأذن، فالوقت كافٍ والشمس لم تجنح بعد للأصيل.

فالتفت الحسن إلى فاتك وقال له: هيَّا لو ارتضيت.

قال فاتك بن أسامة: سمعت ما قال أسلم عن قطري، فرأيت أن شبيبًا لا يقلّ عنه فروسية وبسالة، كنت معه في جميع مواقفه الباهرة حتى غرق، فلم أشهد غير الهول الزاحف يزلزل ما أمامه، ولا يكترث بشيء على قلة أعوانه وكثرة أعدائه، فأول معركة خضناها كانت مع جيش ابن مروان وقائده عدي بن عميرة، وكان شبيب في أربعين بطلًا من جنده، وجيش عدي يتعدى ألفًا وخمسمائة فارس، ولو تلاقى الجمعان دون تدبير لانتصرت الكثرة على القِلَّة، ولكن شبيبًا هاجم عدوَّه قبيل الفجر قبل أن يستيقظ، فهزمه هزيمة نكراء، وقتل الأربعون جندًا كثيرًا، وغنموا الأموال وظفروا بما أعانهم من السلاح.

ولم يهدأ محمد بن مروان بعد هزيمة عدي، فقد أدركه الغضب وعبأ جيشًا كثيفًا يتعقب أصحاب شبيب، وقد رحلوا إلى آمد مع ما يحملون من السلاح،

وجاء جيش الأموية فحفر خندقًا كبيرًا حول المدينة، فحال ذلك دون سهولة الالتقاء على وجه سريع، فتشاور شبيب مع صالح بن مسرح، وهو قائد الخوارج الأول، ومعه تعاقد شبيب على القتال حتى النصر، فاتفق الرأي على الرحيل إلى الموصل، حتى تكون المعركة في مكان لا يحده خندق، وفُوجئ الحجاج بن يوسف وقد ولي العراق بعد ابن مروان بانتقال الخوارج إلى الموصل، فجهَّز جيشًا في ثلاثة آلاف رجل، وليس مع الخوارج غير تسعين رجلًا فحسب، وقد جعل صالح جيشه ثلاثة أقسام، كل قسم يضم ثلاثين فارسًا، ثم التحم الهول، فصرع صالح، وكاد شبيب يُصرع لولا أنه حال للفرار من جمع لا قبل له به، وجاء الليل فجمعنا، وكنا سبعين فقط، وسأل: ما العمل؟ فلم ندر ما نقول، فقال شبيب: ليكن كل واحد منَّا جاعلًا ظهره بخلف ظهر صاحبه، فيحمي كل مقاتل أخاه، وبذلك يكثر عددنا إلى الضعف: ولا ننتظر بقاء، فالموت فخر.

وحانت المعركة، فبذل السبعون جهاد الجبابرة، حتى فرَّت كتائب الأموية إلى حصن الموصل بعد أن صُرع قائدهم الحارث بن عميرة، وتركت من السلاح ما لا حصر له، وأقبل الليل فانتهزها شبيب فرصة للمسير، وحمل جميع العتاد ومعه الخيول والدواب، وذاع انتصاره، فأقبل عليه الخوارج مِن كل صوب ونادوه بإمارة المؤمنين.

ارتاع الحجاج لِمَا سمع من هزيمة الجيش، وازدياد جموع الخوارج، فبعث بجيش كثيف يتعقب شبيبًا، حيث اتَّجه فتلاقى الجمعان عند سفح جبل بخانقين، واستعمل شبيب الحيلة، فأظهر للقوم أنه ينوي الفرار، حين ترك كمينًا يلتف حول الجيش إذا تقدَّم، وظن قائد الحجاج أن القوم يهربون فرارًا مِن بطشه، فتعقبهم معجلًا، وسار جنده خلفه في غير أهبة كاملة، ثم رأوا شبيبًا يكر عليهم كالصاعقة

من أمام، على حين هجم الكمين المستتر من خلف، فذُعر القوم ذُعرًا شديدًا، وحصدت السيوف الخارجية جمعًا كثيرًا.

وتكررت المواقع؛ إذ بعث الحجاج بالقادة، قائدًا خلف قائد، بعث بالجزل ابن سعيد على جيش ضخم، فلم يصنع شيئًا، وتلاه بجيش آخر يقوده سعيد ابن المجالد، وقد ضاق به الصبر، نظرًا لتأنيب الحجاج واستعجاله، فصاح بالقوم من أهل الكوفة: إنكم عجزتم وأطعمتم عدوَّكم، وأنتم في طلب هؤلاء الأعاريب العجف منذ شهرين، وقد خربوا بلادكم وكسروا خراجكم، وأنتم متحصنون بالخنادق لا تبرحون، إلى أن يبلغكم أن القوم نهبوا أموالكم وأسلحتكم وارتحلوا ظافرين.

فقال الجزل: وما تريد أن تفعل يا سعيد؟ قال: نترك هذه الخنادق ونتعقب الأعراب، فقال له: مهلًا حتى نرسم الخطة بعد أن نعرف أين يقيمون، وكم عددهم، وما لديهم من العتاد، فصاح سعيد: لا مرحبًا بمَن يخذل، والله لأذهبن، ولو كنت فردًا واحدًا، وجاء الخبر إلى شبيب بالنهروان فجمعنا، وجعل يُقسِّمنا كراديس كراديس، ويباعد بين كل فرقة وأختها، حتى يظن العدو أنه أمام جمع صغير، فيهجم غير مبال، وحانت المعركة، فأطبق الجزل بجيشه وقاتل حتى جُرح وحُمل، ورأى جيشهُ القائدَ محمولًا، فظنوه قد صُرع، وتفرَّقوا مذعورين، وانتصر شبيب.

قال الحسن: هذه معارك عرفتها وسمعت عنها كما سمعت عن انتصارات شبيب على جيش محمد بن موسى، وجيش عبدالرحمن بن الأشعث، وجيش عثمان بن قطن، وجيش عتاب بن ورقاء! بل على جيش الحجاج نفسه بالكوفة، وكانت قائدة الجيش غزالة زوجة شبيب، وقد دخلت مسجد الكوفة وصلَّت

الظهر، والحجاج محجم عن مواجهتها ومعه أربعة آلاف بطل من جيوش الشام بعد أن ضاق صبره بجنود العراق! دخلت غزالة المسجد، وتوضأت وصلَّت بعدة سور من القرآن، واطمأنت، وخرجت راكبة فرسها دون أن يعترضها أحد، وقد قال في ذلك من يهجو الحجاج:

أسد عليّ وفى الحروب نعامة ... ورهاء تنفر من صفير الصافر

هلَّا برزت إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر

ولكن جيش الأموية قد انتصر في النهاية بعد مصرع شبيب:

قال فاتك: لم يُصرع شبيب في معركة حربية، ومَن الذي يقدر على مواجهة شبيب، ولكن فرسه قد عدا به نحو نهر دجلة، وكانت شطوط النهر منهارة، فزل الفرس بقائده وعليه الدروع الواقية من الحديد الثقيل، فلم يستطع السباحة مع ما يقيده من الأغلال، وجاءه الموت غرقًا في موج البحر لا في خضم الميدان، وتبسَّم الحسن وقال: ما زلت عطوفًا على صاحبك.

فصاح فاتك: إنه الحق يا إمام، وقد دعوتني للحديث فأجبت.

فرفع الحسن يديه يقول: رحم الله مَن أسلم وجهه للحق وهو مذعن، ورحم الله مَن قاتل عن نيه خالصة، وحمية دافقة في نصر الإسلام، وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون، وأذَّن المغرب فأقيمت الصلاة!

❁❁❁

العم الصريع

-١-

دخل عبدُ الله على البصرة مُستخفيًا، وهو يلتفت ذات اليمين وذات الشمال حذرًا من أن تقع عليه عين أحد، وقارن بين يومه وأمسه فبكى، لقد أتى البصرة منذ عامين وهو والٍ على الشام لزيارة أخوية سليمان بن علي وعيسى بن علي، فأرسل من حاشيته عشرة جنود يُعلنون مقدمه قبل أيام، وأخذت المدينة زينتها لاستقباله، فاحتشد علماؤها ورؤساؤها وأولو الشأن بها، وفى مقدمتهم أخوه سليمان بن علي والي البصرة؛ ليكونوا في طليعة المستقبلين في مشارف البصرة، حتى إذا اجتاز أول شارع من شوارعها دوَّت الزغاريدُ، وصفقت الأكف، وتراص الناسُ على الجانبين ينظرون، وتطلعت السيدات والأوانس من النوافذ يتأملن مبتهجات؛ إذ يرون موكبًا لم يعهدنه.

لقد حضر أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين نفسه زائرًا، فما استقبله عمه سلمان بمثل ما استقبل سليمان أخاه منذ عامين، وها هو ذا عبد الله بن علي يفد إلى البصرة خائفًا يترقَّب، وتوحى إليه كل ثنية، ويهجس خاطره في كل منحنى بأن به مَن يرصده ليغتاله! لقد كان يُحارب جيش ابن أخيه أبي جعفر، واندحر مهزومًا على يد أبي مسلم الخراساني، وخاف على نفسه ففرَّ هاربًا، يرفعه نجد ويخفضه وهد، حتى جاء إلى أخويه سليمان وعيسى، وهما لا يزالان على ولائهما لأمير المؤمنين، كي يستشفع بهما لديه، وفى تاريخه الماضي وجهاده الغابر ما يشفع.

وسمع سليمان طرقات خفيفة على حجرته، فعجب أن يجرؤ أحد على إيقاظه بعد أن آوى إلى فراشه، إلَّا أن يطرأ حادث كبير، فنهض قلقًا ليقول له حارسه الأمين: أخوك عبد الله خارج المنزل يطرق الباب.

غرق سليمان في موج مِن التفكير، فهو يعرف أن أخاه قد فرَّ مهزومًا بعد أن تسبَّب في إزعاج ابن أخيه أمير المؤمنين، فهيَّأ له جيشًا ظل يُنازله قرابة خمسة أشهر، حتى انتصر عليه بقيادة أبي مسلم، ولكن بعد ما ذهبت عشرات الآلاف من أرواح المتقاتلين، بل من جنود الخلافة؛ لأن كلَا المتحاربين يفيء إلى ظل أمير المؤمنين، ماذا عسى أن يصنع معه الآن، وليس في طوقه أن يحميه مِن غريمه الأكبر أبي جعفر المنصور!!

لقد أذِن لحارسه أن يفتح الباب، كما أمر خادمًا آخر أن يعجل باستدعاء عيسى بن علي أخيه في أسرع من البرق، ليجد من رأيه ما يعنيه على الاهتداء في معالجة هذه النازلة، وإنها لنازلة حقًّا؛ إذ يعلم مِن شراسة المنصور ما لا قِبل له بفجاءاتها، فمِن الهيِّن عليه أن يُطيح بسليمان وعيسى قبل أن يُطيح بعبد الله، وله حجته الواضحة... أليس عبد الله قد أرَّق عينيه شهورًا ذات عدد؟ ثم لماذا لم يذهب أخوه لتحذيره، وقد دعاهما الخليفة إلى ذلك فاعتذرا بأن الرجل عنيد يركب رأسه، ولن يرجع بعد ما أعد الجيوش، وهيَّأ السلاح! وها هو ذا قد اندحر اندحارًا لا يملك معه أن ينعم بساعة من رقاد.

خرج سليمان ليستقبل أخاه، وما مضت لحظات حتى جاء الأخ الثالث عيسى ابن علي، وكان أهدأ بالًا من صاحبيه، وأربط جأشًا؛ إذ دخل باشًّا يصطنع السرور باللقاء! ويأخذ أخاه الأكبر مُحتضنًا، حتى إذا انتهت لحظات الترحيب لم يتمالك

عبدالله أن قال: لقد لجأتُ إلى البصرة، إذ سُدَّت المنافذ أمام وجهي، وتستطيعان الذهاب إلى أبي جعفر لتبلغاه بيعتي له بالخلافة وهو يعلم مَن أنا؟

قال سليمان: يعلم أنك شققت العصا، وأرقت الدماء في حرب طاحنة، كلفته كثيرًا من الوبال!

فردَّ عيسى يقول: مهلًا يا سليمان، فما جئنا لنناقش عبد الله فيما صنع، ولكننا نلتمس المخرج.

فصاح عبد الله غاضبًا يُوجه الحديث إلى سليمان: كأنك لا تعلم أني الذي وضعت أسس الخلافة، وهيأت الأمر لبني العباس.

أَلَمْ أنتقل في البلاد قبل سقوط الأموية حاملًا رسائل أخي إبراهيم الإمام من الحميمة إلى شيعتنا في فارس متعرضًا لأفدح الغوائل، أَلَمْ أُحارب في جيش عبدالله ابن معاوية العلوي حين ثار على مروان بن محمد، ولم أترك الميدان حتى تفرَّق جنوده وأطبق عليه خصمه، فاتجهت إلى ابن ضبارة قائد الجيش الأموي مستعملًا حيلتي الواسعة لا لكي يصفح عني؛ إذ كان في مكنتي أن أفرّ، ولكن لأحمي أرواحًا كثيرة نعدها لساعة النزال.

فقال سليمان: رفقًا يا أخي، فهذا الكلام لا يُقنع أبا جعفر؛ لأنه سيقول: لقد صنعت أنا أكثر ممَّا صنع، حملت الرسائل من الحميمة، وتعرَّضت للأهوال في سفري إلى خراسان، وقاتلت في جيش عبد الله العلوي، ولقيت من العذاب والضرب ما لم يلقَ عبد الله؛ لأني ثبت وفرَّ!

هاج عبد الله صارخًا: كأنك معه ولستَ معي! ولكن عيسى قد تدخل يقول: كيف نكون عليك يا عبد الله، نحن نلتمس المخرج!

فانفجر الهائج الغاضب يستطرد: أينسى أبو جعفر أني أنا الذي حاربتُ مروان ابن محمد، وهزمتُ جيش الشام، وأخذتُ البيعة لأبي العباس السفاح ممَّن؟ مِن جنود بني مروان، فلَم يبق بعد ذلك معارض.

فأطرق سليمان كالمُفكر، فصاح به عبدُ الله: ماذا تقول فيما سمعتَ؟

فقال سليمان في حذر، وقد انخفض صوته كأنه يحاذر أن يمتد ويعلو، فيسمعه جاسوس من خدم المنزل، يكون عينًا لأبي جعفر دون أن يعلم شيئًا عن خبيئته، قال سليمان: مكثتَ أربع سنوات واليًا على الشام، في أخصب البلاد وأرقاها، ومعك الجيش والمال والعتاد، فأغضبتَ الجميع، ولو تدبَّرت العواقب لكنتَ ذا لين وحنو، ليكونوا عدتك في ساعة الهول، ولكنك بطشتَ أسوأ بطش، وأخذتَ تقتل المُذنب والبريء معًا، وخضعتْ لك الجسومُ لا القلوب، فلمَّا حانت ساعة القتال ظهر الخفاء ولم تجد مِن نصير!!

قال عبد الله في غلظة: هأنذا أشرح طبيعتي، لقد فُطرت على الغلظة في المواقف الحاسمة؛ لأن استمالة النفوس بالعطف لا تجدي فتيلًا أمام العدو، وقد تتبعتُ فلول الأمويين في سوريا لأجعل المعركة حاسمة بعد هزيمة مروان! إن الناس يأخذون عليَّ أني نبشت قبور بني أمية لأحرق العظام البالية، فكشفت بقايا معاوية ويزيد وهشام من حفائرها، وأشعلت النار فيها، وقد وجدتُ جثةَ هشام لا تزال بعظامها فأبرزتها للناس وجلدتها بالسياط حتى تمزقت، كل ذلك فعلته لأنبئ أنصار بني أمية في الشام أنه لا رحمة، وأن مَن يقاوم مِن الأحياء سيلقى أشد النكال، وتابعت فأحضرت مَن عثرت عليه من أبناء بني مروان صغارًا وكبارًا فحصدتهم حصدًا.

قـال سـليمان: لقـد أعطيـت بنـي مـروان الأمـان علـى رءوس الأشـهاد، حتـى اجتمعوا واثقين، وأقمت الولائم ومددت السماط، ثم حضر الطعام وتهيئوا لتناوله فناديت جنودك ومعهم سيوفهم الباترة، ليحصدوهم حصدًا، والناس ينظرون، فأين احترام العهود والمواثيق؟

تبرّم عبد الله مغيظًا، وقال لسليمان: أتحاسبني؟ كأنَّك لا تعرف أن الملك جبار غشوم! ولا عهد يحترم لعدو!

قال موسى: لا تعلن ذلك بعد الآن، فأنا أخشى أن نذهب إلى أبي جعفر ونستشفعه فيقول: الملك جبار غشوم ولا عهد لمن نابذني وجمع الجموع ليقتلني، وأخذ لنفسه البيعة.

هنا تدخَّل عيسى بن علي وقال: على رِسْلك يا سليمان، فأبو جعفر منَّا ونحن منه، وسنحتال عليه بشتَّى الحيل ولا بأس!

نظر عبد الله نظرات القلق، ثم قال: لقد كان الموت أهون مِن فراري حتى أضطر إلى ما أنا فيه، أنا أعلم مكيدة أبي مسلم لي عند المنصور، وقد شنَّع علي بما كان، وبما اختلق ممَّا لم يكن.

ابتسم عيسى وقال في هدوء: اعلم يا عبد الله أن المنصور لا يطيق أبا مسلم ولا يطيقك، كما لا يطيق مَن يظنه يطمح لولاية الأمر، حتى مِن بعد موته، أتراه سيبقي العهد لعيسى بن موسى، وهو الآن يده اليمنى، إنه سينتظر حتى تهدأ العاصفة وينقض العهد أمام الناس، ثم يحوله إلى نجله الكبير! إذا كنت لا تعرف أبا جعفر فأنا أدرى به منك! لقد علمت أنه قال لبعض خواصه: لقد بعثت أبا مسلم الخراساني لمحاربة عبد الله بن علي، وكلاهما لعين مقيت، وأيهما انتصر فسيكفيني صاحبه، فأتفرغ لواحد بدل أن أتفرغ لاثنين!

قال عبد الله: لقد توهَّمت ذلك حتى اعتقدته، ولكن كيف لم تظهر هذه الخديعة لأبي مسلم وهو داهية جبار!

فردَّ عيسى يقول: لندع أمر أبي مسلم الآن، ولنفكر في الذي سنصنع تجاه عبدالله!!

قال عبد الله: سأختفي في مكان بالبصرة تعرفانه وتحددانه، دون أن يعلم عنه أبو جعفر شيئًا، ثم تذهبان إليه تستشفعان، وتأخذان عليه أشد المواثيق، فإذا صفح نهضت معكما للقائه!

أطرق عيسى كالحائر، ثم قال في روية: لقد طرأت لي فكرة، هي أننا نقول إننا نحن اللذان استدعيناك، وقد أجبت بعد تردد كبير، نزولًا عند رغبتنا بعد أن جمعت حشدًا كبيرًا من أهل سوريا، واستعددت لمعركة فاصلة أخرى، بعد مسير أبي مسلم ورحيله دون أن يستطيع القبض عليك، إذ إن حرصنا على رأب الصدع قوي شديد، وهنا نُمهِّد لقبول الشفاعة؛ لأن أبا جعفر لا يزال في حيرة من أمرك بعد نجاتك، ولا يدري ماذا ستصنع؟

قال عبد الله في سرور: هذا أجمل ما سمعت، ولكما أن تبحثا عن مأوى آمن أنتقل إليه قبل أن يبزغ نور الفجر، ثم تذهبان معًا إلى أبي جعفر المنصور، ولا أوصيكما، فأنتما تدريان مكايدة الخاتلات.

- ٢ -

فُوجئ المنصورُ بِعَمَّيْهِ سليمان وعيسى يلتمسان الإذن، فأدرك بحاسته اليقظة أنهما على علم بأمر عبد الله، وأنهما لا يأتيان معًا إلَّا وقد حادثاه أو راسلاه، واتفقوا جميعًا على رأي، ولكنه كتم ما في نفسه وأسرع يقول:

كنتُ على أن أُرسل لكما، لأني لا أُحب لِعمي عبد الله أن يظل شريدًا تائهًا في البلاد، وقد يقع في أيدي أعدائنا، فيشتمون به وبنا، وعليكما أن تُرسلا إليه في أي

مكان تتوقعان نزوله به، أو في عدة أمكنة، فإذا أذعن وأطاع وقام بالبيعة على ملإٍ من الناس في المسجد الجامع هنا فهذا ما يكفيني، ولن أسيئه بشيء، فأثره في استتباب الأمر لبني العباس لا يُنكر، وإذا عاقبته على ما اقترف فقد عاقبت نفسي!

سُرَّ الرجلان كثيرًا بما سمعا، ثم تجرأ سليمان فبدأ الحديث شاكرًا لأبي جعفر سعة صدره وسماح نفسه، وقال: لقد أتينا لنُخبرك أن الذي كنتَ تودّه مِن مُراسلتنا لعبد الله قد قُمنا به منذ رجع أبو مسلم منتصرًا بتأييد أمير المؤمنين، وقد استطعنا أن نصل رحمك ورحمه معًا، فأصررنا على أن يجيء مُعتذرًا بعد أن تُعطيه الأمان!

فقال أبو جعفر: أَمِثْل عبد الله عمِّي في حاجة إلى أمان مني؟ أهو مِن الديلم أَم الترك أَم البربر؟ أهو مِن بني أمية الذين أراقوا دماء بني هاشم، إنه أبو العباس عبدالله بن علي، عم أمير المؤمنين الراحل وعم أمير المؤمنين الباقي.

قال سليمان: ولكنه يُريد كتابة عهد مُوثَّق حتى يتشجَّع ويقدم.

فردَّ أبو جعفر: اكتبوا ما شئتم مِن العهود وعليَّ التوقيع.

وقد رأى أبو جعفر أن يُطيل الحديث فيما يسُر عميه، فقال: أنا في حاجة إلى أبناء العباس جميعًا، فأبو مسلم يتربَّص بي، ومعه جيش خراسان ومَن يلتف به مِن وراء النهر، وأبناء علي يجمعون الناس فيهرعون إليهم؛ لأنهم لا يزالون أصحاب الثأر، ثأر علي وثأر الحسين، وللقلوب تعلُّق بهم يقوى ولا يضعف، بل إني أعرف أن كثيرًا ممَّن يلتفون حولنا الآن يودُّون لو استقام الأمر للعلويين، ويعدوننا مغتصبين، أفأواجه هذه الكوارث وحدي، لا بد أن تكونوا معي جميعًا وفي المقدمة عمِّي عبد الله!

فرأى الأخوان أن يستأذنا شاكرين، وقد أعلنا أنهما سيُرسلان عهد الأمان إليه ليُوقِّعه، وعند ذلك سيحضرون هم الثلاثة للقاء أمير المؤمنين، وهم جنوده ومؤيدوه، وانصرفا إلى البصرة، وقد هدأتْ نفسُ أبي جعفر وارتقب الغد القريب.

كان عبد الله أكثر احتيالًا وأمعن ظنًّا من أخويه، فحين رجعا ليُحدِّثاه عن شجون أبي جعفر نحو أعدائه الذين يتربَّصون به الدوائر قال في نفسه: إن أبا جعفر يُظهر غير ما يُبطن، وإنه يعدّ عمه عبد الله أكبر أعدائه، ولكنه فكَّر فرأى أن لا سبيل للنجاة منه غير أن يكتب عهد الأمان، وإن يقدم عليه كالنادم المُستغفر، ومعه عقله الذي يهديه إذا التبست الأمور.

وتساءل القوم: مَن سيكتب عهد الأمان فيحكِمه إحكامًا لا شك في توثيقه، ولم يكن أمامهم غير الكاتب الداهية عبد الله بن المقفَّع، وهو بعد كاتب عيسى ابن علي، وله خبرة دقيقة بكتابة العهود وإبرام المواثيق، أليس هو أديب الفُرس الذي طالع عهود الأكاسرة وتملأ منها؟ أليس هو صاحب العقل الجبَّار الذي يرصد هاجسات المعاني المُستترة في الأعماق، فيجلوها أبرع جلاء في مشارق الضياء، إنه ابن المقفع فليحضروه.

ولأول مرَّة في تاريخ ابن المقفَّع يغيب عنه حرصه الدقيق، وفطنته المحاذرة، ويغرُّه ثناء سليمان وعيسى وعبد الله، وتقديرهم لمكانته الأدبية وحنكته السياسية، فيعدهم أنه سيكتب في عهد الأمان ما لا يخطر لأحد على بال، أجل، لقد غاب عن الكاتب اللبق حرصه الدقيق حين أرهق أبا جعفر وأوجعه وأمضه بمثل ما تورَّط فيه، حين قال فيما كتب على لسان أبي جعفر الذي سيُوقِّع العهد ويُعلنه في الناس: «... وإن أنا نلت عبد الله بن علي، أو أحدًا ممَّن قدم معه، بصغير من المكروه أو كبير، أو أوصلت إلى أحد منهم ضررًا سرًّا أو علانية، على أية وجوه أو أسباب

تصريحًا أو كناية، أو بحيلة من الحيل، فأنا نفي من محمد بن علي بن عبد الله، ومولود لغير رشدة (أي من سفاح)، وقد حل لجميع أمة محمد خلعي، وحربي، والبراءة مني، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين، ولا عهد ولا ذمة، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي، وإعانة من ناوءني من الخلق، ولا مولاة بيني وبين أحد من المسلمين، وألقى ربي على غير دين أو شريعة، حرام على مركبي وملبسي وملكي وأهل بيتي».

هذا بعض ما كتب الرجل، وقد كان في دونه ما يكفي؛ لأن المبالغة المفرطة في مثل نفي أبي جعفر عن بني العباس وعده مِن سِفاح، ووجوب الثورة عليه وخلعه، وكفره إذا نكص بالعهد، وتحريم زوجاته وملكه ومماليكه، هذه المبالغة تدفع إلى الحفيظة، لدى إنسان رقيق متسامح، فكيف بحاكم قاس طاغية كأبي جعفر المنصور.

لقد أراد ابنُ المقفع أن يرضي ذئبًا، وما علم أنه سيقع في براثن أسد هصور، سيطحنه طحنًا بمخالبه وبراثنه، وهذا ما كان، إذ قُتل عبد الله أعنف قتلة بتدبير أبي جعفر، فذهب ضحية إخلاصه عند قوم، وضحية غفلته عند آخرين.

لم تتم للمنصور مقلة ليلة قدوم عمه عبد الله بن علي عليه، فهو يعلم أنه ماكر داهية، يعتقد أن الأمر له وحده، وأن أبا جعفر قد اغتصبه؛ إذ سبق أن أعلن أبو العباس مؤسس الدولة أن مَن يهزم مروان بن محمد سيكون ولي عهده، وقد هزمه عمه علي، فأصبح صاحب الحق بما قدَّم من جهد شاق، لا في استئصال شأفة مروان وحده، بل في استئصال بني مروان جميعًا، ولأمرٍ ما عدل أبو العباس عنه، وجعل الولاية لمنصور، كي يظل الحكم في بني أبيه، لا في بني جده، يعرف أبو جعفر هذه الحقيقة التي إذا أرقته مرَّة فقد أرقت عبدالله بن علي مرات، وليس بعد من القناعة

بحيث يرضى بما دون الخلافة، وقد سئم الكثيرون حكم أبي جعفر، لكثرة ما قتل وعذَّب وصادر ونفى وحبس، وقد يميلون إلى عبد الله مع علمهم ببطشه، حبًّا في التغيير واستراحة من شخص لشخص! إن الموقف جلل، فلا قرار على زأر من الأسد.

سهر أبو جعفر طيلة ليله، حتى إذا أشرق الصباح وفد عمُّه في ملإٍ من بني العباس، يتقدمهم أخواه سليمان وعيسى، وقد قرءوا عهد المنصور، ورأوا توقيعه، فخفوا يشكرونه على تسامحه، واستمع الخليفة لِما قيل، ثم رأى أن يُقيم عبد الله في منزل قريب مِن منزله، وعليه حراسه وعيونه، إلى أن تصفو النفوس فيرَى رأيه.

ولكن أي رأى يراه المنصور؟ إنه يريد أن يُمهِّد الأمر لولده محمد المهدي من بعده، مع أن ولي عهده الرسمي هو عيسى بن موسى الذي كان ولي عهد أبي العباس، ثم أخر مرغمًا ليتقدمه أبو جعفر، هو إذن أمام عقبتين لا عقبة واحدة، أما أولاهما فقُرب عبد الله من إدارة الحكم، وأما الثانية فوقوف عيسى بن موسى حائلًا دون ولاية المهدي، فلماذا لا يضرب أحدهما بالآخر فيهلكان!؟

ولكن كيف يتم ذلك!؟ لقد دعا أبو جعفر عيسى بن موسى، فقال له في مودة: إن الخلافة صائرة إليك ولا آمن عليك عبد الله بن علي، ونصيحتي الخالصة أن تحتال للخلاص منه، فهو وحيد أعزل في منزله لا يملك قوة تحميه! وأنا ذاهب إلى مكة في موسم الحج، وستكون صاحب الأمر في بغداد مدة اغترابي، والوقت فسيح لتعمل.

فتظاهر عيسى بن موسى بالقبول، وخرج يُدبِّر الأمر في نفسه، فجعل يقول: متى كان أبو جعفر مُهتمًّا بأمري، حتى يشفق من وقوف عمه في وجهي، إنه زحزحني عن الخلافة حين أشار على أخيه من قبل فأجابه، وهو الآن يدبر

المكيدة ليزحزحني عنها، كي يليها ولده محمد؟ ثم خلا بمَن يثق بمشورته، فعرض عليه الأمر، وكان لبقًا داهية، فقال له مُحذِّرًا: إن أبا جعفر أمرك أن تقتله، وكان أمره سرًّا بينك وبينه، حتى إذا فعلت جمع بني العباس وألصق التهمة بك، فيستشيطون غضبًا، ويطلبون القصاص، ولن يكون إلَّا بقتلك، وبذلك يخلص الأمر للمهدي دون منازع ما، فعليك أن تذهب بعبد الله إلى مكان خفي لا يعلمه أحد، فإذا سألك المنصور عنه فقُل إنه ارتحل إلى غير عود، وكان المنصور قلقًا، فأرسل مِن مكة حافظ سِرِّه ليسأله عن خاتمة عبد الله، فحدثه أن الأمر قد تم.

عاد أبو جعفر من حجِّه، فكان أول ما صنعه أن بعث إلى سليمان بن علي وعيسى بن علي، وقال لهما: لقد رجعتُ من الحج مُنيبًا خاشعًا، وأنتم أهل، ولا بد أن أُطلق أخاكما عبد الله! لأن المقدرة تذهب الحفيظة، ثم نادى عيسى بن موسى في جمع من بني العباس! وقال: كنتُ دفعتُ إليك عمِّي وعمك عبد الله بن علي ليكون في منزلك، وقد كلَّمني عمومتك فيه وتشفَّعوا، فصفحتُ عنه، فأتنا به!

فتظاهر عيسى بالدهشة، وقال: ما هذا يا أمير المؤمنين، أناشدك الله، ألَمْ تأمرني بقتله.

فصرخ أبو جعفر: لا حول ولا قوة إلَّا بالله لم آمرك بهذا.

قال عيسى: بل أمرتني.

فاصطنع أبو جعفر الغضب وقال: ما أمرتك إلَّا بحبسه، وقد كذبتَ عليَّ وغدرت بعمِّي، لحاجة في نفسك، ثم التفتَ إلى سليمان وعيسى وقال في حدَّة: لقد أقرَّ هذا بقتل أخيكم، فإن شئتم القصاص فهو حُكم الله!

وهاج القوم، وسيق عيسى بن موسى في قبضتهم ليكون الانتقام علنيًّا، وهمَّ أحدُهما بتقديمه للسيف، حيث الجلَّاد معهم فقال عيسى: أتريدون قتلي؟

قالوا: نعم، قال فردُّوني إلى أمير المؤمنين قبل مصرعي، فانطلقوا به إلى المنصور، فصاح عيسى في غضب: عمك حيّ عندي يا أمير المؤمنين، وقد أردتُ بقتلي إياه، أن تقتلني به!

فقال المنصور مُرتبكًا: إذن فأحضره.

فذهب عيسى في ركب مِن بني العباس فأحضر عبد الله، وواجه المنصور فكتم غيظه، وقال: لا تُصدِّقه يا عم، فهو كذوب، لقد هيَّأت لك منزلًا خاصًّا بك، ولا تُكلِّمه بعد الآن أنت وأخواك.

قال الراوي: وكان المنصور قد بنى بيتًا جعل أساسه من الملح، وتلك من مُبتكراته الفريدة، فلما أقام به عبد الله: أجرى الماء من أساسه، فذاب الملح وسقط المنزل فجأة ومات علي!!

❁❁❁

أبو جعفر يحجّ

شخص أبو جعفر المنصور إلى مكة حاجًّا، ومضى ركبُه يخب في الطريق، وفي مقدمته مَن يقول: ركب أمير المؤمنين أبي جعفر، فيُسرع الناس هاربين، وكأنهم أمام نار متأججة تهم بالاندلاع في شتَّى الجهات، لقد نظر الخليفة إلى هؤلاء فأخذته غاشية من الوجد، وجعل يسأل نفسه: ماذا أفدت من خلافتي ورئاستي، ولا أحد يودّ أن يراني، لقد كان ممَّا أهفو إليه أن أُرزق محبة الناس، فيتحدثوا عنِّي كما يتحدثون عن أبي بكر وعمر وعلي وعمر بن عبد العزيز، ولكني أسهر الليل في تدبير الأمور، وأقضي النهار في شئون الحكم، ولا آكل غير ما يأكله الناس، ولا ألبس غير ما يلبسون، بل في الكثرة من المسلمين من يتذوق طعامًا لا أتذوقه، ويفخر بملبس لا أرتديه! ثم أجدني بعد ذلك مصدر فزع لمَن ألقاه! ماذا كسبت من الخلافة إذن؟

ثم أطرق إلى الأرض يعرض ذكرياته منذ نشأ بالحميمة في ديار الشام، إلى يومه الراهن، فتذكَّر كيف لقى السجن والعذاب في عهد بني أمية، إذ اتَّهمه حبيب ابن المهلب ثم أوجعه ضربًا، ثم اتهمه ولده سليمان فجلده بالسياط وحبسه، حتى إذا قامت الدولة العباسية لم يجد في ظلها قليلًا من الأمن، لقد تعددت الثورات من الأقارب والأباعد معًا، فما مضى من عام دون أن يرتاح بنبأ مفزع يهيئ له العدد ويسوق الجيوش، لقد نازل بني أمية من أعدائه، ثم نازل عمه عبد الله، وأبناء عمومته من العلوية، في معارك يشيب لها الولدان، ونازل أبا مسلم وأتباعه الذين ثاروا لمصرعه، وتتابعت الثورات شرقًا وغربًا، فما استطاع النهوض لها إلَّا

بالسهر والعرق والاحتيال، وبعد ذلك كله لا يهنأ بإمارة المؤمنين، بل يكون في نظر الأكثرية أسدًا كاسرًا يتحفز للوثوب، فهم يهربون منه مخافة شره، ولو أمكنهم أن يصرعوه لفعلوا، حتى حاشية الخليفة، تطيعه لنفعها الخاص، وتدور في فلكه، لا يجد فيها النصيح المُشفق، بل المُتملِّق المداهن: أي حياة هذه؟ وما مكسبه ممَّا هو فيه؟

ثم وصل الركب إلى مكة، فنزل الخليفة حيث تعوَّد أن ينزل، ونهض إلى طواف القدوم، وكان البيت مزدحمًا بالناس، جاؤوا من كل فج عميق، ليقضوا مناسكهم، ويفيضوا من حيث أفاض الناس، فلمَّا علموا بمقدمه هرولوا مسرعين وخلا البيت فجأة من قاصديه، كأنهم توقَّعوا صاعقة تنزل عليهم فأسلموا أنفسهم للفرار، لماذا هرول هؤلاء؟ لقد سمعوا عنه ما يفزع ويروع، وعرفوا من حاشيته ما يهول من الوقيعة والافتراء، فآثروا السلامة، ونكصوا مدبرين!

تابع الخليفة وجومه، وأدَّى مناسك اليوم الأول في ضيق، وتظاهر بالنشاط، فقابل عليةَ الناس من الولاة والعمال، وأمر ونهى، وصلب ولان، وحاسب وغاضب، وأسرَّ وأعلن، ثم انتهى اليوم، فرجع إلى مقره لينام بعد أن صلى العشاء الأخيرة، ولكن هل نام أبو جعفر حقًّا؟

إن شجونه التي أرسلت سحابتها أمام عينيه طيلة يومه، كرَّت عليه في مخدعه ثانية، وكان أقسى ما يعالج من الشجن حين أخذ يتساءل بينه وبين نفسه، لماذا هرب الناس منِّي وتركوا الطواف!

تعاصى النوم على أبي جعفر، فدعا الربيع بن يونس وزيره، ولم يشأ أن يفضي له بما يختمر في نفسه، ولكنه قال: يا ربيع، عنّ لي أن أزور معك البيت متخفيًا، نلبس ملابس العامة، ونرى الأفواج دون حذر.

قال الربيع: وماذا سترى يا أمير المؤمنين؟ موج يموج في موج، وحشود تضج بالتلبية والتهليل.

قال المنصور: هيَّا، فلا مجال للاعتراض.

وتنكَّر الرجلان في أسرع من لمح الطرف، وانطلقا تحت ستار الليل، وجلس المنصور غير بعيد من الكعبة يرى اللج المتراكب، ولكنه دُهش حين صاح صائح: الإمام سفيان الثوري! الإمام سفيان الثوري!

فوقفت الجموع، وانفسح الطريق فرقتين، وأقبل سفيان المهيب يطوف مستأنيًا والقوم يرمقونه خاشعين، حتى إذا انتهى من طوافه تدفَّق الموج كما كان.

ونظر أبو جعفر للربيع متعجبًا! ثم قال: أي مقدرة للثوري جعلت الشامي والمصري والعراقي والحجازي واليمني والخراساني، وكل مَن جمع الحرم، يفسحون له الطريق مُرحبين، لقد جئنا للطواف فذُعر الناس وتفرَّقوا، وما شعرت أن طائفًا من القوم يريد أن يتطلع إليّ.

قال الربيع: وماذا يهمك من هؤلاء! سوقة وذيول.. فضربه أبو جعفر بقبضة يده على كفِّه سائلًا: ومَن نحكم غير هؤلاء!؟ أجب يا ربيع.

فوجم الربيع مأخوذًا، فصاح به المنصور: لِم لا تنطق؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن العالم المحدث من أمثال سفيان، يُذكر الناس بالأنبياء؛ لأن العلماء ورثة النبوة، وقد طاف الأوزاعي اليوم فقُوبل بمثل ما قوبل به سفيان، بل إن سفيان كان يتقدمه قائلًا: الإمام، الإمام! وقد سمعت بأذني جماعة تتحدث في سرور: رأينا سفيان والأوزاعي وعمرو بن عبيد نجوم السماء.

قال أبو جعفر: وهل حج عمرو بن عبيد هذا العام؟

قال الربيع: جاءتني الأنباء بأن هذا العام هو موسم الفقهاء، حيث يحج أبو ذؤيب ومالك بن أنس والأوزارعي وأبو حنيفة وعمرو بن عبيد! وكلهم عند العامة من أئمة الإسلام.

قال أبو جعفر: وعندي أيضًا، وسأعمل على لقائهم واحدًا واحدًا، فقد أجد لديهم غير ما أجد لديكم، ومن الغد إن شاء الله فاعمل على إحضارهم من الساعة.

ولم تغمض للمنصور عين في هذه الليلة، فقد رجع بذاكرته إلى عهد الصبا حين كان يُهيئ نفسه أن يكون عالمًا دينياً كبيرًا، ألم يجلس أمام الزهري وعطاء ابن يسار ومنصور بن عمار لتلقي العلم؟ ألم يكن من زملائه التلاميذ إذ ذاك: عمرو بن عبيد وسفيان الثوري والأوزاعي ومالك بن أنس وسليمان الخواص؟ ثم ها هي ذي الأيام تتوالى، ويصبح أمير المؤمنين بعد هول هائل في الجهاد والتآمر وإشعال الحروب، وقد ظنَّ أنه تبوأ المنازل العليا في النفوس، ولكن الواقع لا ينبئ عن أي منزلة حقيقية، منزلة تحيطها القلوب، وتفديها الأرواح، لا منزلة رسمية تظهر المودة خوفًا، وتُخفي البغضاء سخطًا، أما زملاؤه في حلقات العلم فقد تبوءوا تلك المنزلة التي رامها. فحفت بهم القلوب، ونبضت بحبهم المشاعر، وتطلعت نحوهم الأحاسيس، ولم يكابدوا هول التآمر، ولم يصطلوا بجحيم الحروب، فمَن الكاسب إذن، هو أم هم؟ لو ملك من أمره ما مضى لما آثر لنفسه هذا الملك المزعج الذي يضطر لحمايته بالسهر والشك والحرص وسوء الظن، ولصبر على تلقي دروس الحديث والفقه ليصبح إمام الناس عن مودة، لا أمير المؤمنين عن قهر واستبداد.

هكذا جعلت هذه الخواطر تدور في نفس أبي جعفر المنصور حتى أذن الفجر ونهض للصلاة.

ثم نادى الربيعَ بن يونس، فقال له: ماذا صنعت؟

فردَّ الربيع يقول: لقد أوفدتُ من طلب القوم إلى الحضور اليوم، وسيكونون لديك عند الضحى، وما أدري ما سيكون دوري معهم.

فأجاب المنصور: يا ربيع، هؤلاء علية الناس، وإن لم يكونوا عندي بمنزلة سواء، فأنا أرعى حقوق زملائي في الطلب: عمرو بن عبيد، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والأوزاعي، وهؤلاء يدخلون إليَّ فور حضورهم الواحد تلو الآخر، أما أبو حنيفة وأبو ذؤيب فأنا أعرف مكانتهما العلمية، ولكن لا أحمل لهما من المودة ما أحمل لهؤلاء، فافهم ذلك جيدًا.

ثم طلب المنصور ما وفد إليه من الرسائل، وما ارتفع من الشكايات، وما تأدى لعيونه من الأخبار، فجعل ينظر في ذلك كله غير مُنتظر، ليفرغ للقاء الأئمة، حتى إذا ارتفع الضحى توافد الشيوخ، وكان أسبقهم عمرو بن عبيد، فسارع الربيع ابن يونس بإدخاله في أدب، ونهض المنصور من مجلسه ليعانقه والوزير متحيّر دهش؛ إذ لا عهد له بنهوض الخليفة لزائر من كرام بيته وذي رحمه، فما له ينهض ويحتفل؟

لقد بدأ أبو جعفر فسأل عن أبناء عمرو، فسماهم واحدًا واحدًا، كأن مقارعة الأحداث لم تنسه أسرة صديقه القديم وقد شطت بينهما الأيام، فأجاب عمرو في غير تكلف ولا احتمال، فتخاشع المنصور وقال لصاحبه: عظني يا أبا عثمان.

فقال عمرو: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي

لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[1].

وكان صوت أبي عثمان معبرًا يُفسر معاني الكلمات بارتفاعه وانخفاضه، فتأثر أبو جعفر وتساقطت دموعه، كأنه لم يسمع آيات الفجر إلَّا من فم عمرو ابن عبيد، ثم قال: زدني أبا عثمان.

فانطلق عمرو يقول: «إن الله أعطاك الدنيا بأثرها فاشتر منه نفسك ببعضها، واعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد غيرك ثم أفضى إليك، وسيخرج منك إلى مَن يأتي بعدك، وإني أحذرك ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة» فارتاع المنصور وجعل يبكي.

هنا تدخَّل الربيع بن يونس[2] فصاح: رفقًا بأمير المؤمنين، فقد أتعبته يا أبا عثمان منذ دخلت.

فرفع عمرو رأسه وقال: مَن أنت؟ فقال أبو جعفر: هذا أخوك الربيع ابن يونس، فقال أبو عثمان: هذا أخو الشيطان، ويلك يا ربيع، خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين، ثم أردتَ أن تحول بينه وبين مَن أراد نصيحته.

ثم اتجه إلى أبي جعفر يقول له: «يا أمير المؤمنين، إن هؤلاء اتخذوك سُلَّمًا لأهوائهم، فأنت كآخذ بالقرنين وغيرك يحلب، فاتق الله فإنك ميت وحدك، ومُحاسب وحدك، ومبعوث وحدك، ولن يُغني عنك هؤلاء من ربك شيئا».

فسكت المنصور قليلًا ثم سأل: هل لك من حاجة يا أبا عثمان؟

---

(١) سورة الفجر، الآيات (١-١٤).

(٢) في بعض الروايات أن الذي حضر اللقاء سليمان بن مجالد، وهو الذي أجاب ابن عبيد.

قال: نعم، قال: ما هي، قال: لا تبعث إليَّ حتى آتيك، قال: إذن لا نلتقي، قال: عن حاجتي سألتني فأجبت، ثم نهض مودعًا، فلمَّا ولَّى أتبعه المنصور بصره وكأنه يستبقيه.

قال المنصور للربيع: أرأيت؟ فقال الربيع: عجبًا، لم يسأل لنفسه شيئًا وقد عرضت! فردَّ الخليفة: مَن يدلي بهذه النصائح يا ابن يونس لا يسأل أحدًا إلَّا الله.

ثم سأل: ومَن أتى بعد أبي عثمان؟ فقيل: الأوزاعي، فعجل المنصور يقول: أدخلوه..

وما كاد الأوزاعي يقدم حتى نهض المنصور لاستقباله، فعانقه وأجلسه جواره، ثم قال له: ما الذي أبطأ بك عنِّي يا أوزاعي؟ فقال: وماذا تريد منِّي يا أمير المؤمنين؟

فردَّ المنصور: أريد الأخذ عنك.

فقال الأوزاعي: أنت تعلم ما أعلم، فهل عملت بما علمت؟

قال: ولكني أريد أن أسمع منك!

فاعتدل الأوزاعي، وطفق يقول: إنك يا أمير المؤمنين لحقيق عند الناس أن تقوم فيهم بالحق، لا تغلق دونهم الأبواب، ولا تقم عليك دونهم الحجاب، بل تبتهج بالنعمة عندهم، وتبتئس لما أصابهم!

يا أمير المؤمنين لقد صرت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس، فلكل نصيبه من عدلك، فكيف إذا اتبعك منهم جماعة خلف جماعة ليس فيهم أحد إلَّا وهو يشكو بليَّة أو ظلامة، لقد كان عمر بن الخطاب يقول: لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات لخشيت أن أُسأل عنها، فكيف بمن حرم العدل وهو على بساطك؟

ثم اعلم يا أمير المؤمنين لو أن ثوبًا من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لأهلك الناس ريحه، فكيف بمَن تقمصه؟ ولو أن دلوًا من صديد أهل النار صُب على ماء الدنيا لجعله يغلي نارًا، فكيف بمن تجرعه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وُضعت على جبل لأذابته، فكيف بمن يُسلك فيها ويُرد فضلها على عاتقه؟

فأطرق المنصور ذاهلًا، ثم قال: ألك حاجة يا أوزاعي؟

قال: حاجتي أن تعدل بين الناس، ونهض.

قال الربيع: أفلا تكتفي بهذين يا أمير المؤمنين؟

فصاح به: ألم أقل لك هذا يوم العلماء، هيا إذن!

تطامن الربيع وقال في خشوع: الكلام متشابه يا أمير المؤمنين، وما قاله عمرو قاله الأوزاعي مضمونًا لا لفظًا، وربما قاله مالك وأبو حنيفة وأبو ذؤيب وسفيان، فما الجدوى؟

فسكت المنصور ليقول: لن أطلب وعظًا بعد هذين، وسأسأل في أمور أخرى كيلا يتشابه الحديث، انظر من بالباب وأدخله.

فأقبل مالك بن أنس، فقام المنصور مسلمًا، وقال في صوت ممتلئ: يا مالك، والله الذي لا إله إلا هو يا أبا عبد الله ما كان لي رأي في ضربك بالمدينة يوم محمد بن عبد الله، ولعن الله جعفر بن سليمان فقد أتى ما استنكرته، يا أبا عبد الله ما زال أهل الحرمين بخير ما دمت بين أظهرهم، وأنت أمان لهم من عذاب الله وسطوته، وإنهم أسرع الناس إلى الفتن، وأضعفهم عنها، وقد أمرت بجعفر بن سليمان أن يؤتى إليَّ مكرهًا ممتهنًا لأعاقبه عقابًا شديدًا، جزاء ما صنع بك.

قال مالك: عافى الله أمير المؤمنين، وأكرم مثواه، لقد عفوت عنه، لقرابته من رسول الله ﷺ ثم منك!

قال أبو جعفر: وأنت فعفا الله عنك.

قال مالك: ثم تناقشا في حديث العلم والعلماء، فلم أجد المنصور قد نسي شيئًا مما ألم به في مجالس الطلب بالكوفة حتى بهرني، ثم قال في نصح: يا أبا عبد الله لا أجد لهذا العلم سواك، فدوِّن فيه كتابًا، وتجنَّب شدائد عبد الله بن عمر، ورخص عبد الله بن عباس، وشواذ ابن مسعود، واقصد إلى وسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضوان الله عليهم، لتحمل الناس على كتبك ونبثها في الأمصار، ونعهد إليهم ألَّا يخالفوها، ولا يقضوا بسواها.

فقلت في تؤدة، أصلح الله أمير المؤمنين، إن أهل العراق لا يرضون قولنا، ولا يرون في علمهم رأينا.

فردَّ أبو جعفر: إنما يحملون عليه، ونضرب هاماتهم بالسيف، ونقطع طي ظهورهم بالسياط، فتعجل بما أشرت يا مالك.

فرد الإمام يقول: أرى أن الأصول متفق عليها، ولا اختلاف فيها، والفروع اجتهاد لا يلزم أحدًا ما دام لديه دليله، وسأكتب الكتاب ليقرأه الناس، ولكن دون إلزام، فمَن خالف فلديه دليله، وبالله السداد.

قال أمير المؤمنين: وبماذا تُسمي كتابك؟

قال: أسميه (الموطأ) إن شاء الله.

فهش أبو جعفر، وأمر لمالك بكسوة وبألف دينار ذهبًا، ولابنه بألف، وخرج مبجلًا مهيبًا.

قال الربيع لأبي جعفر: ما أراك صنعت لأحد ما صنعت لعالم المدينة.

فصاح المنصور: ليس من شأنك، هذا فقيه الإسلام اليوم، ثم أمر بإحضار من بقي من العلماء جميعًا، في مجلس واحد!

فحضر أبو ذؤيب وأبو حنيفة وسفيان! فقابلهم الخليفة في تحفّظ، ولم تنفرج أساريره على نحو ما كان مع مالك، ثم اتجه إلى سفيان الثوري فقال له: ألك حاجة يا سفيان؟

فردَّ الثوري في شمم: حاجتي أن أسالك عمَّا تصنع بمال الله وأموال المسلمين، وقد أنفق عمر بن الخطاب في حجةٍ له ستة عشر دينارًا هو ومَن معه، ثم التفت إلى أصحابه وقال: لقد أجحفنا بيت المال، فكم أنفقتَ في حجتك هذه؟

فبادر أبو جعفر يقول: تعلم أنت يا سفيان أن الزمن غير الزمن، ويعلم الناس جميعًا أنني ضنين ضنين شحيح!

قال سفيان: ضنين جدًّا على الناس، وأولى أن يأخذوا من خير الله، وإذا ضننتَ فإلى مَن يلجئون؟

اذكر يا أمير المؤمنين أنك كنت معي في مجلس منصور بن عمار، وقد حدثنا أن رسول الله ﷺ قال: رُبَّ متخوص في مال الله كما شاءت نفسه، له النار غدًا.

قال أبو جعفر: كفى ما ذكرت، أو لك حاجة؟

فهتف سفيان: كلَّا يا أمير المؤمنين.

فقال له: إذن فانهض راشدًا.

فخرج سفيان واتجه أبو جعفر إلى أبي حنيفة فقال له: لماذا رفضت القضاء يا شيخ؟

قال أبو حنيفة في جرأة: لو علمت أن حكمي عليك سيُطبَّق ما تأخرت؟

قال: ومن أدراك أني أخالف حكم الله؟

قال أبو حنيفة: عمالك في البلاد يخالفونه، وتعلم ذلك، ولا تصنع شيئًا!

قال أبو جعفر: لقد خرجت مع أهل المدينة يوم محمد، وكانوا قد عقدوا لي المواثيق أن يلتزموا السكينة، فإذا خرجوا عليَّ فلي أن أقتلهم وأبيدهم؟ وقد نقضوا العهد، أفلا يحلّ لي أن أقتلهم كما تعاهدوا؟ قُل يا شيخ!

قال أبو حنيفة: لا يحل لك، فقد أعطوك ما لا يملكون، أرأيت لو أن امرأة أعطت نفسها لرجل دون شاهدي زواج، أفيحل ذلك؟

قال أبو جعفر: لا يحل الزواج دون شاهدين.

قال أبو حنيفة: هذه من تلك.

فعبس أبو جعفر وقال: انصرف يا شيخ فأنت تتعبنا بقياسك!

فخرج الإمام مرفوع الرأس.

وبقي أبو ذؤيب، فقال له: لَم يبق غيرك، وقد أبقيتك وحدك لتقول في صراحتك التي أعهدها فيك أيام الطلب، أي الرجال أنا؟

قال أبو ذؤيب: السكوت آثر يا أمير المؤمنين.

فردَّ الخليفة: ناشدتك الله أن تقول.

فقال أبو ذؤيب: أما إذا ناشدتني الله، فأنا آكل أمري إليه حين أُصرح أنك قد استأثرت بمال الله ورسوله، وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين، وأهلكت الضعيف وأتعبت القوي.

قال أبو جعفر: أوما تراني أسعى في إعزاز الدين وحماية الإسلام؟

فرد أبو ذؤيب: هو ما سمعت يا أمير المؤمنين، فقد ناشدتني الله، وحرام أن أكذب عليه، والملتقى قريب!

قال أبو جعفر: انصرف إلى بلدك راشدًا مهديًّا، فلا تثريب عليك، فخرج آخر الثلاثة أبو ذؤيب!

واتجه أبو جعفر إلى الربيع فقال: أرأيت كيف عظمت مكانة هؤلاء لدى الناس يا ربيع؟

لقد ترفعوا عنَّا، وفيهم من خرج لقتالنا، ومَن لم يخف الموت فجابهنا في غلظة، أتستكثر عليهم بعد ذلك أن يُستقبلوا عند الطواف استقبال الأنبياء والمرسلين!

❁❁❁

دولة الأدارسة

جلس إدريسُ بن عبد الله بن الحسين حزينًا يقلب كفَّه، بعد أن انتهت معركة (فخ) بهزيمة العلويين، لقد حشدوا كلَّ جهودهم، وبذل أخوه الحسين بن الحسن أقصى ما يبذل إنسان ليبلغ النصر، فاستُشهد دون أن يتحقق ما يأمل، وتفرق جيشه أباديد، دون طائل، ففيم كانت هذه الحروب المتتابعة من لدن شهيدها الأكبر الحسين بن علي، وقد تتابع من بعده زيد بن علي والنفس الزكية، وإبراهيم أخوه، والحسين بن الحسن، وكلهم قاد الجيوش مستبسلًا، وتدافعت خلفه الجموع، وانتصرت القوة الحاكمة، بما أعطت من مال، وأعزَّت بمنصب، وخدعت بعهود.

قال راشد لإدريس: الناس عبيد المال يا سيدي، ولئن هُزم الحسين بن علي، وزيد بن علي في عهد الأموية، فإن هزيمة أخيك النفس الزكية ومَن تلاه في عهد العباسية لهي أوجع وأنكى؛ لأن الأرحام تقطعت، وتنكر الدم للدم! وأحب أن أقول رأيًا وأخشى أن تضيق به.

قال إدريس: أنا أعلم صدق شعورك وإخلاص عاطفتك، وكنت أضيق بمَن يظهرون الود، ويضمرون السوء، فيعارضون أهل البيت، وكأنهم يشمتون، ويظهرون البكاء، وقلوبهم تبتسم ضاحكة، أما أنت يا راشد فقُل ما تشاء!

هنا حدَّق راشد في وجه صاحبه كثيرًا، ثم قال: المال المال يا سيدي، لم تنقص محمدًا ذا النفس الزكية العزيمة، ولم يعوزه الاستبسال حتى استُشهد، وكذلك أخواك إبراهيم والحسين، فقد خرجوا في عدة وعدد، ولكن أبا جعفر

المنصور فرَّق المال على بخله، ففعل ما فعل في نفوس غرها بريق الذهب الخداع.

قال الحسين: أتعني أن شيعتنا بالمدينة والكوفة والبصرة لم يكونوا صادقين وهم أهل حمية وولاء.

فأجاب راشد يقول: ليس الأمر أمر الشيعة، ولكنه أمر مَن اندسَّ بينهم من عيون العباسيين، فتظاهر بالحمية، واستمال صحبك بالخديعة، على أنه منهم وليس مِن خصومهم، وأخذ يُثير الشكوك، ويدعو إلى الهرب، ثم هو في الوقت نفسه ينقل الأسرار، ويذيع الخطط، والدولة العباسية من ورائه تمده بالذهب، ليجذب الضعفاء، وسلاحها الحربي وافر إذا قِيس بسلاح شيعتنا، ثم لا تنسى أن الانتصار المتوالي يبعث على الثقة، والهزيمة المتتالية تدعو إلى التشاؤم وقد تدعو إلى اليأس!

تأوَّه إدريس تأويهة المتحسر، وقال في أسف: كأن الأمر قد خرج من أيدينا إلى الأبد، ونحن أهله وذووه!

قال راشد: لقد فكرت طويلًا يا سيدي، ثم اهتديت إلى رأي أعتقد أنه سيكون باب النجاح، وأقول أعتقد ولا أقول أظن.

فردَّ إدريس يقول: إذا اعتقدت بدون شك، فقد فكرت طويلًا، حتى أحكمت الخطة كعهدي بك!

أجل يا سيدي، وسأُفصح، ولكن بعد أن نصلي العشاء، ونلجأ إلى مكمننا بالمدينة فقد تكون للحيطان آذان.

وكانت الصلاة قد حانت، فتوضأ الرجلان، وإدريس حائر دهش يُفكر في اقتراح راشد الذي يسوقه عن اعتقاد، وراشد يُطيل التفكير فيما سيعرض من أمر،

وكيف يصل إلى مراده من أقرب طريق، حتى إذا سمعا الأذان وأديا الفريضة تسللا إلى بيتهما المنعزل في أطراف المدينة، وفي نفسيهما خواطر تضطرب وآمال تلوح.

قال راشد: سيدي، لن تفلح حرب يشنها العلويون بالمدينة أو مكة أو البصرة أو الكوفة؛ لأن الخلافة تبسط سلطانها على الناس في الشرق، ولقد فرَّ عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، فجمع الناس حوله، ونهضت الأموية في الغرب بعد أن انتكست في الشرق، وليس للأموية في قلوب الناس ما لأهل بيت رسول الله من الحب الخالص والود المكين، بل كانت بغيضة كريهة، تحكم الناس بالخديعة والبطش، ومع ذلك فقد نجح عبد الرحمن، ولم يستطع المنصور أن يصنع شيئًا معه لبُعد مستقره، وقد سماه صقر قريش، اعترافًا منه بعظمة خصمه، أفلو كان عبد الرحمن الداخل قد جمع الجموع في الشام أو البصرة أو مكة، وتقدَّم لمُنازلة المنصور، أفيبلغ غير الهزيمة الماحقة، والخذلان المريع.

حدَّق إدريس بعينه، كمَن أخذته مفاجأة على غير انتظار، ثم قال في حيرة تأخذ عليه أقطاره: لقد رحل عبد الرحمن إلى الأندلس فماذا بقي أمامنا؟ أنذهب إلى خراسان، وهي الآن مسلحة لأبي جعفر بعد مصرع أبي مسلم، وقد اختار لها أعتى القواد وأقام بها الحصون، ثم ماذا بقي معنا من المال لنبذله في شراء السلاح، وجمع الأنصار في البلد البعيد!

لم يدع راشد الفرصة تضيع منه فقال: أي مال يا سيدي! لقد حلَّ عبد الرحمن وليس معه غير خادمه بدر، وكفه صفر من المال والذخيرة، ثم أقام دولة فتية ناهضة رأسها عن كفاءة قادرة، وتخطيط مرسوم! أما المكان فهو المغرب، حيث يبعد عن العباسيين فلا يستطيعون الذهاب فييأسون؟ ومن يدري؟ فلعلك إذا

وافقت، وذهبت معك، تجد الطاعة والانجذاب أضعاف، ما وجده عبد الرحمن، وكيف لا تجد وأنت حفيد رسول الله!

قال إدريس: سأفكر قليلًا، فدعني أتأمل.

ولكن راشدًا قد أخذ عليه الطريق حين قال: يا سيدي نحن بين اتجاهين، إما أن نبقى بالمدينة، فلا نصر، لأننا محاصرون بعيون الخليفة، وها أنت ذا ترى عاملها الحقود يسب العلويين علنًا، ويختلق عليهم المثالب، ويرميهم بأشنع ما يقوله مجرم أثيم، تثبيتًا لأمره، وإرضاء للهادي ببغداد، وله عيون تأتي إليك، وكأنها تواسيك، ولكنها تبث بذور اليأس، وتجلب دواعي الرعب والفزع، وإذن فلا أمل لعلوي هنا، أما الاحتمال الثاني فنحن قد نفوز بأربنا في المغرب، فنبلغ ما نريد ونشفي صدورنا، وقد نخفق، فنتراجع في صمت دون أن نخسر شيئًا! البقاء في المدينة خذلان مؤكَّد، والسفر إلى المغرب نصر محتمل؟ فأيهما يروق!

قال إدريس: أمامي الليل الطويل، وسأقطع برأي حاسم قبل أن ينبلج نور الصباح، فإلى الرقاد!

لم ينَم إدريس ليلته، فقد كان يتقلب على مثل الجمر من هواجسه المتضاربة، وكان أمامه شبحان لا يبرحان عينيه، شبح الهادي خليفة المسلمين ببغداد، وقد تمَّت له السيطرة، فما يستطيع أحد أن يقوم في وجهه، وشبح عبد الرحمن الداخل حين فرَّ من الهول إلى الأندلس، فاستطاع أن ينشئ مملكة، بل استطاع أن يقيم خلافة، ولكنه لم يَقبل أن يحمل اللقب، كيلا يجلب عليه شرًّا لا سبيل إلى إطفائه، وهو في أول الطريق، ثم سمع صوت المؤذن يدعو الناس إلى صلاة الفجر دون أن ينعم بمهجع، وقد خف الناس للصلاة بالمسجد، ولم يجد من نفسه عزمًا على رؤية أحد، فآثر الصلاة بمنزله!

وعجب راشد حين لم ير إدريس في المسجد الجامع كما تعوَّد أن يراه، فظنه قد سهر طويلًا يفكر، حتى إذا قرب الفجر أنهكه التفكير، فاستسلم لنوم لم يسمع به صوت المؤذن، وهو معذور لما عانى من أمر، وما واجه من احتمالات، ولم يشأ أن يذهب إليه بعد الصلاة مباشرة، ولكنه آثر أن ينتظر حتى الصباح!

على أن إدريس كان يرتقب عودة صاحبه إليه، وهو على أحر من الجمر قلقًا، وقد توجَّع مجيئه بعد انتهاء الصلاة، فلمَّا أبطأ عنه، تقلَّب في حيرة، وجعل يسأل نفسه: أرجع راشد عن اقتراحه؟ أبدا له ما جعل يرجح الانتظار دون تعجل؟ وأي شيء بدا له؟ وهو الذي فكَّر وخطط ودرس؟

ثم التقى الصاحبان، ليعلن إدريس أنه صمَّم وعزم، ولكن كيف تتم الرحلة ومتى؟

فقال راشد: أنت محاصر يا سيدي، وللهادي عيون ترصد اتجاهك، وأرى أن نتلاقى في المساء، لنبدأ المسيرة، وسأحضر لك ثيابًا مهلهلة ترتديها، على أن تغير اليوم من مظهرك، فتحلق لحيتك، وتدع عباءتك وعمامتك، ظاهرًا بمرأى الخدم، كيلا يعرفك أحد إذا تعرضت في الطريق لعين من عيون الهادي، أما أنا فسأرتدي أفخم لباس، وأغير من شأني، فأسوي عمامة كبيرة على رأسي، وأرجل لحيتي، وأضع المسبحة في يدي، وتسير أنت ورائي، فيظن الناس أني السيد المطاع، وأنك تابع لي، ومتى بدوت في مظهر التابع المملوك، فلن يظن أحد أنك إدريس بن عبد الله حتى لو تفرَّس فيك مَن يعرفك، فسيباعد مظهرك المتواضع بينك وبين حقيقتك.

قال إدريس: حيَّاك الله وأكرمك يا راشد، لقد وافقت على رأيك، ولكن بعد تعديل يسير! إن خروجنا معًا من المدينة، وانتقالنا بالليل في صحبة متحدة وحيدين قد يؤديان إلى أن نُعرف ونتعقب، والأسلم أن أخرج أنا وحدي في هيئة

الخادم المحتاج فأقطع الطريق تابعًا لإحدى القوافل المنصرفة من زيارة المدينة بعد تمام الحج إلى بلاد الشام، وسأكون من اليقظة بحيث لا أنطق بغير ما ينطق به عربي يسكن البادية، وقد جاء لمدينة زائرًا، ثم همَّ بالرجوع إلى بادية الشام، هذا ما رأيت أن أقوم به، أما أنت يا راشد فلا خطر من ارتحالك مصبحًا أم ممسيًا، فابحث لك عن وجه يأتي بك إلى الشام، وسيكون المسجد الأموي بدمشق موضع لقائنا، فلستُ أعلم في دمشق أحدًا يعرف سحنتي! وسأحرص على أن أصلي العشاء خلف الإمام كل ليلة، فإذا تمَّت رحلتك على أي وجه تراه، فاجعل من شأنك أن تُصلي العشاء في المسجد الأموي ليلة أن تحضر، ومتى تم اللقاء فسنرحل إلى مصر في يقظة مماثلة أيضًا، سنرحل مجتمعين على الهيئة التي وصفت، وأرجو أن يجري الأمر كما نريد، وهل في وسعنا إلَّا أن نرسم ونخطط، أما التوفيق فمن شأن السماء، على أني سأعجل المسير من الليلة، ونحن في موسم رحيل القوافل النازحة، من المدينة بعد أن أدَّت فريضة الحج بمكة.

ابتهج راشد بما سمع وقال لإدريس: وسأرحل أنا أيضًا مع قافلة غير التي تتبعها، لتكون خطواتنا متقاربة، فلا يبطئ بك المقام في دمشق، وستكون معي متطلبات الرحلة إلى مصر فلا تهتم.

وما أسرع ما يمضي الزمن، فقد سار الرفيقان إلى وجهتهما دون انتظار، فالتقيا بالمسجد الأموي، ثم تهيئا للرحلة معًا إلى مصر، حتى إذا بلغا أسوار الفسطاط وجدا أمام الأسوار مَن يسألهما؟ فإذا هو صاحب البريد.

كان راشد حازمًا في إجابته؛ لأنه وهو في مظهر السيد، قد تولَّى الإجابة دون ما وجل، ولكن صاحب البريد أخذ يصوِّب النظر إلى وجه هذا الذي يظهر في مرأى التابع، ثم ما عتم أن قبض على يده، وارتفع بها إلى شفته يُقبلها، وقال له في همس:

أنت سيدي إدريس بن عبد الله بن الحسين، لقد اشتركت معكم في المدينة حيث استُشهد محمد بن عبد الله أخوك ذو النفس الذكية، واشتركت معكم في يوم (فخ) حيث استُشهد الحسين بن الحسن، وحين غلبني الوجد، تركت الحجاز ومَن به وجئت إلى مصر، فاتخذني عاملها الأمين علي بن سليمان الهاشمي قائمًا على البريد، وأنا صاحب سرِّه، وعلي بن سليمان هاشمي يُخلص لأهل البيت، وسأصحبكما إليه بعد أن ألتقي به!

قال راشد: ناشدتك الله ألَّا تفعل، فالرجل -وإن كان هاشميًّا- فهو عامل الهادي وعين بني العباس، وواجبه ينتهي بنا إلى القبض علينا، ولئن صفح فسيحار في أمرنا، ولا نريد أن نسبب له الضيق!

قال صاحب البريد: أي ضيق وأنا أعرف نوازعه الخفية، وكم جلست معه ليالي كثيرة نتحدث عن ظلم بني العباس، وندعو الله أن يتم الأمر لبني علي، وقد سمعته بالأمس ينشدني قول بعض الشعراء:

أنسي الهوى لبني علي في الحشا وأراه يطمح عن بني العباس

قال إدريس: حياه الله وأكرمه، ومتى كان كذلك فلا نريد أن نوقعه في حرج، فقد تكون عليه عين ترقب، فتنقل إلى بغداد ما يصف به لتهاونه معنا، ومَن يدري فقد ننتفع به دون لقاء!

قال صاحب البريد: فهيا إذن إلى منزلي حتى يحين الصباح!

أشرقت الشمس، وتوجَّه صاحب البريد إلى علي بن سليمان الهاشمي، ولكن الغيبة قد طالت، حتى دنت الشمس من المغيب، دون أن يرجع الرجل بخبر ما.

وتحيَّر الضيفان ماذا يصنعان؟ أيهربان؟ وقد أغلق عليهما الباب الخارجي، وهما موضع التبجيل والإكرام من خدم المنزل! أيكون علي بن سليمان قد ضاق

بصاحب البريد فأمر باعتقاله؟ لو كان الأمر كذلك لأسرع إليهما أعوانه كي يقبضوا عليهما، ويتجهوا بهما إليه، ولكن الجو هادئ، فماذا تم بين الرجلين يا ترى؟

وبعد العشاء الأخيرة، حضر صاحب البريد، ومعه أربع رواحل، وقال لضيفه في اهتمام، بعد أن انفرد بهما وأوصد الأبواب:

لقد مكثت مع علي بن سليمان نفكر في أمركما، وقد خاف عليكما من البقاء في الفسطاط؛ لأن العيون كثيرة، وما تسقط إبرة في مصر، إلَّا رن صداها في أذن الهادي ببغداد، ثم انتهى الأمر إلى أن ترحلا منفردين إلى برقة، وقد أعد لكل منكما راحلتين، إحداهما لتابع يهديكما السبيل والأخرى لمتبوعه، على أن يبدأ أحدكما مع تابعه هذه الليلة، وينتظر الثاني كي يسير مع تابعه الآخر، والتابعان يجهلان كل شيء عنكما، وقد قال لهما الأمير: إنكما تاجران من برقة، جئتما لزيارته كي تحدثاه عمَّا يمكن أن تحضرا به من العروض إلى مصر في الموسم القادم، وقد رأى أن واجب الضيافة يحتم عليه أن يسعدكما برحلة هانئة، فأعد الراحلة والتابع لكل منكما! فإذا تحدث أحدكما مع تابعه الذي يجهل كل شيء عن برقة فلا يُحدثه بغير الشائع المتعارف، ولا يخوض معه فيما يدل على شأنه، وستصلان بخير، ومعكما الزاد والراحلة والملبس والمال.

قال إدريس: الحمد لله، دعني أتوضأ، وأصلي صلاة الشكر لله، فإن أمارة التوفيق ساطعة تبشر بما بعدها، وسأبدأ أنا المسير الليلة، أما راشد ففي مساء الغد، والموعد جامع برقة العام عند صلاة العشاء.

لم يصدق الصاحبان واقعهما حين تلاقيا عشاء بمسجد برقة، وقد تأكدا أنهما في هذه الأماكن القاصية صارا بمأمن من عيون الخليفة، ولكن الحيطة توجب

الحذر؛ إذ لا يمنع أن يوجد من يتعقبهما في الطريق، وهو احتمال فحسب، بل هو في رأيهما احتمال ضعيف.

ولكن إلى أين يذهبان؟ لقد قرَّ عزمهما على الرحلة إلى القيروان، لا لتكون خاتمة المطاف، بل لتكشف لهما عن واقع المغرب السياسي، فهي ملتقى القوافل، وكل أنحاء المغرب تبعث تجارها الناهضين إلى المشرق عن طريقها، وكل قافلة تشغل الأسواق فتمتلئ، فإذا ضاقت البلدة نشر القادمون خيامهم في ضواحيها الممتدة، وفي تلك الضواحي تتلاقى الوجوه، ويتعارف الغرباء، وتسيل أفانين السمر، وتروى أغرب الأحداث.

لقد عجل إدريس وصاحبه إلى تلك الضواحي العامرة، يتظاهران بالشراء، ويلتقيان بالسمع إلى ما يدور، وقد عرفا أن (وليلي) تخضع لمَن يُسمى إسحاق ابن عبد الحميد وهو أمير قبيلة (أوبة) وله منافسون من القبائل المتصارعة يعادونه، حتى ضاقوا به، وكاد يضيق بهم، فالمعارك لا تهدأ، والشجار لا يخف، وإذا سكت القتال بدأ الكلام واشتد، فيستدعى القتال مرة تالية.

قال راشد لسيده إدريس: ولماذا لا تنتهز الفرصة فتسير إلى (وليلي) وتقابل أميرها إسحاق لتُعلن إليه صلتك برسول الله، ومكانك من علي والحسين ومن تبعهما من ذريتهما في ميدان الجهاد، وسيعلم أنك صاحب الأمر الذي اغتصبه العباسيون، ومَن يدري فلعله يرى في وجودك حلا لمشكلته مع القبائل، فيجمعهم على مبايعتك راضين، ولن يخسر شيئًا، فسيكون وزيرك المختار!

قال إدريس: أنت تحلم يا راشد، فقال صاحبه: وكم حقيقة ابتدأت بحلم، أليست الآمال دافعة للعمل، وإذا ابتدأ العمل على وجهه الصحيح فإنه يدني الآمال!

تقول: على وجهه الصحيح؟

أجل، فإن ما أتصوره ليس بعيدًا عن التصديق، أميرٌ متعب لا يجد سبيلًا للراحة مع معارضيه، وخصوم أشداء لا يستريحون لسيطرة الأمير، وجميعهم ينشد حلًّا يرتضيه! وأنت الحل المأمول. إن طريقنا منذ خرجنا من المدينة كان مبشرًا بالخير، فلم نصادف عقبة تقف معترضة أمامنا، مَن كان يُصدق أن صاحب البريد في مصر سيتعاطف معنا؟ مَن كان يُصدق أن والي مصر علي بن سليمان الهاشمي سيُرحب بنا ويرسم السبيل لنجاتنا؟ مَن كان يصدق أن نجيء إلى القيروان مطمئنين دون أن يحيق بنا مكروه أو يتلبسنا خوف!! إن هذه المبادئ تُبشِّر بالخواتيم، وقد قلتها وسترى! والله لكأني أقرأ في كتاب!

تشجَّع إدريس، وامتلأ عزمًا بما قال راشد، ونهض ليُقبله بين عينيه، وليقول له في إعجاب مشغوف: أنت المصباح المشرق الذي أنار طريقي، وقد تكاثفت حولي الغياهب، ما أهنأ الحياة حين تجود بصديق مخلص يبذل رأيه الصادق، ويعطي من قلبه وُدًّا صافيًا، ومِن فِكره حلاًّ مُوفَّقًا، ومِن أمله دافعًا متوثبًا، أنت ذلك الصديق يا راشد!

قال راشد: لقد رفعتني عن مستواي يا سيدي، أنا تابع لا صديق، تابع لحفيد رسول الله، ولا أدخر لنفسي جزاء غير شفاعة جدك العظيم، إذ يُدرك ما أصنع، فيأخذ بيدي يوم يقوم الناس لرب العالمين.

فنهض إدريس لعناقه، وسقطت دموعهما شوقًا وأملًا، وأعدَّا العدة للرحيل في الصباح إلى مدينة (وليلي) حيث يريان أميرها إسحاق بن عبد الحميد.

عجبًا، كان راشد يقرأ صحيفة الغيب! أيكون في البشر من يسبق بخواطره خطى الزمان، فيرى ما يكون كأنه قد كان! إن كان في البشر هذا الطرز فراشد أحد

هؤلاء، إنه ابتسم ابتسامة راضية حين وجد إسحاق يهتف من أعماقه، وقد استمع إلى حديث إدريس: مرحبًا بحفيد رسول الله! أنت صاحب الأمر فينا وليس له سواك.

قال إدريس في نفسه: هذه واحدة، لقد استجاب إسحاق ومعه قبيلته، ولكن ما موقف القبائل الأخرى؟

لقد طار النبأ في المدينة ثم فيما حولها من القرى والبلاد، فهرع الناس أفواجًا لرؤية العلويّ المضطهد في الشرق، وقد بعثته العناية الربانية لينقذ البلاد من الشقاق، ألم تكن الدماء تسيل؟ ألم تكن الصدور تثور بالحفيظة؟ ألم تكن الجنوب قلقة لا تنعم بمهاد؟ سيتبدل ذلك كله، وستصبح الكلمة واحدة في ظل إدريس بن عبد الله بن الحسين!

وهكذا وفدت قبائلُ زنانة وزواغة وزواوة وصيدة ومعهم قبيلة أوربة ليكونوا صفًّا واحدًا خلف إدريس، وهكذا يعبئ إدريس بن عبد الله جيوشه من البربر ليقتحم المعاقل والحصون ناشرًا نور الإسلام في هذه الربوع المُمتدة من ساحل المحيط الأطلسي حتى مدينة (تلمسان)، وقد سبقته شهرته، فافتتحها دون قتال وبنى بها مسجدها الكبير، وسجّل اسمه على منبرها مسلسلًا حتى ينته إلى الحسن ابن على ثم إلى البتول فاطمة الزهراء بنت سيد الخلق محمد بن عبد الله!! وقد أُطلق عليه فاتح المغرب الثاني، إذ كان الفاتح الأول عقبة بن نافع، وبينهما موسى ابن نصير، وكلهم خيار من خيار!

والآن ما خطب بغداد؟ وما شأن أمير المؤمنين؟

لقد مات الهادي، وتولَّى بعده هارون الرشيد، وطارت إليه أنباء إدريس ابن عبد الله في المغرب، فقلَّب كفًّا على كف، ونادى وزيره يحيى بن برمك ليقول له:

لقد تتابعت انتصارات إدريس، بايعته جميع القبائل في المغرب! تعاهد مع الأموية في الأندلس وأصبح الخارجان حليفين! ماذا أصنع؟

قال يحيى: إن أبا جعفر المنصور رحمه الله قد ترك عبد الرحمن الداخل وشأنه لبُعد مكانه، وقد سمَّاه صقر قريش!

قال الرشيد متهكمًا: وأنت تريد أن نبحث عن اسم آخر لإدريس؟

قال يحيى: معذرة يا مولاي! بل أردت أن أقول إن المنصور مع سعة حيلته قد رأى بُعد المسافة بينه وبين خصمه مما يجعل النصر غير مأمول! والموقف مع إدريس هو الموقف مع عبد الرحمن.

قال الرشيد غاضبًا: أونسكت حتى تضيع أفريقية جميعها! لأنها بعيدة عنَّا، ويصعب أن نقود لها الجيوش؟!

فأجاب يحيى: لا نسكت ولكن نحتال!

قال الرشيد: مخبئاتك يا بن برمك! فأنت حصيف.

فردَّ يحيى يقول: لقد فكَّرت في أن نُرسل له طبيبًا يدعَّي أنه فرَّ هاربًا منك، ويتألفه بشتَّى الحيل، حتى إذا اطمأن إليه سقاه ما يريحنا منه، ويكر راجعًا إلينا، فنثيبه ونحميه، لا سيما أن إدريس لم يُرزق ولدًا، فإذا مات تفرَّق شمل العلوية هناك!

تبسَّم الرشيد وقال: فكرة جيدة، عليك أن تقوم بتنفيذها يا يحيى، ولا تبطئ، فالأمر جلل لا يحتمل السكوتّ، وراقب مَن هنا مِن العلوية الطامحين، كيلا يغادر مكانه أحد، فيرحل إلى إدريس ويكون خليفته هناك!

قال يحيى: هذا ما لا يغيب عني يا مولاي!

ودار يحيى بفِكره فاهتدى إلى سليمان بن جرير المشتهر بالشماخ، وهو ممَّن عُرف بالطب والصيدلة مع براعة في الجدل ومناقشة علماء الكلام، وإلمام بالأدب

والشعر، فدعاه على عجل، وبسط له من الآمال بعد رجوعه ما يستطيع به أن يكون من كبار رجال الدولة الأقربين، حيث أراح أمير المؤمنين من خصم عنيد، وكانت في سليمان انتهازية مغامرة يسكت عندها صوت الضمير، فرحَّب وهش وعجل بالمسير، ولم يكن في حاجة إلى الدربة، حيث زاول الخداع وأحكم التآمر، وعرف من مكنون إدريس ما هيأ له من فرص التقرب إليه، والاستمتاع بمشورته! وكيف يظن إدريس به الشر، وقد جاء باكيًا ضارعًا يُعلن نقمته على الرشيد؛ إذ سجنه بغيًا دون وزر، وأعدَّ العدة لاغتياله، لولا أنه اهتبل فرصة سانحة ففرَّ من المحبس في جنح ليل، وإلى مَن يلتجئ؟ إلى فرع الدوحة الطاهرة إدريس بن عبد الله!! وسيرع أمور صحته، فهو طبيب صيدلي، وإذا شاء كان سمير ليله محدثًا أديبًا راوية، وعالمًا بالأحداث، ومحللًا لخفايا الضمائر، وكوامن الأحاسيس!

ثم نفذ السهم، فتمَّت الحيلة، وصُرع إدريس بشمة طيب مسموم تغلغل إلى دمه من أنفه، ففرح عدو، وارتاع صديق.. وقد تسلَّل الشماخ في جنح الليل قبل أن تظهر أمارات السم البطيء، ولو بقي سويعات لواجه سوء المصير.

❁❁❁

يزيد بن مزيد

رجعت ليلى بنتُ طريف الشيبانية بعد مصرع أخيها الوليد بن طريف الشاري إلى منزلها صامتة تريق دمعها دون أن تنطق، إذ كان أخوها الوليد بن طريف الشيباني إلى منزلها صامتة تريق دمعها دون أن تنطق، إذ كان أخوها الوليد بن طريف الشيباني زعيم الخوارج في عهد هارون الرشيد، وكانت له صولة جبارة أفزعت الرشيد وأزعجته، فتوالت جيوشه لمنازلته فلم ترجع بشيء، وقد بلغ من جرأته أنه حين تغلَّب على نصيبين وأرمينية زحف إلى الجزيرة ما بين الفراتين، وأصبح قريبًا من بغداد، وقد اجتمع الرشيد بجعفر البرمكي والفضل بن يحيى لينظروا في هذا الخطر الداهم، جزعًا أن يكون الوليد في معشار معشار جيوش الخلافة، ثم يهددها بهذا الزحف الداهم، وجعل يستشير فيمن يصلح لمنازلته بعد أن صرع أقوى قادة الخلافة إبراهيم بن خازم وبدَّد جيشه، فوقع الاختيار على يزيد ابن مزيد الشيباني، وكان جعفر يبغض يزيد ويراه مثالًا للآنفة المترفعة، وكأنه يحسده على بطولته ومروءته ويعده منافسًا كبيرًا، وهو بعد عربي من شيبان، فأشار على الرشيد بتوليته القيادة، وقال في نفسه، إن انتصر على الوليد فقد دفع الله الشر به، وله قدره الذي لا يتعداه في قصر الخلافة، وإن كانت الأخرى فقد أراح الله منافس عربي تلتف حوله القلوب!

تقدَّم يزيد بن مزيد الشيباني إلى منازلة الخوارج، فرأى من ثباتهم وهجومهم على الموت ما روعه على شجاعته الخارقة، ودارت المعركة في رمضان، فكان الخوارج جميعهم يصومون ويهجمون. وكان جيش الخلافة يميل إلى الرخصة فيفطر، وأراد يزيد أن يصوم ليستعين بالله على خطر الوليد، فغلبه الحر الشديد؛ إذ

كان بين نارين؛ نار الحرب، ونار القيظ، حتى بلغ به العطش أن عمد إلى خاتمه فنزعه من إصبعه وجعل يلوكه في فمه، ويقول: اللهم هذا يوم شديد النار فاستر علي، ونادى أصحابه: إنهم الخوارج يا قوم، فلا تفضحونا، فلم يحصل معهم على شيء، إذ ثبت أعداؤه ثباتًا أزعجه، ثم اهتدى للحيلة، فوقف في الميدان ونادى الوليد بن طريف قائلًا: يا بن العم، أنا شيباني وأنت شيباني، وفي شيبان مروءة لا تُنكر، فإن رأيت أن نحفظ هذه الدماء، ونقصر الأمر علي وعليك، فنتلاقى للبراز، وأينا صرع الآخر رجحت كفته! إن رأيت ذلك كنت فتى شيبان، وحفظت دماء المسلمين، وما لنا أرب في الحياة أنا وأنت، إن هو إلَّا الموقف العصيب، فرض علينا العداء، ونستعين بالله!

كان في الوليد فتوة، فصاح بيزيد: لقد أنصفتَ فهيَّا، وتقابل البطلان في ساعة رهيبة، وتحلق الفريقان يرمقون على من تدور الدائرة، وعظم الكر والفر، وبرق السيف، واهتز الرمح، ثم صادف يزيد مقتلًا من صاحبه فأرداه، وتشجع الخوارج ثائرين لقائدهم، فهجموا، وهجم يزيد، وقومه أشد تحمسًا بعد مصرع الوليد، حتى تم النصر لجيش الخلافة.

وكانت ليلى بنت طريف شقيقة الوليد ترقب النزال الهائل، فلمَّا رأت مصرع أخيها لبست درعها وحملت سيفها وركبت جوادها، وتقدمت لمنازلة يزيد هاتفة به أن يبرز لها، وحار البطل ماذا يصنع، ولكنها كانت مصممة على نزاله، تغلي في نفسها روح الانتقام، وهي بطلة ذات مواقف، ولكن مع مَن؟ مع غير يزيد بن مزيد الشيباني، ومرت ساعة رأى يزيد بعدها أن ينتهي إلى حد، فهجم بسيفه على الفرس فقدَّه نصفين، وصاح بليلى، اغربي يا أختاه، فليس لي أن أصرعك، وهرول بعيدًا...

رجعت ليلى إلى منزلها، وعواطفها تعتلج في صدرها، وأخذت ترسل دمعها دون أن تنطق، ثم جاش صدرها بالشعر، وكانت شاعرة من طراز نادر في ملئها، ومما قالته هذه الأبيات:

أيا شجر الخابور ما لك مورقا ... كأنك لم تحزن على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلَّا من التقى ... ولا المال إلَّا من قنا وسيوف
فإن يك أرداه يزيد بن مزيد ... فيا رب خيل فضها بسيوف!

وانتشرت قصائدها الدامعة بين العرب، وفي الناس من لا يرحم المصابين، بل ولا ينكأ الجراح بما يزعم، إذ دخل على ليلى أحدُ الخوارج كالساخر، وهو يقول: رثيت أخاك وذكرت اسم قاتله دون أن تذميه، وهو عدو قاتل! كأنك تريدين مصافاته بعد أن عفا عنك في الميدان!

قالت ليلى: علي بأبي محمد اليزيدي، وهو أديب ناقد، ليحكم بيني وبينك، فقال الخارجي: سأحضره الآن لتعلمي صحة ما أدعيه! وكأن القوم قد نسوا مصرع الوليد وفرغوا لنقد الشعر، فأسرعوا إلى أبي محمد يدعونه، ورأى الشيخ إلحاح القوم، فخف إلى منزل ليلى، واستمع إلى ما قيل، فبان الغضب في وجهه، وصاح بالناس: يا قوم، لم ترحموا الأخت المفجوعة في شقيقها، ولستم بأكثر منها لوعة، ولا أجزع على فقْد الوليد، وقد عبَّرت عن شعورها بأقوى ممَّا قالت الخنساء في صخر، ولم تُرد مباهاة بالشعر، بل نفست عن صدر مكلوم، وقلب ذي شجون، فمَن هذا الذي يعترض حيث لا اعتراض؟

قال الخارجي: لم تهج يزيد بن مزيد، وهو عدوها وعدو أخيها، أتراها قدرت موقفه حين تركها، ووهب لها الحياة!

فصاح اليزيدي: عجبًا أيّ عجب، وماذا في هذا الشعور النبيل، كأنك تريد أن ينقلب الرثاء هجاء، إن السائل من لون الإناء، والشريفات من الشواعر لا ينحدرن إلى حمأة الإسفاف، ولها في هذا المضمار شبيهات، أتسمعون يا قوم!

قال الجميع: هيَّا نستمع، فقُل.

فعجل أبو محمد اليزيدي يقول:

كانت قتيلة بنت الحارث، أخت النضر بن الحارث تعزه وتصطفيه، وقد قتله رسول الله ﷺ بعد المعركة في بدر، لما لقي من أذاه في مكة، إذ كان من أفحش الخصوم وأشدهم نقيصة، فحزنت قتيلة على شقيقها حزنًا أسال الدمع، وأرق العين، ورثته رثاء كريمًا، ولم تهج فيه رسول الله، ولم تسكت عنه، بل مدحته وهو قاتل أخيها، فقالت:

أمحمد ولأنت ضنء كريمة ... في قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما ... من الفتى، وهو المغيظ المحنق

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق

فماذا تقول أيها الخارجي! والله إن ليلى لو هجت يزيد لما كانت بنت طريف الشيباني! أتهجو من عفَّ عن مصرعها، وقد تعمدت قتله بكل ما تملك من قوة وسلاح! أتلك أخلاق شيبان!

قالت ليلى: شفيتَ صدري يا عم، فاجلس نتحدث عن شيبان.

فآنس أبو محمد في وجوه القوم استبشارًا، فأراد أن يسلي عنهم ما يجدون من وجد بعد هزيمتهم! فقال: هما بطلان من أعظم قادة الإسلام، الوليد بن طريف ويزيد بن مزيد الشيبانيان! أما الوليد فأنتم جنده ورجاله، وتعرفون من بسالته النادرة، وشجاعته الخارقة أكثر مما أعرف، إنه هو الذي أفزع الرشيد، وكاد يزلزل

عرشه في بغداد، وما كاد يبلغه نبأ مصرعه، حتى سجد لله شاكرًا، وصمم على أن يؤكد شكره، فرحل إلى مكة معتمرًا في البيت العتيق، ثم رحل إلى المدينة زائرًا قبر رسول الله ﷺ، ليؤكد حمده لربه، فأي بطل كان الوليد، لقد عبرت ليلى عن مشاعرنا جميعًا حين بكته فقالت:

فقدناك فقدان الربيع وليتنا ... فديناك من فتياننا بألوف

عليك سلام الله وقفا فإنني ... أرى الموت نزالًا بكل شريف

هذا هو الشيباني الأول الوليد بن طريف، فهل أتحدث عن يزيد، فيقول قائل أنت تمدح العدو أو أن الحق حق!

قال الجميع: أنت تروي تاريخًا فتحدث.

فبادر اليزيدي يقول: وهبْني كنت عدوًّا، فالفضل ما شهدت به الأعداء، أعرف من أمر يزيد بن مزيد أنه كان يحتذي عمه معن بن زائدة في الشجاعة، والكرم معًا، وقد بلغهما معًا، وكان معن بن زائدة يعرف له قدره، ويرفعه عن أبنائه من صلبه منزلة واعتدادًا، قيل لي: إن امرأة معن بن زائدة، رأت زوجها يقدم يزيد في مواقف الرجولة، ويصدره في محافل الحشود، على حين يترك أبناءه جساسًا وزائدة وعبد الله وكأنهم همل لا شأن له بهم، فاغتاظت الأم غيظًا شديدًا، وقالت: كأنك لم تنجب غير يزيد بن أخيك، وكأنك تزعم أن الله لم يخلق مثله، فقال معن: مهلًا مهلًا، فوالله لو وجدت لدى واحد من أبنائي معشار ما أرى من يزيد لباهيت به واحتفلت، ولكن مواقف الشدة تدعوني إلى دقة الاختيار بعد بلاء الاختبار، ووالله لو لم يكن يزيد ابن أخي، وشجاعته شجاعته، وكان غريبًا في ملأ آخر لحاولت أن أقربه من نفسي، وسأريك الآن دليلًا يسكتك فلا تعودين إلى لغوك.

ثم نادى غلامه في منتصف الليل وقال له: اذهب إلى أبنائي جساس وزائدة وعبد الله وغيرهم فادعهم على عجل، فطال انتظاره حتى أتوا مبطئين في ثياب الحرير، وفاخر النعال، وجعلوا يتثاءبون متناومين، ثم أسبل سترًا وجعل امرأته خلفه، وصاح بالغلام: ادع يزيد بن أخي، فما مضت لحظة حتى دخل عجلًا، ومعه سلاحه، وقد ربط فرسه، ولبس درعه، فقال له معن: ما هذه الهيئة يا يزيد، ولماذا السلاح والدرع، فقال جاءني رسول الأمير في هذه الساعة من الليل، فقلت ما دعاني إلَّا لأمر خطير في هذا الوقت الحرج، فأخذت عدتي لأنهض للأمر من فوري دون انتظار، وإذا لم يكن ما يدعو للسلاح فما أيسر أن ينزع! فقال له: انصرف مشكورًا، فقد جد ما جعلني أتمهل.

ثم التفت إلى امرأته، وأزاح الستر قائلًا: أرأيت ما صنع يزيد؟ قالت: تبيَّن عذرك، فصرف معن أولاده، وقال: عسى أن يأخذوا درسًا فيفيقوا من ترفهم الكاذب، وكم قدمتهم فتأخروا، ليس الأمر يا أم جساس أمر ترفيه وتنعم وملذة، ولكنه أمر جلاد وأعباء وهموم وتضحية! ولن يكون لذلك غير شجاع موهوب! أتلومينني في يزيد وهو سيفي أمام الأعداء!

قالت ليلى: صدق معن في قوله: ليس الأمر أمر ترفيه وملذة؛ لأن المجد لا ينال بالراحة واللذة، فقد عهدت الوليد أخي رحمه الله، دائم التنفل نهارًا، والسهر ليلًا، وكأنه موكل بإصلاح الكون أجمعه، وما أظن معنًا ويزيد الشيبانيين إلَّا من طراز الوليد!

قال أحد الجلوس، وقد تبرم بمديح آل شيبان: إن ولاد معن جساسًا وزائدة وعبد الله من شيبان ولم يصنعوا شيئًا، حتى أخَّرهم أبوهم واصطفى ابن أخيه، فتدحثوا عن الأشخاص لا عن الأنساب.

قال اليزيدي: هو ما تقول، ولكن البطولة تكثر في قوم دون قوم، وما نعني أنها تعم القبيلة جمعاء، فقد يكون في القبيلة الخاملة بطل لا نظير له ينشأ كما تنشأ الزهرة منفردة في أعلى الجبل، وقد يكون في القبيلة النابهة أناس خاملون يسقطون ولا يرتفعون.

قالت ليلى: لنترك حديث القبائل لأسأل: هل كان يزيد بن مزيد كريمًا مثل ما شاع عن معن، لقد عرفناه شجاعًا باسلًا، فهل اشتهر في ملئه بالسخاء والأريحية!؟

قال اليزيدي: كان يزيد يشبه معنًا في كل شيء، وقد حازاه في كرمه ومروءته، فاندفع السائلون إلى بابه من كل صوب، فكان يفرح بتفريج كربهم حين يرى السرور بادي على قسماتهم، ولم يكن يجود في حال اليُسر وحده، بل كان يصمم على أن تظهر مروءته في معسرته، وفد عليه أبو منصور النمري وهو في أحرج ساعات ضيقه، فأنشده:

لو لم يكن لبني شيبان من حسب سوى يزيد لفاقوا الناس في الحسب

فاكتأب يزيد وكأنه يعاني غصة، ثم قال للنمري: ما أصبح لدي ما يفي بحقك، ولكن سأعطيك كل ما في خزانتي، ونادى غلامه كي يحضر كل ما يملك، فكان مائة دينار، فقدمها يزيد في استحياء، وقال: لك بقية حين نستطيع.

وقد وشى بعض الحاقدين بيزيد إلى الرشيد، فقال له: إن ابن مزيد يعطي أبا بكر النطاح، ويُسرف له في عطائه، مع أنه مدح ربيعة مفضلًا إياها على مضر، ومضر أرومة أمير المؤمنين، فغضب الرشيد على يزيد وكتب يقول له: إن عيوني عليك في خلواتك ومشاهدك، وقد جاءك جلف من أجلاف ربيعة عدا طوره فأتني به! فتأثر يزيد، وعزَّ عليه أن يسئ لشاعر يحتبي بفنائه، فبعث ليه قائلًا: يا بكر، استتر عن الناس وخُذ مني اليوم ما يرضيك وما يكفيك حتى تزول الغمة،

وسأكتب للرشيد معلنا أنني أبحث عنك في كل مكان، فاتق الله في نفسك وفيّ.

قال بعض الحاضرين: أولم يأمن يزيد بن مزيد أن يبلغ هارون ما صنع، وهو محاط بعيون أمير المؤمنين في المحضر والمغيب.

فقال اليزيدي: إن أريحية يزيد تدفعه إلى أن يسيء إلى نفسه، كيلا يُسيء إلى اللائذين به، وهو نمط من الرجال يندر أن تراه.

ولم يقنع الرشيد بما كتب يزيد، فأرسل يستدعيه، ولكن يزيد الذي حمى هارون من القتل من قبل، حين غزا الصائفة ببلاد الروم وهو أمير في عهد والده المهدي، إذ هجم عليه من حاول أن يفلق رأسه بالسيف، لولا أن بادره يزيد بطعنة من الخلف أسقطت السيف من يده، ونجا هارون، إن يزيد الذي فعل ذلك قد قدم هاشًا باشًا على الرشيد، فتذكر الخليفة لساعته ما كان من نجاته على يده، وقال له: كنت غاضبًا يا يزيد، ولكن رؤيتك الباسمة ذكرتني أمسَك البعيد إذ دافعت عنِّي يوم الصائفة، فاجلس راضيًا مرضيًّا عنك.

فقال يزيد من فوره: الحمد لله الذي سهل لنا سبيل الكرامة بوجه لقائك يا أمير المؤمنين، كما كشفت عنا صبابة الكرب بفضلك، فجزاك الله في حال سخطك رضا المنيبين، وفي حال رضاك جزاء المنعمين، فأنت تعفو عن المسيء متفضلًا، وتتطول على المحسن ممتنًا.

فسر الرشيد، وسأله: من القائل يا يزيد؟

تراه في الأمن في درع مضاعفة لا يأمن الدهر أن يأتي على عجل

فقال: لا أعرفه يا أمير المؤمنين، فصاح الرشيد: سوءة لك مِن سيد قوم، يمدح بمثل هذا الشعر، ولا يعرف قائله، وقد بلغ أمير المؤمنين فحفظه ورواه، إنه مسلم بن الوليد، فلا تبخسه حقه يا يزيد.

وكان بالباب مسلم الخاسر الشاعر المادح، يطلب الإذن، فأذن له الرشيد، ويزيد لا يزال جالسًا في موضعه القريب من أمير المؤمنين، فتقدَّم مسلم ووالَى إنشاد مدحته حتى وصل إلى قوله:

إن المنايا في السيوف كوامن حتى يهيجها فتى هياج

ومدجج يغشى المضيق بسيفه حتى يكون بسيفه الإفراج

فقال الرشيد: ذلك يزيد بن مزيد يا مسلم!

وسكت اليزيدي مفكرًا.

فصاح به أحد الجالسين: كفى ما قلت يا أبا محمد، فنحن لم نجتمع للثناء على قاتل الوليد.

فقالت ليلى: لقد عرفنا أن أشجع الفرسان قتل أشجع الفرسان، والموت حتم مفروض، فلا تثريب على قاتل أو مقتول من طراز الوليد ويزيد.

وشعر القوم أنهم قاموا لدى ليلى بواجب المواساة، فأخذوا ينصرفون متتابعين.

❁❁❁

محنة البرامكة

جلس الوزير المهلبي في أمسية سمره التي اعتاد أن يعقدها مع أصدقائه القضاة ابن قريعة وابن معروف والتنوخي، وكلهم فقيه أديب راوية تقدَّمت به السن وحنكته التجارب، ولكن الوزير كان على غير عادته مطرقًا يستمع الحديث ولا يُشارك، وتدور الطيبات من الفواكه والنقل، ولا يتناول شيئًا، وكان القاضي التنوخي أقرب المتسامرين إلى نفسه، فلمح ما يخامره من شجون، فاتجَّه إليه ليقول له في دعابة:

يا أبا محمد، أنت وزير الدولة، فلا بد أن تكابد صعابها، وأن تكون مشكلاتها شيئًا طبيعيًّا، لا يؤرق ليلك، ولا يعكر سمرك؛ لأن صاحب الأمر الكبير لا يسير في طريق مفروش بالريحان، وإن توهم الناس ذلك، ولكنه كبير؛ لأنه ينازل الصعاب ويلاقي الشدائد ثم لا يكترث بها.

قال الوزير: ليس الأمر أمر الدولة - أعز الله القاضي وبارك في مودته - ولكنه أمر سيدنا معز الدولة البويهي، إذ تغيَّر علي.

قال ابن معروف: وكم تغيَّر، وتلبد الجو بالغيم، ثم أشرقت الشمس ساطعة وضَّاءة وانجاب الضباب!

قال الوزير: ولكن أذنه تستمع وتستمع حتى لم يبق في قوس الصبر منزع، والله لراحة النفس من عناء الوزارة أجدى وأسلم.

فضرب ابن قريعة كفًّا بكف، وقال: أوبعد أن حكمت الإدارة، وثبتَّ الدعائم وسرى الأمن في الربوع، يتغير عليك! إن هؤلاء الكبار يصغرون حين ينكرون

جهود وزرائهم المخلصين، وصفحات التاريخ تسجل كل رائعة مخجلة، فإلى متى؟ كم وزير أرسى الدعائم وأقر الأمور على أحسن وجه، ثم لاقى الجحود، وما عهْد جعفر بن يحيى البرمكي ببعيد.

قال ابنُ معروف: لا تكن مثيرًا للبلابل يا بن قريعة، فالشأن غير الشأن، والفرق بعيد.

وهنا قال الوزير مهتمًّا: وماذا صنع جعفر حتى يلاقي الجحود على أقسى صوره وأفظع مرائيه؟

قال القاضي التنوخي: لقد جئنا يا قوم لنسمر بالرواية الشعرية، والنادرة الأدبية، لا نتحدث عن البرامكة!

قال الوزير: ولماذا لا يمتد السمر إلى أحداث التاريخ لنأخذ منها العبرة الصادقة، ونكبة البرامكة هي إحدى العِبر البالغات! هل لنا أن نبحث أسبابها على ضوء ما تعلمون من تاريخ القوم، ابحثوا الأسباب لأنتقل بنفسي عمَّا هي فيه! ماذا ترى أنت يا بن معروف؟ قُل ما عندك.

قال ابنُ معروف: أعجب لمِثل الإمام الطبري وهو مؤرخ نابه أن يذكر ما ذاع عن العباسة في كتابه، وحديث العباسة ظاهر البطلان! أفيرضى من هو في عقل الرشيد أن يعقد على أخته، ويسمح بأن تُجالس جعفر البرمكي في أمسيات صفائه ثم يُحرِّمها عليه، فيتلاقيا خفية عدة أعوام، وتنجب منه ثلاثة أبناء، وهو لا يدري ثم يعلم بعد سنوات، فيثور ثائره ويهيج هائجه ويُدبر الانتقام!

قال الوزير: أو كانت تشهد مجالس الرشيد مع جعفر، وهي حُبلى ذات حمل، ثم لا يلحظ الرشيد شيئًا! أفكانت تغيب أيام الوضع والنفاس وترجع بعد الغيبة شاحبة منهكة ثم لا يلحظ الرشيد شيئًا؟ أو يتكرر الحمل ثلاث مرات والرشيد في غفلة، قولوا غير هذه!

فأجاب ابن قريعة: إن من اطمأنوا إلى هذه القصة قد اختلفوا في اسم الزوجة، فمن قائل إنها ميمونة ومن قائل إنها العباسة، أفتكون أخت أمير المؤمنين وصاحبة مجلسه وأنسه، التي لا يطيق ابتعادها ليلة، مجهولة لا تُعرف حتى تختلف الروايات في اسمها هذا ما لا يُصدق.

قال القاضي التنوخي: ثم إذا كان الأمر أمر جعفر وحده، فلماذا نكب الرشيد الفضل- ويحيى وكل من له صلة بالبرامكة! لقد كان من المنتظر -إن صحت هذه الرواية أن يدبر أمرًا سريًّا لاغتيال جعفر وحده، ثم يمضي الأمر مع البرامكة على ما كان! ولكنه استأصل شأفة القوم، فمنهم من قتل ومنهم من سجن، وصودرت الأموال ونهبت الدور وتعددت الوشايات، فتعرض للنقمة كل من كان يتصل بهؤلاء من بعيد أو قريب.

قال ابن قريعة: حتى يحيى بن خالد وهو الذي دافع الهادي من أجل الرشيد، وتعرض لنقمته حتى كاد يموت، لقد حاول الهادي أن يعوق بيعة الرشيد ويقدم ولده عليه، ورأى من حاشيته من أيدوا موقفه، ولكن يحيى قد أبى واستطاع بحيلته أن يثني الهادي عن عزمه، وبذلك تمَّ الأمر للرشيد، ثم ولي هارون الخلافة، فلم يقم بأعبائها في سنواتها الأولى غير يحيى، ثم عاونه جعفر والفضل وبقية أولاده وأصدقائه ومواليه، أيمتد العقاب إلى يحيى إذا كانت المسألة خاصة بجعفر!

قال الوزير: مسألة العباسة إفك مفترى لا يثبت لنقاش، ولكن كيف ذكرها الطبري فيما ذكر من الروايات؟

فأجاب القاضي التنوخي: نحن نعرف أن المؤرخ من أمثال الطبري يذكر كل ما انتقل إليه قراءة وسماعًا، فهو يسرد الروايات المختلفة وفيها الحق وفيها الباطل

وكأنه يقول للناس: هذا ما انتهى إلي من الروايات ذكرتها لكم وعليكم أن تختاروا ما ترونه صحيحًا. وترفضوا ما ترونه غير صحيح!

فقال الوزير: وهل كل القراء نقاد محققون؟

قال القاضي التنوخي: إن غير الأكفاء من القراء همل لا يعبأ بهم المؤرخ، فقراءتهم تسلية وملء للفراغ، أما النقدة الأكفاء فهم الذين يعرفون الباطل من الصحيح، وإذا قرأوا حادثة مفتراه كحادثة العباسة ضربوا عنها صفحًا وعدوها من الأساطير.

فقال الوزير: أنتم مُحققون إذن، وأنتم قضاة عدول، وقد حكمتكم على قصة العباسة بالبطلان فلنبحث عن سبب آخر.

قال ابن قريعة: قد يكون إقبال الناس على البرامكة دون الرشيد سببًا قويًّا في اسئصالهم قبل أن يستأصلوه.

فردَّ الوزير المهلبي: أبسط فكرتك يا ابن قريعة دون إيجاز.

قال ابن قريعة: قد بالغ البرامكة في السخاء حتى ملكوا قلوب الناس، وكان كل ذي حاجة يتوجه إلى جعفر أو الفضل أو يحيى والدهما، دون أن يُفكر في لقاء الرشيد، حتى في أخصِّ خصائص الرشيد، وما حديث عبد الملك بن صالح بمجهول.

قال ابن معروف: أنا أجهل حديث عبد الملك بن صالح، فما هو؟

قال ابن قريعة: كان عبد الملك بن صالح العباسي ينفس على الرشيد خلافته، ويراه أحق بها منه؛ لأن قرابتهما لأبي العباس السفاح مؤسس الدولة الأول بمنزلة واحدة، وقد شاع تآمره وشهد عليه ولده وكاتبه، فأوقفه الرشيد موقف الاتهام، وضيق عليه حتى تباعد الناس عنه، ولم يجد بابًا للنجاة غير جعفر البرمكي، فأتاه متوسلًا متذللًا.

فقال له أبو جعفر: الزم بيتك، فقد عفا أمير المؤمنين عنك بمشورتي.

فقال عبد الملك: لا يكفي أن يعفو عني أمير المؤمنين، وألزم بيتي كالسجين، فتضيع مكانتي لدى الناس، ولكنني أحتاج إلى رضا أمير المؤمنين العملي، وذلك بقضاء ثلاثة أمور.

قال جعفر: فما الأمر الأول؟

فقال عبد الملك،: إن علي دَينًا قدره ألف ألف درهم ، أريد قضاءه.

فقال جعفر: يُحمل إليك الدَّين هذه الساعة، فما الأمر الثاني؟

فقال عبد الملك: أريد ولاية لابني، يشرف بها قدره، فهو في الصميم من بني العباس.

فقال جعفر: قد ولَّيت ابنك مصر، فما الأمر الثالث؟

قال عبد الملك: ولا تغضب عليّ؟

قال جعفر: وكيف أغضب وأنا أسألك وأنفذ.

قال عبد الملك: أرى أن يتزوج ولدي بعد ولايته مصر بابنة الخليفة، فإنها ابنة عمه وهو كفء لها.

قال جعفر: قد أذنت في هذا الزواج وسيتم.

فلمَّا كان من الغد قابل جعفر أمير المؤمنين وكتب التقليد بولاية مصر، وأحضر القضاة والشهود لعقد القران، كما رأى جعفر، فالذي يبلغ هذا المبلغ بحيث يزوج ابنه الخليفة، ويعلن انتهاء الأمر قبل أن يرجع إلى والدها، ثم يسرع الرشيد بالموافقة، لا جرم أنه يملك أمر الرشيد، ثم لا يملكه الرشيد، وهذا ما استبد بنفس أمير المؤمنين، حتى أرق جفنه، ودعاه إلى استئصال من يديرون الأمور، حتى في أخص خصائصه، وهو مذعن مطيع!

قال الوزير المهلبي: لي تعليق على هذه الواقعة، فقد يسمح جعفر بقضاء دَين عبد الملك بن صالح، وحمله إلى منزله سريعًا، فهذا ممَّا يُصدَّق دون اعتراض، فالوزير كريم والمال موفور، وقد يستطيع أن يضمن له ولاية ابنه على مصر، فقد كان هو الذي يولِّي ويعزل دون اعتراض، وهذه أيضًا ممَّا تُصدق وتقع في حيِّز الإمكان، أما أن يوافق على زواج ابنة الخليفة، ويتم الأمر في الصباح دون تردد، فهذه ممَّا تكون فوق الاحتمال، وأي رجل- فضلًا عن أمير المؤمنين- لا يرضى أن يبرم جعفر أمرًا في شأن ابنته دون قبولها قبل الإبرام، ودون الرجوع إلى الوالد قبل الموافقة المبدئية؟

وهنا قال القاضي التنوخي موجهًا الحديث إلى الوزير المهلبي: يا سيدي، إن الأمر في مسألة هذا الزواج من وجهة نظري معقول مقبول؛ لأن عبد الملك ابن صالح عباسي من صميم الصميم في بيت الخلافة، وقد كان يتآمر على أمير المؤمنين، ويهيئ الأعوان للثورة عليه، ولا بد أن يكون له أنصارًا شجعوه من أمراء البيت العباسي الذين لا يحملون المودة للرشيد بغيًا وحسدًا، ووراء هؤلاء تعاون من القواد والجنود والعامة! فإذا استطاع جعفر أن يعقد مصاهرة بينه وبين الرشيد، فإنه في هذه الحالة سيضمه إلى صفِّه دون تمرد، وسيقمع من يشجعونه على العصيان، وهذا في رأيي ما تحدَّث به جعفر إلى الرشيد حين خلا به، فقد جعل المسألة سياسية قبل كل شيء، ورأى أمير المؤمنين أن إطفاء الحريق عن طريق المصاهرة ممَّا يحسن، لا سيما والزوج ذو رحم ماسة بالزوجة، ولن يرضى الرشيد لابنته إلَّا بأمير من أمراء بيته، جريًا على التقليد المتوارث، وها هو ذا قد تحقَّق، فما في هذه المسألة من البعد.

فضحك الوزير المهلبي، وقال للتنوخي: تأتي بالغائبة دائمًا أيها القاضي! ولكن إذا كان مسعى جعفر ممَّا يرفع شأن الرشيد، ففيم العقوق والكفران؟

قال ابن قريعة: لو كانت المسألة مسألة الرشيد وحده لسار الأمر على وجهه الطبيعي، ولكن أعداء البرامكة داخل بيت الخلافة وخارجها قد أخذوا يهولون له أمر البرامكة، وقد حجَّ الرشيدُ مع جعفر ذات عام، فرأى موكب الوزير ملاذ الراجين، وملجأ القصاد، وسمع الدعوات للوزير مع التلبية والتكبير في الطواف، ونظر إلى موكبه، ومعه ابناه الأمين والمأمون، فلم يجد غير الرسميين مِن الحرَّاس والحُجَّاب، ثم جلس جعفر للعطاء فأنفق من المال أضعاف ما أعدَّه الرشيد وولداه للإنفاق، وجاء الواشي للرشيد، يُعْلمه أن الناس يقولون إن هارون معذور، إذ ليس في يده ما في يد جعفر، ومنهم مَن تورَّط فقال: «هارون شحيح مُمسك، وجعفر جواد كريم».

وتتابع الفضل بن الربيع ويزيد الشيباني وزبيدة زوجة أمير المؤمنين، تتابع هؤلاء في إثارة الرشيد واستهاجته، وقد زيَّنوا لبعض الشعراء أن يقول شعرًا يُعلي قدر البرامكة، ويُخفض قدر بني العباس، والواشي الحقود مثل الفضل بن الربيع وأنصاره لا يهدأ لهم بال، ولا شك أن الرشيد حريص على مُلكه، وقد جاءته النذر على ألسنة حاشيته تتوالى مُنذِرة مُهدِّدة، حتى جاءت مسألة يحيى بن عبد الله ابن الحسين، فكانت القشة التي قصمت ظهر البعير.

قال ابنُ معروف: وما مسألة يحيى بن عبد الله بن الحسين، فأنا لا أعلمها؟

فقال الوزير متضاحكًا: وماذا تعلم أيها القاضي، وأنت تجهل مسألة عبد الملك ابن صالح، وتحتاج لمَن يُوضِّحها إليك، ثم أنت تجهل مسألة يحيى بن عبد الله ابن الحسن! أخشى أن تجهل أن الرشيد قد نكب البرامكة! فتضاحك القوم مُتغامزين، حتى قال ابن معروف: إذا كنتُ أنا الذي وضَّحت أمر العباسة أخت الرشيد وفندت ما قيل عنها بالدليل، فكيف أجهل نكبة البرامكة! وقد سمعتم مني ما أقنع وكفى؟

قال الوزير: أنت أيها القاضي تتجاهل، وحاشا لله أن تجهل، وسيتَّولى ابن قريعة تفصيل أمر يحيى بن عبد الله ما دام قد جعله القشة التي قصمت ظهر البعير.

قال ابن قريعة: كان البرامكة يميلون إلى حقن الدماء بعامة، ودماء أهل البيت من العلوية بخاصة، وحين ثار يحيى بن عبد الله بن يحيى ببلاد الديلم، واجتمع حوله العدد الكثير فزع الرشيد فزعًا شديدًا؛ لأن ثورة العلوي ليست كثورة الخارجي، فالعلوي قريب من نفوس الناس لصلته برسول الله، ولأنه في نظر الأكثرية صاحب حق اغتصبه العباسيون، ففكَّر الرشيد فيمن يقود الجيش لمحاربته ثم اهتدى إلى الفضل بن يحيى، وكان الفضل من المروءة والنبل بحيث لم يستسغ أن يجري دماء المسلمين قبل أن يبذل كل حيلة في منع القتال وترجيح السلام، فأخذ يكاتب يحيى بالأمان وبأنه سيلقى من الدولة كل احترام ورعاية، إذا كفَّ عن القتال، وأن يضمن الرشيد في الوفاء، وله المال الذي يرضيه والمنزل الذي يبتغيه.

وما زالت الرسل تجئ وتذهب في المفاوضات حتى رضي يحيى وسلَّم نفسَه للفضل ورجع به للرشيد، وقد سُر الرشيد بما كان من الصلح، وعدَّ ذلك مكرمة للفضل لا تُجحد، ووفَّى بالأمان وبما طلب يحيى من المنزل والمال، ولكن أعداء البرامكة رأوا في حقن الدماء من الفريقين ما اصطادوا به في الماء العكر، فأوعزوا للرشيد أن يقبض على يحيى وأن يسجنه بمنزل تحوطه الرقباء والشرطة حتى لا يستطيع الإفلات.

وعلم الفضل بما حاوله الرشيد، فساءه أن ينقض أمير المؤمنين عهده، وجعل يذكره بالوفاء، فاغتنم الفضل بن الربيع هذه الفرصة ليقول للرشيد: إن الفضل متواطئ مع يحيى ضد الخلافة، ورأى الرشيد أن يكون صحيح الموقف

أمام الفضل فقال: لا ضير على يحيى بن عبد الله حيث سأوكل به أخاك جعفر، ليكون محبسه لديه فهو صاحب أمره ولن يُضار.

وفي إحدى الليالي زار جعفر يحيى في محبسه، فقال له اتق الله يا جعفر في أمري ولا تتعرض لأن يكون خصمك غدًا رسول الله يوم العرض حتى تؤذي أهل بيته، فوالله ما أحدثت حدثًا ولا جئت بمنكر، فرقّ قلبُ جعفر، وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله، قال يحيى: وأنَّى أذهب، وأنا لا آمن أن أُعتقل بعد قريب فيُرد بي إلى أمير المؤمنين، فوجَّه جعفر من سار معه إلى حيث يريد ليحميه من غوائل الطريق، وكان للفضل بن الربيع عين على جعفر، فجاءه النبأ، وسرعان ما انتقل به إلى الرشيد ففوجئ به، وانتظر حتى جاء جعفر للغداء معه، فقال له: ما فعل يحيى بن عبد الله، قال جعفر: هو بحاله عندي يا أمير المؤمنين، فقال الرشيد: بحياتي هو لديك؟ فأحجم جعفر لأنه كان يعلم أن وراء السؤال ما وراءه، ثم قال: لا وحياتك يا سيدي، لقد أطلقته حين تأكدت ضعفه وأنه لا شيء عنده ولا مكروه لديه، فقال الرشيد ماكرًا: لم تعد ما في نفسي، فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد يتوارى عن وجهه، ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة، إن لم أقتلك، ومِن هنا بدأ يتنمر للقوم، حتى ليحيى والد جعفر الذي جالد الهادي في سبيل خلافته، ثم دبر له الأمر بعد أن تولى إمارة المؤمنين! هذا ما كان من أمر يحيى بن عبد الله مع جعفر..

قال التنوخي: أعجب كل العجب لمسلك جعفر حين أطلق يحيى على غير رغبة مولاه، وجعفر صاحب ذكاء وفطنة، فكيف غاب عنه هول ما صنع؟

فرد الوزير المهلبي يقول: كان جانب المروءة لدى جعفر أقوى من جانب السياسة، وقد ظنَّ أن الرشيد بما يحمله له من الود سيطمئن إلى وجهة نظره حين

يعلنها إليه، وما له لا يظن ذلك والرشيد لا يتغذى إلَّا معه إذا كان ببغداد، كما كانا يتبادلان لباس الحلة الواحدة، بحيث تُرى اليوم على الرشيد وتُرى في الغد على جعفر، فإذا تأثل الحب إلى هذه الدرجة فجعفر معذور حين يعلم أن الرشيد لن يشك في نيته حين يطلع على حقيقة ما كان!

على أن جعفرًا قد أدرك عاقبة أمره حين رأى من أعمال الرشيد بعد إطلاق يحيى بن عبد الله ما يدل على الانقباض والتربص، بل إن والده يحيى أدرك ذلك بما لا شك فيه، وحاول أن يرتق الصدع فما استطاع، لقد تغيَّر الرشيد على يحيى ولم يقع فيما وقع فيه جعفر من المؤاخذة، لا لشيء سوى ما اعتزمه من الخلاص من يحيى وأولاده جميعًا، فيسكت زبيدة ومن حولها من الأتباع.

قال التنوخي: ويلي من الرشيد! لقد قرأت بعضًا من مواقفه الأخيرة مع يحيى الذي كان يدعوه بأبيه، ويقول أمام الناس (يا أبي) دون تحرج، قرأت بعض ما رحمت به يحيى، إذ لاقى الهوان على كبر السن وضعف الشيخوخة، لاقاه أمام الناس فعرف مغزاه وأدرك مرماه.

قال الوزير: لقد شوَّقني القاضي فليُفصح.

قال القاضي التنوخي: روى بختيشوع الطبيب عن أبيه جبريل قال: إني لقاعد في مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلَّم عليه، ردَّ ردًّا ضعيفًا، فعلم يحيى أن أمرهم قد تغير، ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال: يا جبريل أيدخل عليك وأنت في منزلك أحد بغير إذنك؟ فقلت: لا ولا يطمع في مثل ذلك، قال الرشيد: فما بالنا يدخل علينا بلا إذن؟ فقام يحيى فقال: يا أمير المؤمنين قدمني الله قبلك، والله ما ابتدأت ذلك الساعة، وما هو إلا شيء كان خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكري

حتى كنت أدخل عليه وهو في فراشه، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب، وإذ علمت فإني من الآن سأكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة، إن أمرني سيدي بذلك! فاستحيا الرشيد، وأطرق إلى الأرض خجلًا، ثم قال: والله ما أردت ما تكره، ولكن الناس يقولون.

وهناك قصة أخرى مشابهة: فقد كان يحيى بن خالد إذا قدم على الرشيد نهض الغلمان له واقفين، فقال الرشيد لمسرور الخادم: مُر الغلمان إذا دخل يحيى الدار ألا يقوموا له، فدخل الرجل الكبير فلم يقم له أحد واربد لونه، وكان الغلمان والحُجاب إذا رأوه أعرضوا عنه، فكان ربما استسقى الشربة من الماء فلا يسقونه إلَّا بعد أن يكرر الطلب مرارًا.

هذه بعض مواقف الرشيد ممَّن كان يدعوه أباه! فكيف بسواه، إن النذر تجمعت فتلبد الأفق واكفهر الجو وتمت المأساة!

وهنا صاح ابن معروف: بربكم لا تعرضوا إلي شيء من تفصيل النهاية الأليمة، فأنا أشعر بالضيق، حين أرى القتل والغدر والسجن والجوع والعري نزل بقوم كانوا في الأوج فصاروا إلى الحضيض.

قال الوزير: وإذا شئنا أن نتحدث فإن الوقت لا يسمح، ولكني استفدت كثيرًا من حديث البرامكة، وأعظم ما أفدته أنه شغلني بعض الوقت عما أنا فيه! بل جعلني أعتقد أن ما أنا فيه شيء هيِّن بالقياس إلى ما عرفت من الأنباء!

ونهض الوزير فنهض القضاة من خلفه وفي كل صدر شجون، وفي كل عقل عظة واعتبار.

❁❁❁

إقدام عمرو

كـان جماعـة إخـوان الصـفا ببغـداد يجتمعـون كـل ليلـة لمناقشـة المسـائل الفلسفية، وكان منهم أبو سليمان البستي، وزيـد بـن رفاعـة، وأبـو الحسـن العـوفي، وأبـو أحمـد المهرجـاني، وأبـو علـي بـن هـارون، وكلهـم قـد قـرأ كتـب الحكمـة والمنطق، وحاول أن يكون له رأي في معضلات الفلسفة، ومشكلات الطبيعـة، ثـم سافر أبو أحمد وأبو علي إلى الحج، فآثر مَن بقي ألَّا يخوضـوا في مسـائل الفلسـفة حتى يرجعا، فقد يكون لديهما ما ينير الطريـق، وإذا كانـت الرسـائل التـي يـدونونها تعبر عن آرائهم جميعًا فلا بد أن يكتمل العقد.

قال أبو الحسن العوفي لأخويه: وهل سنجتمع هذه الليالي دون حديث.

فقال أبو سليمان: نتكلم في غير موضوع الفلسفة، نتكلم في الأدب والتاريخ!

قال زيد: أنرتفع أم ننخفض.

فصاح أبو سليمان: عجبًا يا زيد مـاذا تصـنع إذا ضـقت بـأمر الفلسـفة في بعـض غوامضها الحالكات، أما تلجأ إلى ديوان شعر يروح عنك!

فقال أبو الحسن: كنت الظهيرة أقرأ ديوان أبـي تمـام وقـد وقفـت عنـد قولـه في مدح أحمد بن المعتصم:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

إذ علمت أنهم يروون عن الفيلسـوف يعقـوب بـن إسـحق الكنـدي، وكـان مـن جملة حاشية الأمير أنـه صـاح في أبـي تمـام: الأمير فـوق هـؤلاء، أيجـوز أن تُشـبهه بأجلاف العرب؟ قرأت ذلك فاستنكرته من أستاذنا الفيلسوف، لأن أقل واحد من هؤلاء أفضل من الأمير! ومن والد الأمير.

قال أبو سليمان: إخال أن مثل يعقوب الكندي في سعة قدره وعلو كعبه لا يتورط في هذا الملق الرخيص، وإنما أُضيف إليه ما لم يقل، وقد يكون المعترض سواه، فرأى المتزيدون أن يرتفعوا بالاعتراض إلى الكندي.

قال زيد: إذا كان لا بد من حديث الأدب والتاريخ فلنقف عند هذا البيت في حديث الليلة.

فقال أبو الحسن: أوتكفي ليلة للحديث عن أربعة من الكبار؟ ولكل منهم تاريخ حافل يجب أن يُمحص على وجه دقيق.

فقال أبو سليمان: لنجعل لكل واحد ليلة، ولنبدأ بما بدأ به أبو تمام!

قال زيد: نبدأ بعمرو: إنهم يقولون: إن المراد به عمرو بن معد يكرب الزبيدي وأنا أراه عمرو بن العاص.

قال أبو سليمان: لا أظن أن أبا تمام قد عنى عمرو بن العاص؛ لأن الممدوح عباسي، والعباسيون والعلويون معًا يضيقون بكل من ناصر الأمويين، وكان عمرو ابن العاص حليف معاوية الأول، ولكن لماذا لا يكون عمرو بن معد يكرب، وهو فارس مشهور.

قال زيد: هو أضعف الأربعة الذين ذكرهم أبو تمام، فلا يُقاس بحاتم أو الأحنف أو إياس.

قال أبو الحسن: وهل يلزم أن يكون الأربعة في مستوى واحد، ليكونوا كأصابع اليد تختلف وتؤدي عملها!

قال زيد: لعمرو مثالب كثيرة، وله فضائل كثيرة، بحيث توازي الحسنات السيئات، أما الثلاثة الآخرون فلا تكاد تعد عليهم نقيصة.

وما تستوي الرِّجلان؛ رِجل صحيحة ورِجل رمى فيها الزمان فشُلَّت.

قال أبو الحسن: لنذكر محاسن عمرو أولًا، فهو صاحب الغارات الذائعة في الجاهلية والإسلام، وقد أسلم على يد رسول الله.

قال زيد: ثم ارتد.

قال أبو سليمان: ثم أسلم وأبلى بلاء حسنًا، في حروب فارس، ومات على الإسلام.

قال زيد: تطيران بالكلام طيرانًا، كلمة من هنا وكلمة من هناك، نريد تفضيلًا شافيًا، فلسنا رواة طرائف ولكننا حكماء.

قال أبو الحسن: أعرف أن عمرو بن معد يكرب كان فارس اليمن وبطلها المعلم، وقد قدَّموه على زيد الخيل!

قال زيد بن رفاعة: قدَّموه في بعض مواقف القتال فحسب، أما في المروءة والأريحية فزيد الخيل سيده، وقد سمَّاه رسول الله ﷺ زيد الخير، وقد سمعتم أني أقول في بعض مواقف القتال وإخال أن حزم زيد الخيل كان يمنعه من التهور وله رحمة تدفعه إلى التوقف، أما عمرو فلا يبالي إلَّا بأن يُذكر بأنه قتل وأنه صرع وأنه نازل!

قال أبو الحسن: نحن الآن في ذكر محاسن عمرو، فلا تعجل يا أخي، لقد كان عمرو بن معد يكرب فارس اليمن وبطلها الصنديد، وفد على رسول الله ﷺ عند رجوعه من غزوة تبوك، ومعه فروة المرادي، فاختار رسول الله فروة أميرًا على زبيد ومراد ومذحج، فاغتاظ عمرو، وارتدَّ عن الإسلام مع من ارتد من أهل اليمن، فوجَّه رسول الله مَن حارب المرتدين، فهُزم عمرو مع أصحابه وفرَّ تاركًا ذوي رحمه ومنهم أخته (ريحانة)، وفي هذه المعركة سقطت منه (الصمصامة)! ويُروى أنه جعلها فداء لأخته (ريحانة)؛ إذ كان عمرو بن العاص قائد المسلمين، وآلت إليه أخت عمرو، فاحتال حتى افتداها بسيفه.

قال زيد: وما الصمصامة التي فاض حديثها، أليست سيفًا كالسيوف؟

قال أبو سليمان: نعم، ولكنها سيف عمرو، أذكر أن عمر بن الخطاب قال لعمرو معد يكرب: تذكر الصمصامة وتلهج بها، وقد رأيتها فلم تزد شئيًا عن غيرها.

فقال عمرو: ولكنك لم تر اليد التي تضرب بها يا أمير المؤمنين، وكان في عمرو جرأة، فاحتد النقاش، فأغلظ له عمر، فقال عمرو على البديهة:

أتوعدني كأنك ذو رعين بأنعم عيشة أو ذو نواس

فتراجع عمر وصالحه!

قال زيد: إن الذي يفر من الميدان ويترك أخته ليس البطل المعلم؟

فردَّ أبو سليمان: تعترض دائمًا في أمر عمرو، كأنك لا تعلم أن الفرار في موضعه حزم، وأن الإقدام في غير موضعه بلاء.

قال زيد: وما عندك من محاسنه؟

فأجاب أبو سليمان: عندي ما عند المؤرخين جميعًا، فقد ذكروا أن عمرًا يوم القادسية وجد المسلمين قد أحجموا بخيولهم أمام الفيلة، وفيهم مَن لم يشهدها من قبل، وتقدمت الفيلة تُحطِّم من أمامها وما أمامها، وهنا تقدّم عمرو بن معد يكرب فضرب الفيل بسيفه ضربة شقت خرطومه فطار سريعًا من أمامه، وولى الفيل الطعين فولَّت خلفه الفيلة.

قال أبو الحسن: لقد قيل هذا عن المثنى بن حارثة من قبله! إذ ضرب الفيل ضربة هائلة فذُعر بفارسه، وقال الفرزدق يفتخر بالمثنى:

ومنَّا المثنى ضارب الفيل سيفه ببابل إذ في فارس حكم بابل

فأجاب أبو سليمان: إذا كان عمرو مثل المثنى فهو فخر له، فالمثنى بطل مغوار، وقد سبق المثنى، واحتذاه عمرو، فما ينقص الاحتذاء شئيًا من بطولة صاحب الصمصامة!

قال سليمان: الحق ما قلت، وله موقف في فارس أبلى فيه بلاء حسنًا، ففي يوم أرماث كبَّر سعد بن أبي وقاص التكبيرة الأولى للقتال فكبَّر خلفه المسلمون، وانطلق عمرو بن معد يكرب يحث الناس أن يقتدوا به، ويمضوا خلفه، ولكن فارسًا ضخمًا من أبطال العجم، هجم على المسلمين، وجعل يضرب ذات الشمال وذات اليمين، حتى أوقع الذعر في النفوس وهابه القوم، فتباعدوا عنه، ورأى ابن معد يكرب هيبة القوم وشجاعة الفارس العجمي، فاتجه إليه وأوقع سيفه من يده بضربة حاسمة، ثم دفع منطقته إليه فضمه بها إليه، واعتنقه حتى صار بين يديه فجعل يتخلص منه دون جدوى، وكان عمرو كبير الحجم إلى درجة تلفت النظر، حتى قال ابن الخطاب مستعظمًا منظره حين رآه لأول مرة: إن خالق الناس وخالق ابن معد يكرب إله واحد!! أقول: لم يطق العجمي على قوته خلاصًا من ساعدي عمرو، فكسر أضلاعه ورمى به إلى الأرض، وصاح بالمسلمين: هيَّا فافعلوا بأعدائكم هكذا! وتحمَّس القوم وتم النصر.

وفي هذه المعركة سقط رستم جريحًا يعاني سكرات الموت بضربة من عمرو، إذ كان في الميدان يتقدمه أسوار من أكابر الأساورة يحرسه ويقيه، وللأسوار براعة في ضرب النشاب، فكان يبعث بسهمه فيُصيب، ولا يجرؤ أحد أن يتقدم إليه؛ لأن السهم يميت لساعته، حتى ظن المسلمون أن سهامه مسمومة، فهي تجرح بحدها وتقتل بسمها حين تصيب، وتفرَّق الناس عن رستم إذ حوله الأسوار كحصن منيع، وهنا تقدم عمرو، فقال له المسلمون: رفقك يا أبا ثور، فلم يحجم، وأحس به الأسوار فرماه بسهم مال عنه عمرو فوقع في بطن فرسه، فسرعان ما ترجل عمرو، وعاجل الأسوار بسيفه قبل أن يتهيأ للرمية الثانية، ثم حمله بين ساعديه وألقاه على الأرض، وسلبه ما كان يحمل من ذهب وديباج! وقد افتخر عمرو بما

صنع فقال:

قد علمت سلمى وجاراتها ما قـطر الفـارس إلا أنا

ولعلَّنا نعرف أن عمر بن الخطاب أمد سعد بن أبي وقاص بثلاثة أبطال، أحدهم عمرو بن معد يكرب، وقال له: كل بطل بألف، ولن تخيب نظرة عمر!

قال أبو الحسن: وإذا كان لابن معد يكرب هذه المآثر فما الذي يُؤخذ عليه حين يكون دون حاتم والأحنف وإياس! ممَّن ذكرهم أبو تمام!

قال زيد بن رفاعة: يُؤخذ عليه كثرة الكذب، إذ أن الشجاع الصنديد ذو مروءة تمنعه الكذب، مثل علي بن أبي طالب.

فصاح أبو سليمان: تخطئ حين توازن أحدًا بعلي كرم الله وجهه، لأن فضائله الخلقية تسري في دمه، فهي مكارم تتجسد وبمكارمه انهزم في دنيا اللؤم والهوان!

قال زيد: ولكن عمرو بن معد يكرب كان يكذب كثيرًا، ووجه بكذباته فما ارتدع!

فقال أبو الحسن: وجدت مجالك فتحدَّث عن بعض هذه الأكاذيب!

فأجاب زيد: روى أبو عمرو بن العلاء قال: وقف عمرو بن معد يكرب يومًا بالمربد يتحدث عن شجاعته فقال: غزوت في الجاهلية بني مالك، فأقبلوا متحمسين خالد بن الصعقب، فحملت عليه بالصمصامة فأخذت رأسه، ورفعتها عالقة بسيفي، فقال أحد السامعين: مهلًا يا عمرو ها هو خالد بن الصعقب يجلس أمامك، وقال خالد: مهلًا يا عمرو فقد فررت يومها مني، فلم يستحي عمرو وقال: أنا أتحدث لأُرهب الناس بمثل هذه الأخبار، فتسير لي هيبة بين العرب أفزع بها من يهم بالنزال، فقال خالد: إذن أنت شجاع في الحرب والكذب معًا. قال عمرو: وما علي.

ثم قال زيد: وتحضرني عنه نادرتان أخريان، فقد تحدث عن نفسه فقال: خرجت مرة أريد الغارة فبينما أنا أسير إذا بفرس مشدود ورمح مركوز، وإذا رجل جالس وكأنه أعظم ما يكون من الرجال خلقًا، وهو محتب بسيفه، فقلت له: خذ حذرك فإني قاتلك! وقال ومن أنت؟ قلت: عمرو بن معد يكرب الزبيدي، فشهق شهقة فمات! فهذا أجبن من رأيت!

قال أبو الحسن: وهذه كالكذبة الأولى فهات الثالثة.

قال زيد: قال عمرو خرجت يومًا حتى انتهيت إلى حي فإذا أنا بفرس مشدود ورمح مركوز، وإذا صاحبه في وهدة يقضي حاجته، فقلت: خذ حذرك فإني قاتلك، قال من أنت؟ قلت أنا عمرو بن معد يكرب الزبيدي، قال: يا أبا ثور ما أنصفتني، أنت على ظهر فرسك وأنا في بئر، فأعطني عهدًا أنك لا تقتلني حتى أركب فرسي وآخذ حذري، فأعطيته عهدًا على ذلك، فخرج من الوضع الذي كاد فيه حتى احتبى بسيفه وجلس فقلت له: ما هذا؟ فقال: ما أنا براكب فرسي ولا مقاتلك، فإن نكثت عهدك فأنت خائن، فتركته احترامًا للعهد فهذا أحيل من رأيت!

قال أبو سليمان: يُخيل إليّ أن في الناس من يحلمون وهم متيقظون فيتصورون أفعالًا لم تحدث، فإذا امتلأت بها خواطرهم تحدثوا عنها كأنها حصلت بالفعل، وعمرو في رأيي من هذا الطراز.

فرد زيد بن رفاعة: إذن أنت تبيح الكذب للناس بدعوى أنهم يحلمون ثم يعتبرون الحلم واقعًا؟

قال أبو سليمان: أأقول لك ما قال الرجل المحتال لعمرو، ما أنصفتني؛ لأني لا أبيح الكذب، وحاشا أن أكون! ولكني أُعلل كذب أمثال عمرو، وتعليل الشيء غير إباحته.

قال زيد: لقد هجت كبيشة أخت عمرو أخاها، حين قبِل الفدية في مقتل أخيه وأخيها عبد الله فقالت من أبيات:

ودع عنك عمرًا إن عمرًا مسالم وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم

فجابهه أبو سليمان قائلًا:

هذه حادثة مشتهرة، ولعل عمرًا كان في نفر قليل من قومه وكان أعداؤه من بني مالك بن مازن أوفر عددًا وأكثر سلاحًا، فآثر السلامة؛ لأن مثله في ذيوع ذكره لا يقبل الضيم غير مضطر! هذا ما أراه.

فهمَّ زيد أن يعقب، فقال أبو سليمان لقد اكتفينا بما ذكرنا الليلة عن عمرو ابن معد يكرب، وبقي أن نتحدث في ليالٍ ثلاث آتيات عن حاتم وأحنف وإياس، لكل علم ليلة! وبذلك ننسى الفلسفة إلى حين.

قال أبو الحسن: وفيمن نتحدث الليلة المقبلة.

فرد أبو سليمان: نتحدث عن حاتم وفقًا لترتيب أبي تمام، فبيته الشائع هو الذي حدد مجرى الحديث! وعلى بركة الله.

ثم نهض القوم منصرفين.

❁❁❁

سماحة حاتم

جاءت الليلة الثانية، فاجتمع إخوان الصفا ليتسامروا عن حاتم، فقال أبو سليمان البستي: إني أحسّ بأريحية تملأ نفسي هذه الليلة، فلعل حاتمًا بنوادره الرائعة أوحى بهذه الأريحية إليّ؛ لأن أحاديثه ترتفع بالإنسان إلى أعلى من مستواه وليست أحديث كرمه فحسب، بل شعره أيضًا يسمو بنفس قارئه؛ لأنه هتاف بالفضائل.

قال زيد بن رفاعة: عهدت أبا سليمان يشيح عن الشعر والشعراء إلى فلسفة الحكماء فماذا جرى اليوم؟

فقال أبو سليمان: ليس كل الشعر ممَّا أشيح عنه، والشعر كلام يحمل المعاني الهابطة كما يحمل المعاني العالية، فما ارتفع بقارئه من هذا الضرب من الكلام فهو مرغوب مطلوب! قد أكره شعر المجون وشعر النفاق الكاذب وشعر الغزل الفاحش وشعر الهجاء المُسف، أما شعر الفضائل الرفيعة والمُثل النبيلة فكيف يشيح عنه مُفكر ذو رسالة؟ إذا سمعنا قول حاتم الطائي مثلًا:

إذا كنتَ ربًّا للقلوص فلا تدع ... رفيقك يمشي خلفها غير راكب

أنِخها فأردفه فإن حملتكما ... فذاك، وإن كان العقاب فعاقب

فماذا نقول فيه؟ نقول: إنه داع للتعاون الإنساني، في أجمل صوره، وهل يستطيع بدوي يعيش في الصحراء أن يأتي بأجمل من هذا المشهد في حب الناس وتقديم المساعدة لمن يحتاج.

فشخص أبو الحسن العوفي ببصره كمَن يريد أن يتحدث، فقال له زيد ابن رفاعه: كأن لديك ما تقول؟

فقال أبو الحسن: لقد ترك أبو سليمان البيت الثالث وهو أولى من سابقيه حيث يقول حاتم:

وما أنا بالساعي بفضل زمامها لتشرب ماء الحوض قبل الركائب

فهو في هذا البيت يُؤثر على نفسه سواه؛ إذ يترك المجال لإخوانه كي يستقوا وتشرب ركائبهم قبل أن يشرب وتروى ناقته، وقد ينفذ الماء قبل أن يرد، وهو بذلك يُؤثر العطش متحملًا مجاهدًا، أما البيتان الأولان فنصّ في المشاركة المتكافئة، فهو يركب كما يركب رفيقه، ولا خوف عليه ألَّا ينال نصيبه! ومن هنا رجح لدي البيت الثالث!

قال أبو سليمان: إنك لنقَّاب، ولكننا حين نحكم على شعر حاتم لا نحكم على نَصٍّ دون نص، وقد طالعنا كل ما وقع لدينا من شعره فعرفنا اتجاهه الأسمى ولا يضيرنا أن نأتي بنَصٍّ ونترك نصًّا يماثله! فالمراد الاستشهاد على أن طرافة اتجاه أبي الحسن لا تخفى فهو متأمل فاحص.

قال زيد: الشعر شعور، والشعور النبيل يرفع صاحبه، ولا يهمنا أن يكون الخاطر الذي يتحدث عنه الشاعر مألوفًا يفد على الذهن دون تعمق، فحاتم إذ يقول:

رُبّ بيضاء فرعها يتثنى قد دعتني لوصلها فأبيت

لم يكن بي تحرج غير إني كنتُ خدنا لبعلها فاستحيت

لا يجيء بمعنى طريف، ولكنه يجيء بخاطر شريف، هذا الخاطر ممَّا يعز تنفيذه دون مجاهدة، وأنا أرى أن مثل حاتم لم يجاهد نفسه كثيرًا؛ لأنه طُبع على المروءة طبعًا لا تصنَّع فيه، فهو يرى الشرف أبقى من اللذة، بل يرى الشرف لذة دونها كل ملذات الحياة، وهذا ما يُحبِّبني في مثل هذين البيتين.

قال أبو سليمان: سنتحدث عن الشاعر، أم سنتحدث عن الكريم المفضال!؟

فردَّ أبو الحسن: إن حاتمًا شاعر كبير، ولكن شهرته بالكرم قد أنست الناس غرر أبياته، وقد بدأتُ أنا الاستشهاد بشعره؛ لأحفظ له مكانه الرفيع بين الشعراء، وها هو ذا زيد يستشهد بأنموذج آخر، على أن الناس يروون له الكثير، ولكنهم يقفون عند السطح فيما يروون، ويكتفون بالمعنى الظاهر حين يشرحون! وليتهم يتعمقون!

سكت القومُ قليلًا، وكأن كل واحد قد سرح بفكره في اتجاه خاص، حتى إذا مضت برهة من الزمن، قال أبو سليمان: لننتقل إلى أخبار حاتم بعد أن استشهدنا بشعره، وأنا أسأل: أمَا دخلت المبالغة كثيرًا ممَّا روي عنه! وكيف نميز بين الدخيل والأصيل.

فصاح زيد بن رفاعة يقول: عجبًا أبا سليمان، أمثلك يقول: كيف نميز بين الدخيل والأصيل، وأنت الذي يقرأ دقائق الفلاسفة ذات العمق الموغل، فيعرف صحيحها من الزائف، وهل الأخبار التي تروى عن حاتم غير تاريخ يتداول! وأين ينزل التاريخ من منازل الفكر إذا قيس بما تزاول من المنطق والحكمة يا أخي؟

قال أبو سليمان: هناك أخبار يظهر عوارها الواضح دون أدنى توقف لبُعدها عن المألوف المُشاهَد، وتلك لا تحتاج إلى بحث، ولكن أخبارًا أخرى تدخل في حيز المعقول وقد تكون ممَّا لم يحدث، فما موقفنا منها، ولا نملك أدلة الإثبات الجازم، كما لا نملك أدلة النفي الصريح، أتعرفون قصة أبي الخيبري عن حاتم، أنها ظاهرة البطلان بداهة، ولكن غيرها ممَّا لا نملك له دفعًا، فماذا نقول في شأنه!

قال زيد بن رفاعه: ولكنى لم أعرف قصه أبي الخيبري هذه، فما فحواها؟

قال أبو سليمان: يزعمون أن أبا الخيبري مَرَّ بقبر حاتم مع رفاقه، فضرب خيمته لديه، وقال: أقر أضيافك يا حاتم فنحن بجوارك، ثم منام، ولكنه هبَّ مذعورًا يقول: رأيت في النوم أن حاتمًا نهض من قبره، وذبح ناقتي، ثم اتجه إلى مبرك الناقه فوجدها ذبيحة دمها يسيل، فقال أصحابه: إذن قام حاتم بواجبه وقراك وقرانا معًا، فأخذوا يُهيئون اللحم، وظلوا معرسين قرابة يوم، وحين هموا بالرحيل وجدو صائحًا يهتف: ألا انتظروا، فإذا عدي بن حاتم ومعه رحلتان يركب واحدة، ويقود الأخرى، ويقول: إن أباه جاءه في نومه وأمره أن يحمل ناقة إلى من يجلسون لدى قبره لتكون عوضًا عن تلك التي ذُبحت، ففرح أبو الخيبري وأخذ راحلة مكان راحلة.

قال زيد: إذا كانت هذه الواقعة ظاهرة التلفيق، فلها من ناحية أخرى مغزاها الصحيح، وهو أن حاتمًا قد اشتهر بالكرم، ولم يردّ طارقًا في حياته، ومن ثم تخيل من اخترع القصة أن كرم حاتم قد امتد إلى ما بعد وفاته، والخيال يُجسد الحقيقة، ولا يذهب بمضمونها!

قال أبو الحسن: هذا صحيح، وإذا كان المثل قد ضُرب بحاتم في مضمار الكرم، فإن شيوع المثل السائر لن يكون عن تزيد وأفعال، وبخاصة إذا ورد لحاتم ذكر طيب في حديث النبوة، ورسول الله ﷺ أكبر مِن أن يُخدع بحديث موهوم، ولكنه عرف مكانة حاتم فأقرَّها، فقد علمنا أن رسول الله قد وجه إلى طيئ بعثًا من جنده بقيادة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فصبح القوم، واستاق خليهم وسباياهم، فلما عرضت الأسرى على رسول الله نهضت (سفانه) بنت حاتم فقالت: «يا محمد، هلك الوالد، وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلي عنِّي ولا تشمت بي أحياء العرب، فإن أبي كان سيد قومه، يفك العاني، ويقتل الجاني،

ويحفظ الجار، ويحمي الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمل الكل، وما جاءه أحد في حاجه فرده خائبًا، أنا بنت حاتم الطائي».

فقال النبي ﷺ: «يا جارية، هذه صفات المؤمنين حقًّا، لو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه، خلو عنها، فإن أباها كان يُحب مكارم الأخلاق». ثم التفت ﷺ إلى صحابته فقال: «ارحموا عزيز قوم ذُلّ، وغنيًّا افتقر، وعالمًا ضاع بين جُهَّال»، وامتنَّ عليها بقومها فأطلقهم تكريمًا لها!

ثم أطلق الرسول أسارى طيئ من أجل حاتم!

قال زيد بن رفاعة: لقد أحببت حاتمًا لهذه الصفات، وما أريد أن ينقطع الحديث عنه فهل من مزيد؟

قال أبو سليمان: أول ما قرات من سيرة حاتم أن امرأته (ماويه) تحدثت عنه، فقالت: أصابتنا سنة اقشعرت لها الأرض، واغبر أفق السماء، وضنَّت المراضع على أولادها، وأيقنَّا بالهلاك، وإنا لفي ليلة باردة، إذ تضاغى صبيتنا جوعًا: عبد الله وعدي وسفانة، فقام حاتم إلى الصبيين، وقمتُ إلى الصبية، نتعلل بالحديث، وأدركت حرج حاتم، فتناومت، فلمَّا مضى جزء من الليل، سمعت طارقًا يطرق، فنهض حاتم يقول: من هذا، فقال الطارق: أنا جارتك فلانة، أتيتك من عند صبية يتعاوون عواء الذئاب، فما وجدت معولًا إلَّا عليك، يا أبا عدي، فقال حاتم: أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم، فأقبلت المرأة تحمل اثنين، ويمشي بجانبها أربعه كأنها نعامة حولها أولادها، فقام حاتم إلى فرسه، فذبحه، ثم كشط عن جلده، ودفع المدية إلى المرأة وقال لها: شأنك، فقمتُ وقمنا نشوي اللحم، وأكلنا جميعًا دون حاتم؛ لأنه جعل يسير في بيوت الحي ويصيح: هبوا أيها القوم فلدينا ما يُشبع، ثم جلس في ناحية منعزلة ينظر إلى الآكلين، فلا والله ما ذاق من فرسه مضغة!

قال أبو الحسن: هذا عجيب! لقد جاع أولاد حاتم، وجاعت أمهم فما صنع لهم شيئًا، حتى إذا استنجدت به جارته، عصفت به النخوة، فذبح فرسه الوحيد، وأكل جميع من حوله سواه، أفكان أولاد الجارة أعز عليه من أولاده هو؟

فأجاب أبو سليمان: ذهبت بعيدًا يا أبا الحسن؟ فحاتم والد حنون، ولكنه قدر في نفسه أن امرأته وأولاده سيصبرون حتى الصباح، ولن يشكُّوا في حبه ومقدرته! أما المرأة الغريبة وقد جاءت تتذلل وتضرع أمام سيد جواد فلا بد أنها ستدفعه إلى العمل السريع، وأي عمل يُتاح في ليلة شاتية سوداء! لم يجد أمامه غير الفرس فذبحها! وأطعم الناس! وجلس بعيدًا ينظر!

قال زيد: وهل نصدق أنه - وهو الجائع - امتنع أن يصيبه من طعامه وقد أكل منه جميع جيرانه.

قال أبو سليمان: نسيت شيئًا، نسيت لذة الكرم عند الكريم، إن هذه اللذة ذات العذوبة الشهية تنسى صاحبها قسوة الجوع، وتملأ نفسه شبعًا وريًّا وقناعة! إنه كان يحس إذا مضغ ضيفه الجائع لقمة من طعامه أنه هو الذي يأكل، وللكرم أريحية ترنح الطود، فكيف بشاعر كحاتم! لقد بلغ من سخائه أن ضاقت به امرأته - وهي ذات كرم مفرط هي الأخرى - فطلقته؛ إذ رأته لا يبقي على شيء ينفع أولاده ساعة الشدة، وكأنها رأت أن يرعوي بعد فراقها، فيحفظ لأطفاله ما يصون وجوههم، وهم سادة أبناء سيد، ثم قارنته بسواه فآثرت الرجوع إليه.

قال أبو الحسن: أريد إيضاح ما قلت، فقد لا يغني الإجمال.

فابتسم أبو سليمان وقال: سأتكلم وأتكلم وتسكت أنت يا أبا الحسن لتسمع.

قال أبو الحسن: وما عليك إذا أفدت وأمتعت.

فانطلق أبو سليمان يقول: لقد كانت ماوية زوج حاتم من أجمل النساء وأكرمهن، ولكنها ضاقت بإسراف حاتم إذ جاوز المعقول لديها، ونظرت إلى ابن

عمه مالك فوجدته ذا ثراء موفور، وقد أوهمها أنه جواد مقتصد، يجود بشيء ويدخر شيئًا، فاطمأنت إليه وقد خدعها حتى مالت إليه في ساعة غضب مع حاتم، حين أحضر جماعة من الضيفان ليأكلوا جميع ما في بيته وأولاده ينتظرون.

قال الراوي: وكان بعض النساء يُطلِّقن الرجال في الجاهلية، إذا اشترطن عليهم ذلك فقبلوه قبل الزواج، وكان طلاقهن أن يحولن أبواب بيوتهن، فإذا كان الباب بالمشرق جعلته إلى المغرب، فمتى وجد الزوج ما صُنع بالباب انصرف، وجاء حاتم فرأى ما صنعت ماوية فقال: هو شرطها ولا عليها، واتجه إلى مكان آخر مع أولاده.

وكشفت الأيام عن حقيقة مالك فلم يكن كريمًا يُنفق شيئًا لأضيافه ويقتصد شيئًا كما حدث عن نفسه، وفي ليلة شاتية جاء قوم فنزلوا على باب خباء ماوية، فقالت لجاريتها: اذهبي إلى مالك ليعجل أضيافه بما يبتغون، فذهبت الجارية بالرسالة فغضب مالك وقال لها: اذهبي إلى سيدتك وقولي لها: هذا الذي طلقت حاتمًا من أجله، وما لدى أحد عليَّ من حق، فرجعت الجارية لتنقل ما سمعت فصاحت: ويلك، اذهبي إذن لمنزل حاتم فقولي له إن أضيافك جاءوا وهم لا يعرفون أنك تركت منزلك، فأرسل إليهم بما يسعف، فانطلقت الجارية كما أمرت، فرأت حاتمًا سهران غير نائم فقالت: سيدتي تقرأ عليك السلام وتقول: إن أضيافك قد نزلوا عليك، فانهض بما يأكلون، فقال: نعم وأبي! وقام إلى ناقتين فسحبهما حتى أتى الخباء فذبحهما ونادى الناس فأكلوا.

قالت ماوية: أما كفَت ناقة يا حاتم؟ هذا الذي طلقتك فيه، ستترك أولادك وأولادي وليس لهم شيء! ثم بكت، فأوحت لحاتم بقصيدة رائعة يقول فيها:

أماوي إن يصبح صداي بقفرة من الأرض لا ماء لدي ولا خمر

ترى أن ما أنفقت لم يك ضرني وأن يدي مما بخلت به صفر

وهو منطق قد يُعارض من قوم، وقد يجد القبول من آخرين.

قال زيد بن رفاعة: ولكن عنّ لي سؤال بصدد حاتم: أفأجد لديكما ردًّا؟

قال أبو سليمان: قُل، فقد نجد.

فقال زيد: حاتم! لم يزد على أن ذبح النياق، فسار له هذا الذكر، وفي الناس اليوم من يجودون بأضعاف ما جاد به حاتم، ولا نسمع عنهم شيئًا، فلماذا؟

قال أبو سليمان: نسيت الفارق بين وضع ووضع! حاتم يجود بكل ما لديه، وإن قلَّ في ميزاننا الآن، فقد كان في بيئته المجدبة أعظم جواد يمنح، أما من يجودون بأضعاف أضعاف ما جاد به حاتم، ثم لا يمضي لهم ذكر، فإنهم مهما أنفقوا لا يجودون بمعشار ما لديهم، ويدخرون الجامد والسائل، وليس العطاء من بعض الكثير سماحة، ولكن السماحة أن تجود بما لديك على قلته! وهكذا فعل حاتم، فمَن مثله الآن؟

ونهض مبتسمًا، فنهض صاحباه، وهم يترقبون الليلة الثالثة.

❁❁❁

حلم أحنف

ثم جاءت الليلة الثالثة فبدأ زيد بن رفاعة الحديث بقوله:

كلامنا الليلة عن الأحنف بن قيس، وهو من أرفع الناس وأعلاهم كعبًا في رأيي؛ لأنه ساد قومه صغيرًا، سادهم وهو دميم ضئيل قميء، إذ يحكي عبد الملك ابن عمير عنه فيقول: ما رأينا صفة تذم في خلقة رجل إلَّا رأيناها في الأحنف، كان أصلع الرأس متراكم الأسنان مائل الذقن، ناتئ الوجنتين، ماحق العينين، خفيف العارضين، أحنف الرجلين، فكانت العين تقتحمه وتزدريه، ولكنه مع ذلك كله إذا تكلم أصاب، وإذا خطب أعجب، ومع هذا الباء النازل، فقد ساد قومه! ومَن الذي رشحه لهذه السيادة وهو أصغر من في وفد من بني تميم: إنه عمر بن الخطاب!

فردَّ أبو سليمان البستي فقال: فراسة عمر لا تخطئ، ونظرته لا تخيب، ففي أي مناسبة حظى الأحنف بتقدير الفاروق.

فتابع زيد قوله: تقدم وفد تميم للقاء عمر بالمدينة، فجعل كل رجل يتكلم عن حاجته الخاصة، ويسأل لنفسه، حتى لم يبق أحد غير الأحنف، وجاء دوره فلم يتكلم، فقال عمر: ولم لا تتكلم أيها الشاب؟ فنهض الأحنف يقول بسمت الشيخ وهدوء المحنك المتمرس: يا أمير المؤمنين، إن العرب قد نزلوا من حولنا بمساكن طيبة ذات ثمار وأنهار وأكنة وظلال، ونزلنا نحن في سبخة نشاشة ذات ملح وضيق، وإنما يأتينا الماء العذب من مثل حلق النعامة، فإذا حفرنا الماء كان موضعه بعيدًا، ولا يُدرَك دون إجهاد!

فتطلع عمر وكأنه عجب لهذا الذي شذَّ عن قومه، فسأل للناس عامة ولم يسأل لنفسه خاصة، تطلع عمر للأحنف الصغير وقال: ثم ماذا؟

قال: نريد أن يعم خيرك الفقراء، فتخفف عن ضعيفنا وتنصف قوينا وتتعاهد ثغورنا وتجهز بعثنا!

قال عمر: ثم ماذا؟ قال الأحنف: هذا كل ما أريد يا أمير المؤمنين، فقد انتهت المطالب ووقف الكلام.

فصاح الفاروق: أنت رئيس وفدك، وسيد قومك، قُم عن موضعك الذي أنت فيه وهلم إلى جانبي، فجلس الأحنف جوار أمير المؤمنين، وجعل يسأله عن نسبه فانتسب له، فتطلع الخليفة للقوم، وقال: هذا سيد بني تميم، هذا سيد بني تميم، فتمَّت السيادة، وما زال رئيسًا حتى مات!

قال أبو الحسن العوفي: ألم يستأ شيوخ القوم حين يجدون عمر يفضل عليهم جميعا شابًا صغيرًا، ويخصه بالثناء.

فقال أبو سليمان: القوم عقلاء وقد عرفوا أن عمر بن الخطاب يعطيهم درسًا يجب أن يتعلموه، فالسيد المُقدم هو الذي ينظر في أمور قومه، ولا يجعل جهده لنفسه وبيته، وقد قام الأحنف فتكلَّم عن البصرة وموقعها الشحيح في الماء والزاد والأرض، وطلب الغوث لأهل البصرة جميعًا، وحين سُئل عن مطلب شخصي؟ وكأن عمر كان يستدرجه ليعرف مطامحه، لم يسأل عن شيء لنفسه! رأى شيوخ القوم هذا ولمسوه فعرفوا أنهم جميعًا قد أخطئوا والأحنف هو الذي أصاب!

قال أبو الحسن: يُخيل إليَّ أن الأحنف منذ صغره يفكر في مجتمعه كثيرًا كما كان يزن من حوله من الناس وزنًا دقيقًا، يرى العمل الجيد فيؤثره ويحاول أن يحذوه، ويرى العمل السيء فيتجنبه وينكره، وبذلك علم نفسه بنفسه حتى بلغ ما بلغ!

فقال زيد بن رفاعة: هذا صحيح وقد أشار إلى ما يدل على ذلك في بعض أحاديثه، حيث سأله سائل عن سلوكه المطمئن وسمته الهادئ فقال: ما تعلمت الحلم إلَّا من قيس بن عاصم المنقري فقيل له: وكيف تمَّ ذلك يا أبا بحر؟ فقال الأحنف: لقد فُوجئ قيس بمن يسحب ولده مقتولًا أمامه، ثم يخبره أن القاتل ابن أخيه! فنهض الناس وساقوا إليه القاتل مكتوفًا ليقتص منه فقال في هدوء: كفى كفى! ثم اتجه إلى الفتى وقال في أسف: يا بني أنقصت عددك، وأوهيت ركنك، وفتت في عضدك، وأشمت عدوك، وأسأت إلي وإلى قومك جميعًا، وتساقت الدموع من عينه، ثم التفت إلى من حوله فقال خلوا سبيله، واحملوا إلى أم المقتول دية ولدها، فهي الآن حزينة صارخة، وانصرف الجميع عنه دون أن يحل حبوته!

قال أبو سليمان: مشهد لا يقدر عليه غير سيد مهيب، بعيد النظر واسع الإدراك! إن المصاب في الابن كارثة مروعة، ولو كان القاتل هو الابن والمقتول هو ابن الأخ لقلنا: إن شفقة الأب قد أدركت قيسًا فعفا عن نجله بدافع غريزي! ولكن الموقف على عكس ما نقول، فكيف تمت لقيس هذه السيطرة التامة على نوازعه الفطرية، وهي أقوى صراخًا وأعظم لفحًا من النيران؟ كيف، كيف؟

ثم قال أبو سليمان: وهذا ما فكَّر فيه الأحنف كثيرًا كثيرًا حتى ملأ نفسه، ويُخيل إليَّ أنه بإلهامه الفطري تابع قيسًا في جميع مواقفه، فرأى من أموره في أوقات الشدة ونوازل الخطوب ما أكسبه الحلم والصبر، ولعله رأى من إيثاره وتسامحه ما جعله ينسى نفسه، بل ما جعله يعتقد أن السيد هو الذي ينسى نفسه حين يسحّ الخير، ويتذكر من يدينون له بالطاعة، فيبسط شكواهم ويفصح عن خوالجهم، وهذا ما فعله حين طلب الفاروق منه أن يتكلم، بل هذا ما جعله سيد القوم في عين أمير المؤمنين! وليس الإيثار خلقًا سهل التنفيذ، بل لا يعتاده الإنسان

دون نزاع هائل بين غرائز الأنانية ودوافع المروءة، وقد ثارت هذه النوازع دون شك لدى قيس بن عاصم، والأحنف بن قيس وأمثالهما من ذوي السلوك الأمثل، ولكنهم انتصروا عليهما بقوة الإرادة وضبط النفس، ويا لهما من مطلب! لقد كان الأحنف ذات يوم يتصدر قومه في مجلس عام، فنهض شخص غريب عن تميم وقال: يا أحنف، لا أدري لم بلغت السيادة على هؤلاء ومشهدك الخَلقي لا يسر! فقال الأحنف في ابتسام: يا بني لقد بلغت السيادة بتركي ما أنت فيه، إذ كنت لا أدخل فيما لا يعنيني! وانصرف عن السائل ليتابع حديثه! أليس في حلم الأحنف عن الرجل المتهجم ما يدل على أنه كافح كثيرًا حتى صار التحلم لديه حلمًا، ومتى حلم فلن يستفزه سفيه، أو يثيره جهول، وكان أبو الحسن العوفي يطرق برأسه إلى الأرض وكأنه في شغل عن حديث صاحبيه، فقال له أبو سليمان: ما لك يا أبا الحسن؟

فقال أبو الحسن: ما لي؟ أنا معكما، ولست معكما، أنا معكما فيما تذكران من أمر الأحنف، ولكني لست معكما فيما اشتُهر عن حلمه الذي ضُرب به المثل، بل انتقلت إلى أمر خاص بالأحنف غير حديث الحلم! لقد رأيت أن الكتب المتداولة تسهب في الحديث عن الأحنف الحليم، وتنسى أعظم آثاره في التاريخ الإسلامي، أليس الأحنف فاتح خراسان وهازم يزدجرد ملك الفرس، لقد قام الأحنف في خراسان بما قام به المثنى بن حارثة وسعد بن أبي وقاص والنعمان ابن مقرن حيث انتصروا في مواقع حاسمة، وتم النصر للأحنف يوم يزدجرد حتى قضى على بقية آماله، فما عاد يُفكر في غير الفرار! هذا الإنجاز البطولي للأحنف القائد الشجاع لا يجوز أن يتضاءل جوار ما اشتهر عنه من الحلم، أينفس عليه المؤرخون أن يذكروه بطلًا!!

قال زيد: كلَّا، فلو نفس عليه المؤرخون بطولته ما اتصلت إلينا، ولما تحدثتُ عنها الآن! إنهم ذكروا بلاء الأحنف كما ذكروا بلاء المثنى وخالد والنعمان وسعد، ولكن الاشتهار حظ كحظ المال، فقد تدوّن عشرات الصحف عن قائد باسل ولا يذكره أحد، وقد تُسجل بضعة سطور عن قائد أقل شأنًا منه فيطير ذكره كل مطار.

قال أبو سليمان: دعنا يا يزيد من تحليلاتك هذه، إذ أريد أن أسمع من أبي الحسن بعض ما كان من أمر الأحنف في خراسان.

قال أبو الحسن العوفي: لمَّا تمَّ النصر للمسلمين في موقعة جلولاء فرّ يزدجرد هائمًا على وجهه، يحاول أن يلتقط أنفاسه، وعزَّ عليه أن يضيع ملكه هكذا؟ ففكر في مكاتبة ملوك الترك والصفد والصين، ليكونوا معه أمام المسلمين، منذرًا بأنهم سيواصلون الزحف حتى يحتلوا بلادهم، ومن خيرهم أن يعاجلوهم معه، فيكون الجمع صفًّا مرصوصًا أمام المسلمين، ولن يُهزموا حينئذ، كما كاتب يزدجرد فلول المنهزمين من أمثال الفيرزان والهرمزان ومن بقي من الأعاجم، يعدهم بالنصر بعد أن تنضم إليهم جيوش الترك والصفد وخراسان، وعلم الأحنف بتجمع الفرس بعد شتات، فعرف بذكائه أن معركة كبرى ستحين، فتقدم الأحنف إلى (مرو الروذ) حيث يقيم يزدجرد، ففرَّ هاربًا إلى بلخ، منتظرًا مَن سيعاونونه حين يأتون، ولكن الأحنف فاجأه، فدارت الدائرة عليه وهرب، ففُتحت خراسان، وكتب الأحنف لابن الخطاب بما تم من نصر، فسُرّ عمر كثيرًا وقال لمن حوله بالمدينة: إنه الأحنف سيد بني تميم، ثم كتب إلى الأحنف راجيًا أن يقتصر على ما تم وألا يجاوز النهر إلى ما وراءه كيلا يتشتت المسلمون!

ولكن جيوش الترك والصفد وفرغانة قد قدمت لنصرة يزدجرد، يقودها خاقان الأكبر، فاضطر الأحنف إلى أن يعبر النهر مخالفًا أمر عمر؛ إذ يرى الحاضر ما لا يرى الغائب، وأقام بجيشه ينتظر المعركة الفاصلة، وقد شاء له حزمه أن يخرج مُتنكرًا بالليل ليتنسم أخبار العدو، فمرَّ برجلين يقول أحدهما للآخر: لو أن الأمير أسندنا إلى هذا الجبل لكان حاميًا لنا أن نُؤتى من خلفنا، فسُرَّ الأحنف بما سمع وعجل فقاد القوم إلى مقدمة الجبل، ليكون حصنًا للمسلمين لا للفرس، وتلاقت جموع خاقان وجموع يزدجرد في حشد رهيب سد رحبة الأرض، فتخوف المسلمون ولكن الأحنف صاح بالقوم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]، فذهب ما استشعروه من الخوف، ثم دعا الترك للبراز، فتقدَّم الأحنف وصرع ثلاثة من أبطالهم على التوالي، فتحيَّر الترك وظنوا للمسلمين جيشًا كبيرًا فيما أمام النهر، وكلهم أبطال يستهينون بالموت، فصاح صائحهم: وعلامَ نقتل أنفسنا في بلاد غير بلادنا، وأدركهم التخاذل، وفوجئ خلقان بالتياث أمره، فعجل بالانسحاب، على حين قال جنود الفرس ليزدجرد: إنك أتيت بخاقان لبلادنا وهو خائن لا دين له، وإذا انتصر فسيكون شرًّا علينا من العرب، فاتركه وشأنه، واكتب للمسلمين طالبًا الصلح، فهُم أهل وفاء وذمة، وخير لنا أن نعاهدهم على وفائهم، كما ليس من الخير أن نعاهد خاقان فيغدر بنا، فلم يقبل يزدجرد أولًا، حتى تحارب الجيشان، ففرَّ يزدجرد إلى فرغانة مُنهزمًا، وأقبل أهل فارس على الأحنف فعاهدوه وصالحوه! وكان يومًا مشهودًا كيوم القادسية!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

قـال العـوفي: بـالله يـا قـوم أيجـوز أن ننسـى الأحنـف الشـجاع لنـذكر الأحنـف الحليم!

قال أبو سليمان: ما عهدتك مؤرخـًا يا صاحبي، وها نحن ذا اليوم نضيف إلى حسابك ما لم نكن نعلم!

فـردَّ أبـو الحسـن: إن تـاريخ الفتـوح الإسـلامية علـى طـرف الثمـام ممَّـن يريـد مذاكرته وأنا أفيء إلى التاريخ إذا أردت أن استروح من معضلات الحكمة والإلهام والمنطق، وغوامض الكون، وألغاز ما وراء الطبيعة من أسرار، فأكون كمَـن انتقـل من الصعود في جبل وعر إلى جنة ذات أشجار وثمار ونسيم!

قال زيد بين رفاعة: ولماذا لم تظهـر شـجاعة الأحنـف هـذه يـوم صـفين، وقـد كان في مقدمة جيش الإمام علي بن أبى طالب أمير المؤمنين.

فبادر أبو سليمان يقول: أنت تقيس شيئًا على شيء، والقياس بين المتشابهين لا بين المختلفين، لقد كان المسلمون في معارك الفتوح الإسلامية يحاربون أعـداء الإسـلام، ويُرحبـون بالاستشـهاد طمعًـا في مثوبـة الله، ولكـن المسـلمون منـذ يـوم الجمل ويوم صفين يقاتلون أنفسهم، فبأسهم بينهم شديد، والإمام علي كان حزينًا كل الحزن يوم صفين، مع أنـه كـان المنتصـر قبـل التحكـيم؛ لأنـه يعـرف أن القاتـل والمقتول كليهما مسلمان، وهو إنسان مثالي قوي الإيمان، ألجأته الظروف إلى ما لا يحب! وما أظن إلا أن الأحنف كان يحس بإحساسه ويشعر بشعوره، فشتَّان بين موقف وموقف!

قال زيد: حفظك الله يا أبا سليمان، فقد أوضحت الأمر على وجهه الصـحيح، ولكني أعلم أن عليًّا كرم الله وجهه قد خالف مشورة الأحنف يوم صفين فكيف تم هذا؟

قال أبو سليمان: لم يكن أمر الإمام في يده، فقد اختار عبد الله بن عباس فأبى عليه رهطه، ثم اختار الأشتر فزادوا إباء ونفورًا، وأبى الأشعث وشيعته إلَّا أبا موسى الأشعري، فلما رأى الأحنف بن قيس أن أبا موسى الأشعري لا يقوم لعمرو بن العاص ولا يُوزن به دهاء وحيلة تقدم إلى أمير المؤمنين وقال في إخلاص:

«يا أمير المؤمنين إنك قد رميت بحجر الأرض عمرو بن العاص، وإني عجمت أبا موسى وحلبت أشطره، فوجدته قليل الشفرة، قريب القعر، وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير في أكفهم، ثم يبتعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم، فإن أبيت أن تجعلني حكمًا فاجعلني ثانيًا أو ثالثًا، فإن عمرًا لا يعقد عقدة إلَّا حللتها، ولا يحل عقدة إلَّا عقدت له أحكم وأوثق».

قال الأحنف هذا ناصحًا وأبا الناس إلا أبا موسى؛ إذ رفضوا ابن عباس والأشتر والأحنف! فماذا يصنع الإمام علي وقومه قد خالفوه! وفرضوا عليه من لا يود، وقد اختار فلم يسمع إلى قوله سامع، إن الإمام لمعذور وإن الأحنف قد أخلص النصيحة، وحسبه هذا، ثم انقضى الأمر، واستُشهد علي فحزنت الدنيا عليه، وبويع معاوية، فرأى الأحنف أن ينضم إلى الجماعة مسالمًا، ووفد إلى معاوية على رأس وفد بني تميم، وكانت جراح معاوية لا تزال تنغر من الأحنف، فما لبث أن رآه حتى قال له: والله يا أحنف ما ذكرت يوم صفين إلَّا وجدت حزازة في قلبي لا تنقطع إلى يوم القيامة، وكأنه يهدد سيد تميم بما يقول، ولكن الأحنف الشجاع سدَّ عليه منافذ القول، إذ واجه التهديد بأشد منه فقال: يا معاوية، إن القلوب التي أبغضناك بها لم تزل في صدورنا وإن السيوف التي قاتلناك بها لم تزل في أغمادها لدينا، وإن تدن من الحرب فترًا، ندن منها شبرًا، وإن تمش إليها فإننا نهرول، ثم قام وخرج دون أن يستأذن الخليفة، وكانت أخت معاوية تستمع من

وراء الستار فقالت لأخيها: من هذا الذي يتهدد ويتوعد ثم يخرج غاضبًا دون أن يستأذن! فقال لها معاوية: اسكتي يا هذه، هذا الأحنف سيد بني تميم، إذا غضب غضب له مائة ألف من قومه، لا يدرون فيمَ غضب؟ فأنا لا أعاديه!

وواصل أبو سليمان يقول: ثم كان اهتمام معاوية ببيعة يزيد، وقد رغَّب الناس وأسكتهم بعطائه، وجمع رؤساء القبائل وفيهم من نافق وداهن، فقال: يا أمير المؤمنين لو لم تُولِّ يزيد أمر المسلمين لأضعتهم، فاتق الله فيهم، فقال معاوية للأحنف: وأنت يا أبا بحر ماذا تقول؟ فقال الأحنف: اسمع يا معاوية، إني أخاف الله إن كذبت وأخافكم إن صدقت! وتوقع الخليفة الداهية أن يكون لهذا الإيجاز الملجم تفصيل يكشف عن مخبئات لا يريدها معاوية، فأسرع يقول للأحنف: جزاك الله خيرًا.

وخرج الأحنف مغيظًا فقابل هذا المنافق الذي قال: إن أمور المسلمين ستضيع إن لم يكن أمير المؤمنين بعد معاوية يزيد. فنظر إليه نظرة كادت تسقطه خزيان على الأرض.. ثم تبع الأحنف ليقول في استخذاء: يا أبا بحر، اعف عني فأنا أعلم أن شر الناس في الدنيا جماعة معاوية ويزيد، ولكنهم ملكوا الرقاب بالسيوف، ووضعوا على الأموال أبوابًا ذات أقفال، فلا نصل إليها إلَّا بما يشتهون فنقول ما يرتضون! فتملَّك الأحنف حلمه وأعرض عنه دون أن يجابهه برد!

قال زيد بن رفاعة: إن سكوت الأحنف ردٌّ أي رد، فهو احتقار لسفيه كذوب، وازدراء لمنافق لجوج! وأرانا قد استمتعنا بسمر هذه الليلة استمتاعًا مفيدًا، فيا ترى لمن يكون السبق.

قال أبو سليمان ضاحكًا: للأحنف بن قيس لا لسواه!

❁❁❁

ذكاء إياس

ثم حانت الليلة الرابعة.

فقال أبو سليمان البستي: هل تظنون كل ما قيل عن ذكاء إياس حقًّا لا مرية فيه، مع أن طرائفه نُسبت إلى سواه؟

فرد عليه زيد بن رفاعة يقول: كل المشتهرين من النوابغ نُسب إليهم ما لم يقولوا، ولم يمنع ذلك المدخول أن يصح ما أُثر عنهم من مظاهر النبوغ، فنوادر أشعب وروايات الأصمعي وأشعار قيس المجنون وطرائف جحا قد زيد فيها كثيرًا، ولكن الأصل أن هؤلاء قد اشتهروا بما قالوه فعلًا، وجاءت الزيادة لتثبت لا لتنفي؛ لأن الذي نسب إليهم ما أضافه، علم أن ما نسبه من جنس ما قالوه، فإذا نُسيت زيادات إلى إياس تدل على ذكائه، فقد جاءت هذه الزيادة لتثبت الذكاء لا لتنفيه، لقد اشتهر إياس بفراسته النادرة التي شاع أمرها، حتى علم بها عمر بن عبد العزيز في دمشق، فآثر أن يوليه القضاء ليفصل بين الناس بما لديه من نبوغ! ولتولية إياس قضاء البصرة قصة تروى.

قال أبو الحسن العوفي: ويلي، لم أعرف هذه القصة بعد.

فقال زيد بن رفاعة: إن عمر بن عبد العزيز قد جاءه اختلال القضاء بالبصرة، فطفق يُفكر فيمَن يقيم الأحكام على وجهها الصحيح، ثم كتب إلى نائبه بالعراق عدي بن أرطاة يقول له: يا عدي لقد شغلني أمر القضاء بالبصرة، وما ذاع من اختلال أمره، فإذا أصبحت فادع إليك إياس بن معاوية المزني والقاسم بن ربيعة الحارثي، لتختار منهما من يلي الأمر، فنهض عدي بما أشار به عمر، وجمع

الرجلين. فجعل كل منهما يتنحى معتذرًا، ويرى أن صاحبه أولى منه، حتى ضاق عدي وقال: لن تخرجا من هنا حتى تتفقا على أحدكما، فأدرك إياسًا ذكاؤه، وقال: أيها الأمير دعني ودع صاحبي واسأل عنا معًا فقيهيّ العراق: الحسن البصري ومحمد بن سيرين فإذا اختارا أحدنا فلن يتأخر!

فأدرك القاسم ما يعنيه إياس، وقال: أيه الأمير، إن الحسن البصري وابن سيرين يعرفانني بالعيان ولا يعرفان إياسًا إلَّا بالسماع، وأنا وهما أصدقاء، وقد تأكد إياس من أنهما سيختارانني لمعرفتهما بي عن مخالطة، فبربك لا تسألهما عني، ووالله الذي لا إله إلا هو إن إياسًا أعلم مني وأفقه، فإن كنت كاذبًا في الذي حلفت فما يجوز لكاذب أن يتولى القضاء، وإن كنت صادقًا فقد وجب أن يتولى القضاء، إذ يفضلني ولا أفضله.

وهنا انبرى إياس يقول: أيها الأمير إنك جئت برجل ودعوته للقضاء ومن جعل قاضيًا فقد ذبح نفسه بغير سكين، فأبعد نفسه بيمين، سيستغفر الله عنها حين يخرج وأقع أنا في الحرج وحدي.

فقال عدي بن أرطاة: لقد ظهر الحق يا إياس من قولك؛ لأن الذي يفهم هذا الفهم الذكي وقاد الذكاء ولا معدل عنك، فانهض إلى عملك بأمر أمير المؤمنين!

قال أبو سليمان البستي: لقد كان ذكاء إياس متعارفًا بدمشق قبل أن يلي عمر ابن عبد العزيز إمارة المؤمنين، فقد زار دمشق وهو غلام يافع في إمارة عبد الملك ابن مروان، وشاعت عنه نادرة تعجب الناس لها إذ استطاع أن يسكت قاضي دمشق في نقاش ذائع!

قال أبو الحسن العوفي: سأسأل عن هذه القصة كما سألت عن الأولى.

فقال البستي: لقد ورد إياس دمشق وهو غلام صغير، فاختلف مع بعض الناس في حق من الحقوق يلزمه، وطال اللجاج بينهما، فتحاكما إلى القاضي، فأخذ

إياس يرفع صوته في ثقة، فقال له القاضي: تأدَّب يا غلام ولا ترفع صوتك فإن خصمك رجل كبير!

فأسرع إياس يقول: إذا كان خصمي كبيرًا فإن الحق أكبر منه وأجل.

فصاح القاضي غاضبًا: اسكت ولا تتكلم.

فقال إياس: ومَن ينطق بحقي إذا سكت أيها القاضي؟

فرد القاضي منفعلًا: ما أراك تقول حقًّا منذ دخلت، فلا تنبس ببنت شفة!

فقال إياس: لا إله إلا الله وحده لا شريك له! أهذه الجملة حق أم باطل، هاأنذا أنطق بالحق!

فهدأ القاضي ونظر إلى إياس مبتسمًا وقال حق وربي! وانقطع ليترك إياسًا يفضي بحجته كما يريد.

قال زيد بن رفاعة: إذا اقتنع القاضي بمنطق إياس، فإني لم أقتنع لأن إياسًا خلط شيئًا بشيء، إن الرجل حين قال له: لم تنطق بحق منذ دخلت، يريد النطق في القضية المعروضة لا غيرها، أما قول إياس: لا إله إلا الله، فهو حق جاء في غير موضعه، فلا استشهاد به، وهي مغالطة يجيدها الأذكياء، وتفاجأ الناس لحظات، ولكن عند التأمل تذهب الفجاءة، ويظهر البطلان.

قال البستي: هو ما تقول، ولسنا الآن نستدل على صواب إياس أو خطئه، ولكننا نقول إن قوة جدله قد اشتهرت في دمشق وهو غلام، كما اتفق أنه جادل عبد الملك بن مروان فأسكته!

قال زيد: وكيف كان ذلك؟

فأجاب البستي: لقد زار عبد الملك البصرة ودخل الجامع فرأى نفرًا من القراء ذوي اللحى البيضاء يتقدمهم فتى يافع هو إياس، فجعل يقرأ وهم ينصتون

فقال عبد الملك: أفّ لأصحاب اللحى، أما فيهم شيخ يقرأ القوم، حتى يتقدمهم هذا الغلام، ثم اتجه إلى إياس فسأله: كم سنك يا فتى؟

فقال إياس: سني كسن أسامة بن زيد حين ولَّاه رسول الله ﷺ جيشًا فيه عمر ابن الخطاب وأبو بكر وغيرهما من رؤوس الصحابة.

فقال عبد الملك: استمر يا فتى وتقدم القوم فأنت ذكي ملهم.

وهنا قال زيد بن رفاعة: إن نشأة إياس في بيت والد محدث جليل هو معاوية ابن قرة المزني قد نمَّت مداركه وأيقظت مواهبه، وقد تتلمذ بالبصرة على الحسن البصري وابن سيرين، فلا يُستبعد بعد ذلك أن يناقش بالحجة، ويُفحم خصمه بالدليل، وقد ظهرت بواكير من مواهبه في طفولته؛ إذ ناقش أباه في تفضيل أخيه عليه، إذ إن إياسًا نشأ ضئيل الحجم، دميم الطلعة، على حين كان أخوه مبسوط القامة وسيم المنظر، فكان معاوية يعهد للأخ بأعمال كثيرة تدل على تقديره إياه، ولحظ إياس ذلك فقال لوالده: يا أبت إن مثل أخي ومثلي كما تشهد فرخ الحمام وفروج الدجاجة، فأخي نشأ كالفروج كاسيًا كامل الريش آكلًا بنفسه، ولكنه بعد حين يتراءى نقصه فيُذبح، أما أنا فكفرخ الحمام ينشأ عاجزًا لا يقدر على الحركة، مسلوب الريش ثم يقوى بعد ذلك، فإذا طار اهتم صاحبه وجعله يحمل الرسائل إلى المكان البعيد، ويظل مكرمًا حتى يموت، فيبكي عليه صاحبه.

قال والده وقد تأثر بما قال الصبي: ستكون في مستقبلك أحسن منك الآن، ولا عبرة بضآلة الجسم ولا بدمامة الوجه، وأنا ما أكلف أخاك وأتركك إلَّا إشفاقًا عليك وأنت ضئيل نحيل.

فقال إياس: أعلم هذا وإنها لملاحظة فحسب.

وواصل زيد بن رفاعة حديثه قائلًا: إن شعور إياس بضآلة قيمته جوار أخيه كان بركة عليه، فقد دفعه للجد في التحصيل، وأورثه يقظة وانتباهًا يعوض بهما ما

فاته من القوة والوسامة، وما زال يجد ويبحث حتى تفتحت مداركه كما يتفتح البرعم عن زهرة ناضرة ذات عبق فواح ومرأى جميل.

وهنا قال أبو سليمان البستي: إن بديهة إياس موهوبة لا مكسوبة، وهي فضل الله الذي يمنحه مَن يؤثره من عباده، تلك البديهة ترتكز على فطنة داعية، وصاحب الفطنة يُدرك خبايا البشر ويلم بنقائص النفس البشرية، عارفًا أنها تدبر الشر في خفاء، وتحاول أن تتبرأ منه في مجال القضاء، وهنا يستطيع القاضي اللبق من أمثال إياس أن يكشف هذه الغوامض المستترة من الغدر والكذب والجحود لدى ضعاف النفوس بأيسر احتيال، وأضرب المثل بهذه القصة:

استودع رجلٌ صاحبه مالًا يحتفظ به حتى يؤوب من سفره، ثم تمَّت الرحلة وعاد صاحب المال يُطالب صاحبه بما استودع، فأنكر وجحد حتى أيأسه، فأتى القاضي إياسًا ليشكو إليه ما حلَّ به، وكان إياس على صلة بالصاحب الخائن، فاحتال بدهائه لينقذ وديعة الرجل، حين اهتدى إلى مكيدة تُعيد المال، فأقبل يسأل صاحب الشكوى: هل علم صاحبك أنك أتيتني؟ فقال: لا، قال إياس: أو نازعته أمام أحد، فقال: لا، قال إياس وإذن فانصرف، واكتم أمرك عن الناس جميعًا، وجئني بعد يومين.

فمضى الرجل متفائلًا، أما إياس فقد أرسل للصاحب الخائن وقابله ببِشر وملاطفة، وقال له: لدي مال كثير أريد أن أخفيه عن العيون، فهل لديك مكان حصين، قال الرجل: نعم، فقال إياس: هذا سِرٌّ بيننا فلا تُطلع أحدًا عليه، وحصِّن منزلك وتعال إليَّ بعد يومين، ومعك من يحملان المال دون أن تخبرهما!!

ثم جاء صاحب الوديعة فقال له إياس: انطلق إلى صاحبك فاطلب مالك فإن أعطاك فذاك وإن جحدك فقُل له: سأذهب إلى القاضي إياس الآن لأشكوك!

فذهب الرجل إلى صاحبه قائلًا: هات المال فقد ضاق صبري، وإلَّا انطلقت إلى القاضي فأخبرته بأمري معك ليحكم بيننا، فدفع إليه ما طلب دون تأخير، ونهض الرجل إلى القاضي فأخبره بما كان، فابتسم إياس مُنشرحًا وقال: هو ما توقعت.

ثم جاء المستودع عنده ومعه من يحملان مال القاضي كما اتفق معه، فقابله إياس بغضب وصاح في وجهه: أأعطيت المال الذي أردت أن تسلبه من صاحبك، طامعًا فيما هو أكثر، لقد افتضحت يا عدو الله، فلا أرى وجهك بعد الآن، وسأُسقط شهادتك إذ لست من الأمناء!

هذه واحدة.

قال أبو الحسن العوفي: وهل هناك ثانية؟

فقال أبو سليمان: وثالثة ورابعة، إلى ما لا يُعد، ولكني أجتزئ بقصة مماثلة، ثم اعتدل في جلسته وتطلَّع لصاحبه قائلًا:

تقاضى رجلان عند إياس فادَّعى أحدهما أنه أودع صاحبه مالًا، فجحده فقال إياس مخاطبًا من أنكر المال: ماذا ترى؟

فقال: إن كانت لصاحبي بينة فليأت بها، وإلَّا، فليس له عليَّ غير اليمين.

ففكَّر إياس قليلًا ثم توجه إلى المودع فسأله: أتعرف المكان الذي أودعت فيه مالك لدى صاحبك؟ قال: نعم، قال: هلم فاذهب إليه، ثم قال للآخر: اجلس إلى أن يجئ صاحبك، فقد يعثر على ماله هناك، وينتهي الأمر دون شقاق!

ثم تحوَّل إياس إلى نظر القضايا المتوالية، وهو ينظر إلى الرجل ليتفرَّس في ملامحه، حتى إذا مضى بعض الوقت قال له في بشاشة: أتقدر أن صاحبك قد بلغ الموضع الآن؟

فقال الرجل دون تفكير: لم يصل بعد فالمكان بعيد.

فصاح إياس: يا خائن تجحد المال وتعرف المكان الذي أخذته فيه، ستُحبس في السجن حتى ترد المال.

وجاء الرجل بعد أمد، فقال له: انتظر فقد قامت البيِّنة على هذا الخائن، وسينطلق مع الشرطي ليحضر المال سريعًا وإلَّا فالحبس الدائم، وخرج الغادر خزيان ليُحضر ما أنكر في مذلة وهوان.

قال زيد بن رفاعة موجهًا الحديث إلى أبي الحسن العوفي: لقد أتيناك اليوم عن إياس بما لم تكن تعلم، ولا أدري كيف غاب عنك حديث إياس، وأنت دارس منقب بحاث!

فابتسم أبو الحسن وقال ملاطفًا: لقد أفدت من أخبار إياس ما لا أعلم، وبقي أن أحدثكم عنه بما أعلم ممَّا لم يُقل الليلة.

قال البستي: أنت تجيد الحديث وسنُجيد الاستماع، فهيا!

فعجل العوفي يقول: أحفظ لإياس في مجلس القضاء طرفتين تدل على منطقه السديد وبرهانه المفحم.

كان أحد دهاقين الفرس يتعجَّب من تحريم المسكر، ويطلب من يناظره في أمره، فجيء به إلى إياس قبل أن يلي القضاء، فقال له: ما تقول في المسكر الذي ذاع بين الناس؟

قال إياس: هو حرام بالإجماع.

فقال الدهقان: وما وجه حرمته، وهو لا يزيد عن كونه تمرًا وماء غليا على النار، والتمر والماء من المباحات.

فقال إياس: لو أخذت ملء يدي من الماء وقذفتك به أفيوجعك الماء؟ فقال الدهقان: كلَّا.

فقال إياس: لو أخذت كفًّا من تراب فضربتك به أكان ممَّا يوجعك؟ فقال الدهقان: لا.

فقال إياس: ولو أخذت كفًّا من تبن وضربتك به أكان مما يوجعك؟ قال الدهقان: لا.

قال إياس: فلو أخذت التراب وخلطته بالتبن ومزجتهما بالماء ثم تركت ما امتزج في الشمس حتى صلب ويبس ثم ضربتك به، أكان مما يوجعك؟ قال الدهقان: يُوجع وقد يقتل.

فقال إياس: وهكذا شأن الخمر، حين يجتمع التمر والماء ويختمران فيسكران.

أما الطرفة الثانية: فقد كانت مع الصحابي الجليل أنس بن مالك ﷺ، إذ خرج المسلمون ينظرون إلى هلال رمضان، فتأملوا السماء كثيرًا فلم يجدوا شيئًا! غير أن أنس بن مالك جزم بأنه يرى الهلال، وهو يومئذ شيخ كبير قد قارب المائة.

فجاء إياس وتفرس في وجه أنس بن مالك محدقًا فإذا شعرة كبيرة في حاجبه، تدلت حتى غدت قبالة إنسان عينه.

فقال له في أدب: أتأذن لي أن أمسح وجهك الكبير؟ قال أنس: لا مانع، فمدَّ إياس يده إلى الشعرة فمسحها ثم سواها مع أخواتها في حاجب أنس، وقال له: انظر يا سيدي، أترى الهلال الآن؟

فحدَّق أنس رضي الله عنه قليلًا ثم قال: والله لا أرى شيئًا. قال إياس: كنت ترى الشعرة مدلاة من حاجبك فتوهمك أنها الهلال فحين زالت وضح اليقين!

على أن إياسًا ﷺ كان منصفًا، فقد تحدَّث عن نفسه فقال: ما غلبني أحد في مجلس القضاء سوى رجل واحد؛ إذ شهد أمامي في قضية بستان يتنازع عليه

خصمان فقال: هو لفلان، فأردت أن أمتحن شهادته فقلت له: كم عدد شجر البستان؟ فأطرق الشاهد قليلًا ثم سألني: منذ كم يحكم مولانا القاضي في هذا المجلس؟ قلت: منذ عدة سنوات، قال: وكم خشبة في سقف هذا المجلس؟ فبُهتُّ، لأني لم أكن أحصيتُ خشب السقف، وقلت: الحق معك، وأجزت شهادته!

قال زيد بن رفاعة: تعرف كل هذا يا أبا الحسن عن إياس وتدَّعي أنك لا تعرف شيئًا عنه! ليتنا مثلك يا رجل.

وتضاحك الجميع، وخفوا منصرفين.

❁❁❁

قاضي المأمون

كان ركب الحجيج يستقل إلى المدينة مستبشرًا بزيارة خاتم النبوة، وسيد المصلحين الهادين، حتى إذا جاء الربذة سمع صارخة تقول، أعينونا على دفن قاضي القضاة يحيى بن أكثم، ولم يكن يحيى مجهول المكانة في العالم الإسلامي، فقد طار اسمه مشرقًا مغربًا منذ ولي زمام الأمور في عهد المأمون وزيرًا وقاضيًا للقضاة، فأخذت الناس دهشه ملكت عليهم نفوسهم، ونزل الراكبون حائرين يتساءلون، وما ليحيى بن كثم والربذة! وكيف يحلها وليس معه غير جارية وابن؟ وأين بقية جاهه وماله، وقد قيل إن المأمون عزله لكثرة ما جمع من العقار والذهب؟ أين ذلك كله؟

قال قائل: هيَّا نساعد على المكرمة، ثم نتساءل.

وتهيأ القوم، فبحثوا عما يلزم، وعدوا المرقد الأخير، وقال بعضهم: نحن على استعداد أن نحمله إلى بغداد ليدفن مع ذويه، ولكن محمدًا ولد يحيى قال: لقد كان راجعًا إلى بغداد بعد أن لازم مكة دهرًا، إذ دعاه أمير المؤمنين المتوكل فلم يشأ أن يتلكأ، كيلا يظن به عدم الرضا والمروق، ولما أحس بوطأة المرض أوصى بأن يُدفن حيث جاءه الأجل، وقد أتاه اليقين في (الربذة) ليموت غريبًا! ثم تقاطرت الدموع من عينه.

ولكن بعض السامعين صاح به: لماذا تبكى يا محمد، إن أباك جار لأبي ذر الغفاري صاحب رسول الله، فقد نفاه عثمان بن عفان ﷺ إلى الربذة فمات غريبًا، ولم تكن معه غير جارية صغيرة، صاحت بالناس: هيَّا فادفنوا أبا ذر، فدُفن هنا.

أليس أبوك يرضى جوار أبي ذر؟

قال محمد: لقد هوَّنت ما بي! رحم الله أبا ذر، ورحم الله أبي.

وكأن شاغل الموت قد أذهل الناس عن مسيرهم، فصمموا أن يمكثوا بالربذة حتى تغيب الشمس، فالحر شديد، والوقت متسع، ولم يكن لهم حديث إلا سيرة يحيى بن أكثم قاضي القضاة ببغداد، إذ طلبوا من محمد ولده أن يقص عليهم ما كان من شأنه، فغلبته الدموع ولم يقل شيئًا، فانبرى كهلان وقوران يخففان عن النجل المفجوع مصابه، ويقولان له: نحن أدرى بمواقف أبيك منك، وسيسمع القوم ما يرضيك!

قال الجميع: إذن فتحدثا؛ لأن الذكرى عزاء، وفى حياة يحيى عبرة للمعتبرين.

قال أحدهما، واسمه نصر بن عمرو: إن بعض المغرضين من المعتزلة قد شوهوا سيرة قاضي القضاة عن عمد، فقد كان السني الأوحد في بلاط المأمون يكافح مثل ثمامة بن الأشرس، وأحمد بن أبي دؤاد، ومن عرف رغبة المأمون في نصرة الاعتزال، فآثر رضاه، وتحمس لكل ما يحب، وإن جلب الفرقة وعاد بالنكال.

لقد قال القوم بخلق القرآن، وماتت أرواح، وضُربت جلود، وسُجن شيوخ وشباب، وتعرَّض الفقهاء من أهل السنه لامتحان رهيب، وما خبر الإمام أحمد ابن حنبل ببعيد! وكان من المنتظر أن يداري يحيى بن أكثم بعض آرائه كيلا تعصف به العاصفة في محنة قضت على الحرية، ونشرت أفظع ضروب الاضطهاد، ولكنه أصر على رأى الجماعة من فريق ابن حنبل، وكافح مكايد المتملقين من الوصوليين، وما أكثرهم حين تشب الفتن، ويعم الاضطراب.

كافح الرجل وناضل، حتى ضاق به المأمون، فقرَّر عزله، ونفاه عن مقره، وأوصى خليفته المعتصم ألَّا يركن إليه في عمل، إذ نهب الأموال؟ أي أموال يا قوم؟

ثم أشاع المرجفون عنه فجأة أفظع ما يرمى به عالم فقيه قاض! ونحن نتساءل: أين كانت هذه التهم المنكرة! قبل محنة خلق القرآن، وكيف وكَّل إليه المأمون أمور الناس دينًا ودنيا وهو يعلم عنه ما تزلزل له الجبال؟ لعن الله المفترين.

ثم سكت نصر بن عمرو، وقال لصاحبه أنس بن جرير: لقد غلبني الضيق فأكمل أنت.

قال أنس وقد توجهت إليه الأنظار: والله لو لم يكن ليحيى بن أكثم رحمه الله يوم المتعة لكفاه ذلك اليوم مثوبة عند الله، لقد رأى المأمون وهو في طريقه إلى الشام أن يجيز نكاح المتعة، وهي مما حرم في الهدي النبوي الشريف، وخاف الفقهاء أن يعارضوا المأمون؛ إذ كان ينفرد برأيه في أكثر مما يعنّ له، لقد ألمَّ بعلوم متنوعة، وقرأ بعض صحائف المنطق والفلسفة ودارس أصحابها ففلج عليهم.

وهنا قال نصرو بن عمرو: يا أنس أتأذن لي في تعليق يسير، فقال: تفضَّل، فأخذ نصر يقول: لقد شاع لدى الناس أن المأمون يُجالس المتخصصين من العلماء، وتأتي المسائل الدقيقة فينتصر عليهم بما حذق من العلم، وقد قال أخي أنس بن جرير: إنه قرأ الفلسفة ودارس أصحابها وانتصر عليهم في مجال المناقشة والتحليل، ونحن نعرف أن كثيرًا من رجال الفلسفة والمنطق يتقربون إلى الرجل بالموافقة والثناء، فإذا قال بعض ما يعلمون أظهروا الإعجاب الزائد ليستولوا على قلبه، ويسمع ذلك من نفر من الحاشية فيعلنون أن المأمون هو الأوحد في كل فن، في الفقه والشريعة والتاريخ والحديث وعلوم اللسان، ثم في الفلسفة والمنطق، وأنا لا أُنكر أن المأمون قد سبق الخلفاء - والخلفاء وحدهم - في الاضطلاع ببعض مسائل العلم في فروعه المختلفة؛ إذ كان يأخذ من كل فن بطرف، ويجادل النحاة والفقهاء، ومدعي الفلسفة بما يعلم من هذه العلوم، يجادلهم فلا يرى سوى

الإذعان والإعجاب! أتظن أن المأمون يبلغ مبلغ أبي إسحاق النظام أو أبي الهذيل العلاف، أو ثمامة بن الأشرس في الفلسفة وعلم الكلام، إنه لا يعرف معشار ما عند أحد من هؤلاء، ولكنه يجتمع بهم ويناقش فيجاملون ويثنون، ومن هنا شاع عن الخليفة أنه أحد هؤلاء البارزين في شتى مناحي البحث العقلي! وقد رأيت ذات مرة أبا إسحاق النظام يجادل أبا الهذيل في المسجد الجامع ببغداد في مسألة واحدة ثلاث ساعات، دون أن يتراجع أحدهما ويُسلم لصاحبه، ولكل دليله الملزم، وبرهانه المفحم، أو لو كان مثل النظام ذا حرية مع المأمون، أفكان الخليفة يستمر في نقاشه دقائق معدودات، هذا يا أنس بن جرير تعليقي الموجز على قولك إنه دارس أصحاب الفلسفة والمنطق وفلج عليهم!

فابتسم أنس وقال: إنك تتفق معي في أنه ألمَّ ببعض المسائل في كثير من فروع العلم، ومن هذه الفروع نبذ من مسائل الفقه، وقد اتجه إلى إباحة نكاح المتعة، ونادى في الناس بذلك، فجزع أهل العلم وجلس يحيى بن أكثم مع صاحبيه، محمد بن منصور وأبي العيناء، يتحدثون في هذا الخطب الجلل، فقال يحيى ابن أكثم لهما: بكرا إليه فإن رأيتما للقول مجالًا فتكلما وإلَّا فانتظرا حتى أدخل، قالا: فدخلنا عليه وهو يستاك ويقول في غيظ: متعة كانت على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد أبي بكر، وأنا أنهى عنها؟ من أنت يا جعل (يريد عمر بن الخطاب) حتى تنهى عمَّا أحله رسول الله وأبو بكر، فأومأ أبو العيناء إلى صاحبه: أن انتظر ولا تتكلم، هذا رجل يقول في عمر (يا جعل)، فماذا يقول في أحدنا إذا كلمه؟

ثم جاء يحيى بن أكثم مُتغير الوجه فقال له المأمون: مالك هكذا على غير عادتك؟ قال يحيى: غم وهم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام، قال المأمون متعجبًا: وماذا حدث قال النداء بتحليل الزنا، قال المأمون في غضب: الزنا، قال:

نعم، المتعة زنا صريح، قال المأمون: وما دليلك؟ قال: قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ ﴾[1].

يا أمير المؤمنين، أزوجة المتعة مِلك يمين؟ قال: لا، قال يحيى: أهي الزوجة التي ترث وتُورَّث وتلحق الولد؟ قال: لا، قال يحيى: إذن فمَن تجاوز هاتين كان من العادين، وهذا الزهري روى عن عبد الله والحسن ابني محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: أمرني رسول الله أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها، بعد أن كان أمر بها، قال محمد بن منصور: فالتفت إلينا المأمون فسأل أمحفوظ هذا في حديث الزهري؟ قلنا: نعم يا أمير المؤمنين، ورواه جماعة منهم مالك بن أنس ﷺ، فقال المأمون: أستغفر الله، نادوا بتحريم المتعة من الآن!! هذا موفق ليحيى لا ينساه الله!

سمع محمد بن يحيى هذا الحديث فانزاح عن وجهه ما غمره من الحزن، وقال: الحمد لله الذي جعل سيرة أبي محفوظة معلومة، فقد كان يؤلمه في مرضه الأخير أن ينساه الناس، بل أن يتباعد عنه الناس إذا عرفوه؛ لأنه في رأيهم مغضوب عليه ومنفي من بغداد، وما تحمل هذا السفر الأخير إلَّا ليرجع لعارفيه في بغداد فيقول لهم: لست منفيًّا، وها قد عادت الأيام، ولكن الموت سقط عليه بالربذة وما عند الله أوفى.

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات (١-٧).

فردَّ نصر بن عمرو يقول: لا تخف يا محمد، إن سيرة أبيك لا تنسى، فإذا كان الخلفاء والوزراء يجدون مَن يدوِّن تاريخهم بالحق والباطل، فإن العلماء يجدون مَن يقص كلَّ كبيرة وصغيرة عنهم من تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم! لقد دُوِّنت سيرة سعيد بن المسيب ومالك وأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل وسفيان الثوري وعبد الله بن المبارك وابن شهاب الزهري وسفيان بن عيينة وأمثالهم بأكثر ممَّا كُتب عن خلفاء بني مروان وبني العباس، وهاأنذا وأنس وجرير نعلم من سيرة أبيك أكثر ممَّا تعلم.

فتبسَّم أنس ووجَّه الكلام لمحمد بن يحيى حين قال: لقد ذكر نصر اسمَيْ عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة، فذكرني بحادثين لهما مع أبيك، رحمهم الله جميعًا.

أما حادث ابن المبارك، فقد شاء جدك أن يروي أبوك عنه الحديث، وهو غلام لم يبلغ سن الحلم، فلما تمَّت الرواية عن عبد الله، صنع جدك حفلًا كبيرًا ملأه بالطعام والشراب والفاكهة، ودعا إليه كبار الفقهاء والمحدثين ليشهدوا حفل الختام لرواية أبيك عن ابن المبارك، وكأن جدك أراد أن يشتهر في الناس رواية ابنه للحديث على أحد الثقات الأثبات، ليذيع في الناس انتسابه للحديث وتلمذته لابن المبارك، وهي شرف قلَّ أن يتاح لغير المختارين الفهماء.

هذه واحدة، أما الأخرى، فقد كانت مع سفيان بن عيينة، إذ كان على فضله يضيق بأكثر الأسئلة حين تُوجه إليه حتى تُتعبه، فقال لتلاميذه ذات يوم ويحيى ابن أكثم معهم: أليس من الشقاء لمثلي أن أجالس صخرة بن سعيد الذي جالس أبا سعيد الخضري، وجالس عمرو بن دينار الذي جالس عبد الله بن عمر، وجالس الزهري الذي جالس أنس بن مالك، ومضى يستطرد في عد جماعة من المحدثين جالسوا صحابة رسول الله، فلمَّا أتمَّ حديثه عن هؤلاء قال: ثم تقضي الأيام على أن أجالسكم أنتم؟

فقال يحيى بن أكثم، وكان أصغر مَن بالمجلس: أتنصفني يا أبا محمد؟ قال سفيان: إن شاء الله تعالى، فتكلَّم بما تريد، فقال يحيى: والله لشقاء أصحاب رسول الله بك أشد من شقائك بنا! فأطرق سفيان، ثم نظر إلى تلاميذه نظرة طويلة أتبعها برواية قول الشاعر:

مُتْ بداء الصمت خير ... لك مِن داء الكلام
إنما العاقل مَن ... ألجم فاه بلجام
خلِّ جنبيك لرام ... وامض عنه بسلام

ثم قال أنس بن جرير: لا تخف يا محمد، فالتاريخ محفوظ مدروس.

ودنت الشمس للمغيب، فتهيَّأت القافلة للرحيل، وأصر القوم أن يستضيفوا معهم محمد بن يحيى وجاريته حتى يبلغا بغداد بعد زيارة المدينة، وما كان أشوق محمد إلى زيارة رسول الله، ثم الرجوع إلى موطنه دون مشقة، فهيَّأ الله له ما أراد.

سار الركبُ إلى طيته، وقد آثر أنس بن جرير ونصر بن عمرو أن يكون محمد ابن يحيى معهما حيث يسيران، أما الجارية فتأخذ موضعهما مع زوجتيهما، وقد أظهر الرجلان مِن كرم النفس وسماحة الخُلق ما جعل ابن يحيى يعد ذلك كرامة لأبيه، فيحمد الله أن زالت وحشته بمَن لقي من الكرام.

قال أنس لابن يحيى: أتعرف أي منزلة لأبيك كانت لأبيك لدى المأمون، قبل أن يسعى لدى الخليفة قرناء السوء، لقد تحدث ثمامة بن أشرس، ومثله لا يذكر الحديث جزافًا، بل يدقق وينتخل، بل ربما أخفى أكثر ممَّا أظهر، قال ثمامة: كان يحيى بن أكثم يماشي المأمون يومًا في بستان موسى، والشمس عن يسار يحيى، والمأمون في الظل، وقد وضع يده فوق عاتق يحيى مكرمًا إياه، فلمَّا عادا من حيث أقبلا، قال المأمون ليحيى: كانت الشمس عليك لأنك كنت عن يساري، وقد

نالت منك، فكن الآن حيث كنت، وأتحوَّل أنا إلى مكانك، فقال أبوك في بديهة حاضرة: والله يا أمير المؤمنين لو أمكنني أن أقيك هول المطلع يوم القيامة بنفسي لفعلت، فقال المأمون: لا والله، ما بد من أن تأخذ الشمس مني ما أخذت منك! فتحوَّل يحيى إلى الظل وسار المأمون في الشمس، وثمامة مندهش يتعجب!

قال محمد: لا أمان مع الأيام، فالمأمون الذي منع أبي حر الشمس، وتحمَّله دونه، هو الذي نفاه، وصادر ما لديه من مال وعقار لم يكونا من الكثرة بحيث يحسب أبي معهما من الأغنياء، والمأمون هو الذي حذَّر المعتصم من أبي في وصية قُرئت على الناس، وتداولتها الألسن دون نسيان!

وهنا قال أنس: لا عجب في كل ما قلت، فأنا - مثلًا - كانت معي زوجة عشت معها خمسة وعشرين عامًا، وكنت أعاملها كخادم لا كزوج، رحمة بها وإحسانًا، ثم كانت الخاتمة أن مردت عليَّ وطلبتْ الطلاق، فأجبت رغبتها غير غاضب لأني أعلم أن القلوب كالرمل في الصحراء تنتقل من مكان إلى مكان حين تهب الريح، وقد هبَّت ريح المأمون فعصفت بالمحبة والوداد.

قال الراوي: وواصل الركب مسيره، والحديث عن يحيى لم ينقطع، ولم أستمر معهم في المسير لأروي ما قيل.

❁❁❁

قاضي القضاة

جلس إبراهيم بن العباس الصولي شارد اللب، كاسف البال حين بلغه أن المتوكل على الله قد عزل أحمد بن أبي دؤاد عن قضاء المظالم، وهي أرفع رتبة في مجالس القضاء، وما كان حزنه المفاجئ إلَّا لما تذكَّره من أن القاضي الكبير كان ذا همم عالية يُضرب بها المثل في الناس، وأنه - إبراهيم بن العباس - قد هجاه هجاء فاحشًا دون أن يسلف ما يستأهل به الهجاء، إذ كان الصولي الشاعر مندفعًا إلى ثلب الرجل تحت تأثير صديقه محمد بن عبد الملك الزيات وزير الدولة الكبير، حيث كانت بين قاضي القضاة ووزير الدولة عداوة خطيرة، جعلت الناس يتحزبون بشأنهما، ففريق يناصر الوزير وفريق يناصر القاضي، وكان الشعر من أسلحة هذه العداوة، فشاء إبراهيم الصولي أن يرضي الوزير بهجاء عدوه!

ثم ماذا كسب الصولي من الوزير، إنه قلب له ظهر المجن، فضيَّق عليه في عمله وحاول أن يسجنه لأمور لا تستحق العقاب! مع أن ابن أبي دؤاد قد تلقى هجاء الصولي بنفس مترفعة، فما حاول أن يشعره أنه علم بما افتراه، بل كان يذكره بالخير في مجلسه، ويُثني على أدبه شعرًا ونثرًا، وكانت هذه الأنباء تصل إلى الصولي فتوخز قلبه وخزًا، وتجعله يستشعر مضيض الأسى على ما فرط من ذنبه! ثم ها هو ذا المتوكل على الله ينقم على أحمد بن أبي دؤاد فيعزله، ويحرمه من جاهه المديد وهو ظل البائسين يدفع عنهم سموم العيش، وموئل المضطهدين ينافح دونهم أمام ولي الأمر، وكم كشف من غم وبدَّد من ظلمات!

ظل إبراهيم الصولي يدور في مثل الخواطر مكتئبًا حزينًا، وهو بعد شاعر رقيق الإحساس، تمر به الخلجة اليسيرة فيستنبطها فاحصًا مؤولًا، وهو الآن لا يهدأ في مستقره بعد أن سمع عن ابن أبي دؤاد ما سمع، ليته يستطيع أن يشغل فكره عنه فيرتاح! إنه ليحاول ذلك مندفعًا إلى مسائل أخرى كانت تشغل باله، فما تمضي لحظة أو لحظات حتى يعود إلى حديث نفسه مع ابن أبي دؤاد، وهو حديث يذكره سالف جرمه، فأين المفر؟

لقد ترك مكانه متجهًا إلى منزل صديقه النديم أبي العيناء، وأبو العيناء أديب عالم طُبع على النادرة الفكهة والدعابة الضاحكة، وله خلال نوادره نقدات صائبة، ولذعات محرقة، يتحاشاها جلساؤه؛ لأنها تظهر في مظهر التورية ذات المعاني المتعددة، بحيث لا يستطيع أحد أن يحاسبه على نقد أو هجاء؛ لأن باب التأويل ممتد فسيح، وأبو العيناء من أصدقاء أحمد بن أبي دؤاد يبادله الإخلاص والود، ويفد على مجالسه دون انقطاع، وطبيعي أن يكون عزل القاضي مؤثرًا في نفسه أسوأ التأثير، فلا بد إذن من لقائه ليتحدث الصديقان عن شجونهما بما يخفف برح الألم، وقد يسلم إلى بعض العزاء.

فوجئ أبو العيناء بزيارة صاحبه على غير موعد، فاصطنع من بشاشة اللقاء، وأُنس المحضر ما لم يغب تصنعه عن الصولي، ثم انقطع الكلام فجأة فبادر الزائر يقول: أعلم أني شرفت بزيارتك على غير موعد، لأن شجونًا تعتلج في نفسي منذ سمعت عن القاضي -أعزه الله- ما وقع موقع الضجر من نفسي فرأيت أن أفد إليك لنتبادل الحديث.

قال أبو العيناء: عجيب أن أسمع هذا القول من الصولي؛ لأنه هجا القاضي أيام نفوذه وعالنه بالقطيعة دون موجب، ولئن كان محمد بن عبد الملك الزيات

خصم القاضي، وكل به الأذناب من محترفي الشعر فما خطبك أنت، ولك عقلك المتزن وفكرك الحر!؟

فزفر الصولي زفرة حارة وقال: وهل طرق علي البلاء إلَّا من ابن عبد الملك، إنه كان قبل أن يلي الوزارة من أعز أصدقائي، لا يقول شعرًا إلا عرضه علي، ولا يكتب كتابًا إلا كنت أول قارئ له، وكنت أصنع معه ما يصنع معي، وقد نقضي اليوم الأطول في مسامرة أدبية تدل على اتحاد الأهواء وتوافق الميول، فلما ولي الوزارة توهمت أن الدنيا قد أقبلت عليّ، وعددت نفسي الوزير لما أحسه من عميق الود بيني وبينه، ولكنه بدأ يتحرش بي فجأة، ثم أخذ يطعن في عملي الإداري ويُرسل من يناقشني الحساب العسير، وقد أبلغ الخليفة عنِّي ما كان مصدر الخطر المحقق، ولكنني استرضيته بعدة أبيات كانت محل تقدير المتوكل، فصفح وعفا، وما زال ابن الزيات يُرهقني بالمساءلة، وقد أرسلت في استعطافه مقطوعات شعرية جعل يرويها مستخفًّا مستهزئًا، حتى اسودت الدنيا في وجهي، وما ارتحت إلا بمصرعه على يد المتوكل، ويعلم الله ما بي من شماته، ولكن وفاته قد وضعت حدًّا لآلامي، وأنقذتني مما كان يحوك ويدبر دون أن أسلف له أدنى ذنب!

فابتسم أبو العيناء وقال: لقد أسلفت له أكبر ذنب دون أن تدري، فأنت شريكه في النبوغ الأدبي، وقد خاف على نفسه أن يمتد حبلك بالمتوكل عن طريقه فيعرف مكانك وفضلك، فتكون منافسه الأول لديه، ولا بد إذن من أن يجفوك، ويبدع عنك الغرائب، ويتهمك بالإهمال والقصور، حتى لا تصبح شيئًا لدى الخلافة! وبذلك يستريح!

قال الصولي: وأعظم ما كنت أبذله في استرضائه بلاء على نفسي، أن دفعني دفعًا إلى عداوة ابن أبي دؤاد، وابن أبي دؤاد يشمل الغرباء بفضله السابغ، كما يشمل الأقرباء، ويرعى حرمة العدو كأنه صديق وفيّ، فأين الأرض من السماء؟

فعضَّ أبو العيناء على شفته وقال: تحدثني عن أبي دؤاد كأني أجهل أمره، إن كتب الدنيا لا تتسع لتسجيل مروءات أحمد، فكم أنقذ أرواح، وكم أعان على معروف! لقد كان يقدِّر كل فاضل ويرعى حرمة النبوغ لدى النابغين، فهو على النقيض من ابن عبد الملك الذي كان يتمنى أن يكون وحده في الميدان! والله إن موقفه يوم أبى دلف العجلي من الأفشين ممَّا يكتب في صحيفته يوم الحساب! وقد أدركته بديهته السريعة فأنقذه من الموت وهو منه قاب قوس أو أدنى!

قال إبراهيم مهتمًّا: بربك حدثني عمَّا كان! فقد نُقل إليَّ الخبر مجملًا، وأنا أرتقب التفصيل.

قال أبو العيناء: أبو دلف العجلي ليس بمنكور الموضع من المروءة والشجاعة والكرم، وكان الأفشين أكبر قواد المعتصم يحسده لمكانته بين الناس، لأن الأفشين على شجاعته الفائقة وانتصاراته البارعة في حروب الخلافة، لم يكن ليطيق أن يُذكر أحد بجواره في مضمار القيادة، والأفشين تركي وأبو دلف عربي، وفي وهمه أن المعتصم مهما أنشأ حرسه الخاص من الأتراك لا ينسى أن قادة العرب عرب مثله، وأنهم إذا لم يكونوا من العلويين أو بني العباس فلا خطر منهم على الخلافة، فإذا عرفت مروءة أبي دلف واشتهرت على هذا النحو الواسع في آفاق العراق فإن شمسه لا بد أن تحجب سواه، هذا السر الحقيقي في اضطهاد الأفشين لأبي دلف، حين لفق عليه جريمة قتل لم تحدث، واستدعى شهودًا يشهدون زورًا بأن أبا دلف قاتل لا بد أن يجري عليه حكم القصاص، وطار النبأ

إلى القاضي أحمد ابن أبي دؤاد، وقد تمت محاكمة أبي دلف، وشهد الآثمون زورًا عليه، وصدر الحكم ولم يبق غير التنفيذ، ولئن ذهب ابن أبي دؤاد إلى المعتصم كي يُوقف تنفيذ الحكم فربما نفذ القضاء قبل أن يقابل الخليفة، فيُقتل أبو دلف ظلمًا دون جريرة.

هنا تجلت بديهة ابن أبي دؤاد عن حل سريع، إذ اصطحب معه شاهدين من رجال الدولة، وهجم على مجلس الأفشين، والمتهم بين السيف والنطع، فقال له: أنا رسول الخليفة المعتصم إليك، يأمرك ألا تمس أبا دلف بسوء، وها هو ذا حيّ أمام الشاهدين، فلا يمكنك أن تعتل بأن القضاء قد سبق، وأمير المؤمنين ينذرك أن رأسك برأسه، إن أقدمت على جرم ما، فالحذر الحذر، ثم توجه سريعًا إلى المعتصم، فقال له: معذرة يا أمير المؤمنين إذا قمت بحديث على لسانك لم تنطق به، فقد أعجلني الوقت عن المجيء إليك، وخفت أن يشفي الأفشين حقده من بطل عربي ذي مروءة ووجاهة بين الناس، وقد اتهمه ظالمًا، وأحضر شهود الزور وأعد الحكم بالقتل، فقمتُ بأداء رسالة عنك أرجو أن يكون ثوابها عند الله مدخرًا لديك.

فتبسَّم المعتصم فرحًا وقال له: ما فعلت غير الواجب يا أحمد فجزاك خيرًا، وأحضر من يدعو الأفشين لتوبيخه وتأنيبه، ونجا سيد العرب أبو دلف بما قام به سيد الناس أحمد بن أبي دؤاد؟

قال إبراهيم الصولي: لم يكن أحد يجرؤ على أن يؤدي رسالة عن الخليفة لم تصدر عنه غير أحمد بن أبي دؤاد، إذ وثق بمكانته منه!

فردَّ أبو العيناء: ليست المسألة ثقة في مكانته لدى الخليفة، إذ مَن يدري فلعلَّ المعتصم وهو بشر من الناس يغضب أن يُنسب إليه ما لم يأمر به، فيعاجل ابن أبي دؤاد

بالمكروه، وهذه ما لم يغب عن ابن أبي دؤاد، ولكنه اندفع وراء مروءته محتسبًا صنيعه عند الله، وقد قدم على المعتصم بين الرجاء والخوف، وهذا ما يُبرر شهامته التي لا حدَّ لها!

قال الصولي: هذا صحيح، ولكني أعرف أن الله قد ألهم المعتصم حب القاضي، فشجعه ذلك الحب على أن يذهب بمروءته فوق المستطاع.

سكت أبو العيناء قليلًا، فصاح به إبراهيم الصولي: لِمَ لَمْ تردّ؟

فقال في تؤدة: إذا كان ابن أبي دؤاد ذا حظوة لدى المعتصم يتكئ عليها في إسعاد البائسين، وإنقاذ الملهوفين، فإن الواثق لم يكن في أول عهده ينزل المنزلة التي احتلها عند المعتصم، ولكنه ثابر على نفع الناس بوساطته، حتى كاد يضجر منه، وعندي في ذلك شاهد لا يكذب!

قال الصولي: بربك أسعفني به.

فقال أبو العيناء: حضر ابن أبي دؤاد مستشفعًا فيمَن يُسمى بعبد الله اليماني، فأكثر من الاستعطاف مبدئًا ومعيدًا، والواثق يظهر التضجر، ولا يستجيب، ولو كان أحد غير ابن أبي دؤاد لراعى مقتضى الحال وأمسك، ولكن القاضي ألح وبالغ، فقال الواثق: يا أبا عبد الله، لقد أكثرت في غير طائل، فقال أحمد: إنه صديقي، فردَّ الواثق: وما قدر هذا اليماني حتى يكون صديقك، فقال أحمد: يا أمير المؤمنين، إنه شهرني عند الناس بالاستشفاع لديك، فإن لم أقم بواجب الشفاعة فقد ضاع قدري لدى من يعلم أنك تعطف على رجائي! وما أظنك ترضى بهواني لديك! فتبسَّم الواثق بعد عبوس!

كما أذكر أن أحمد بن أبي دؤاد دخل على الواثق مع نفر من الناس فعرف أنه جاء يسأل لهم ما يحتاجون، فصاح به: لقد أخليت بيوت المال بكثرة ما تطلب

يا أحمد، فقال: يا أمير المؤمنين نتائج ما أطلب متصلة بك، وذخائرها موصولة لك، وأنت المعطي والناس يمدحون والله يثيب! فتبسَّم الواثق وقال: تقول مثل هذا الكلام وأمنعك ما تريد، لا والله، وأمر، فشفع واستجيب!

ثم استدرك أبو العيناء يقول لصاحبه: لقد انتقلت بنا إلى الواثق قبل أن نذكر غررًا ممَّا نعلم من أمره مع المعتصم، لقد ذكرنا قصة أبي دلف يوم تعمد الأفشين قتله، ولا تقلّ عنهما قصة أحمد مع البطل الشيباني خالد بن يزيد.

فقال الصولي: يالله! خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني فارس العرب، وسيد بني شيبان، كان في حاجة إلى عون ابن أبي دؤاد.

فقال أبو العيناء: عجبًا! كأنك لا تعلم! ألا فلتسمع!

غضب المعتصم على خالد بن يزيد الشيباني وطلب حضوره من ولايته لمناقشته الحساب في أموال تصرف فيها خالد بدافع الكرم الموروث عن أبيه، وكان المعتصم قد استمع لوشايات كثيرة، ضاعفت من الأثر السيء في نفسه نحو البطل الشيباني، وأحسَّ أحمد بن أبي دؤاد بما ينتظر من الخطر الداهم، فتقدم إلى المعتصم شافعًا ملحفًا، فلم يجبه أمير المؤمنين مصرًّا على تنفيذ عقوبة صارمة تلحق ابن يزيد، فقام أحمد من مجلسه بين يدي الخليفة وجلس في آخر مكان حيث لا يليق بقاضي القضاة أن يجلس، فتوجَّه إليه المعتصم قائلًا: يا أبا عبد الله جلست في غير مجلسك المعتاد، فقال في أسف: ما ينبغي يا أمير المؤمنين أن أتقدم عن مكاني هذا لأنه مكان مَن لا يستطيع الشفاعة لدى أمير المؤمنين، قال المعتصم: وكيف؟ قال أحمد: سيزعم الناس بعد أن خابت شفاعتي أني أتقدم بين يديك دون استحقاق وأني لست ممن يستطيع أن يرجو فيُجاب، قال المعتصم: بل فارجع إلى مجلسك، فقال أحمد: شافعًا أو غير مشفع قال: بل تشفع إن شاء الله

فارتفع القاضي إلى مجلسه الأول، ثم قال للمعتصم: إن الناس لا يعلمون رضا أمير المؤمنين عن خالد بن يزيد حتى يخلع عليه، فأمر المعتصم فخلع عليه كسوة تقديرية، فقال أحمد: ولخالد وأصحابه، رواتب ستة أشهر لا بد أن يقبضوها، فإذا أمر بها أمير المؤمنين في هذا الوقت قامت مقام الصلة، قال المعتصم: قد أمرت بجميع الرواتب الآن، فخرج خالد من مجلس المعتصم وعليه الخلعة وبيده المال، وكان الناس ينتظرون خروجه إلى السجن مخفورًا، فتعجبوا مما رأوا، وصاح أحد أتباعه: الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب، فقال له: اسكت، فسيد العرب والله أحمد بن أبي دؤاد، ولا سيد لهم سواه.

قال إبراهيم: صه يا أبا العيناء، سيد العرب أمير المؤمنين، لا يسمعك أحد!

فردَّ أبو العيناء: مولانا أمير المؤمنين سيد العرب والعجم معًا، ولن يغضب أن أحد أتباعه سيد قومه إذ هو سيد السيد.

فصاح إبراهيم منصفًا: ليت لي بديهتك يا أبا العيناء التي تخرج بها من أعسر المآزق.

فقال صاحبه: أهذا مأزق يا أخي، إن الناس جميعًا يعلمون أن ابن أبي دؤاد المحامي الأول عن العرب في مجلس الخليفة، وما اغتاظ أعداء العرب إلَّا من سطوته الحازمة ومروءته النادرة، بل ما مدحه شاعر إلَّا وذكر فخر العرب بأحمد! ألم تسمع قول أبي تمام:

أخذت بأعضاء العريب وقد خوت ... عيون كليلات وذلَّت جماجم
فأضحوا لو استطاعوا لفرط محبة ... لقد علقت خوفًا عليك التمائم
ولو علم الشيخان أدّ ويعرب ... لسرت إذن تلك العظام الرمائم
تلاقى بك الحيان في كل محفل ... جليل، وعاشت في ذراك العمائم

قال الصولي: لقد جئت إلى زيارتك وكلي حب وتقدير لقاضي القضاة، وقد تطوح بنا الحديث في مآثره التي لا يمكن أن تقف عند مجلس واحد، ولكني أتذكر قول بشار: ومَن ذا الذي ترضى سجاياه كلها، أتذكره لأني أعرف أننا بشر، ولا كمال لإنسان!

فأجاب أبو العيناء: ماذا تعني يا أخي؟

فردَّ الصولي: أعني أن الكمال لله وحده، إذ لو كان ابن أبي دؤاد ممَّن ترضى جميع سجاياه ما قام مقام العسير في مشكلة خلق القرآن..

عضَّ أبو العيناء على شفته متألمًا وقال: هو ما تقول يا أخي، لقد اندفع الرجل إلى تأييد المأمون فكانت الكارثة.

قال الصولي: أخشى أن يكون قد اندفع إلى توجيه المأمون نحو الكارثة.

قال أبو العيناء: ولماذا تخشى، الحق حق، لقد شغف ابن أبي دؤاد بقضايا الاعتزال، وعدَّ نفسه نصيرًا لكل قول يسوقه المعتزلة، وله أن يعتنق ما يشاء.

فردَّ الصولي: له أن يعتنق ما يشاء متى اتضح له الدليل، ولكن ليس له أن يفرض على غيره ما لم يقم عليه دليل في منطقه، لأن لأهل السنة منطقًا غير منطق الاعتزال.

لم يُبد أبو العيناء اعتراضًا، ولكن سحابة الألم قد غشيت وجهه، فقال له الصولي: هل آلمتك في شيء؟

فقال أبو العيناء: لا والله، فأنا أعلم ما تقول قبل أن تقول، ولكني أعلم أن أحمد قد ندم على ما قام به من تعذيب قوم كرام، تمسَّكوا بما يرونه حقًّا وإذا كان المعتزلة يعطون لأنفسهم الحرية في أن يقولوا ما يشاءون، فإن من الواجب أن تكون هذه الحرية أيضًا لخصومهم كي يقولوا ما يشاءون، أما أن تكون الحرية

لفريق دون فريق، فهي التسلط والاضطهاد! رحم الله أحمد بن حنبل ورحم عشرات مثله قاسوا أبرح الآلام، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل ما يعتقدون! على أني أُحب أن نتجاوز هذا الموضوع الآن، فهو ممَّا يُحسب على القاضي، كما يحُسب على سواه!

قال الصولي: لديَّ اقتراح أن نزور القاضي في محنته، ونحاول التخفيف عنه غدًا إذا حان الأصيل!

فقال أبو العيناء: ولماذا ترجئ إلى الغد، قُم معي يا صاحبي الآن، وسنجده جلدًا على النوائب، صلبًا صلابة الجبال الراسيات!

❁❁❁

قحط وغلاء

-١-

شحّ النيلُ فلم يصل إلى مستواه المُنتظر، وجفَّت الزروع حين أعوزها الري، ونفقت آلاف الأرواح من البهائم، وانتشر بينها وباء كاد يقضي عليها جميعها، وارتفعت الأسعار ارتفاعًا مخيفًا، إذ جعل الناس يبحثون عن القمح والشعير والذرة فلا يكادون يعثرون على ما يمسك الرمق، وقد انطلق الأمراء من المماليك يقتحمون الدور وينهبون ما قد يوجد بها من فتات الطعام وبقايا الحيوان، بحجة أنهم يقدمون ما يجمعون إلى طوائف الشعب التي أنهكها الجوع، والحق أنهم يدَّخرون لأنفسهم ليبيعوا ما نُهب بأضعاف أضعاف مقداره، ورأى السلطان الغوري أن يجمع العلماء ورجال الحسبة ليتشاور فيما نزل من خطب كارث!

وقد نهض لتلبية دعوة السلطان أعيان الفقهاء وكبار التجار، وتقابل في الطريق إلى القصر السلطاني المؤرخان النابهان الشيخان عبد الباسط الحنفي وحسن الطولوني، فابتسم كل منهما في وجه صاحبه ابتسامة تنبئ عن مرارة لاذعة، ثم سارا معًا يتهامسان بما لم يستطيعا أن يجهرا به.

فقال عبد الباسط: عجبًا يجمعنا السلطان للتشاور فيما نزل من القحط في البلاد، وهو الذي جمع الحبوب، واحتكر الأخشاب والفواكه وحرَّم بيعها في الأسواق، ليندرج ثمنها إلى حسابه الخاص، مَن الذي يجرؤ أن يجابهه بذلك!

فقال حسن الطولوني: وليت الأمر قد اقتصر على السلطان، فإن أعوانه من أمراء المماليك يغصبون لأنفسهم أضعاف ما يقدِّمونه للسلطان وهم يجمعون

غرائر القمح الشعير ثم يملئون بها السفن لتذهب إلى الخارج بالثمن الباهظ، ونحن نتضور جوعًا دون أن نملك الكلام!

قال عبد الباسط: وماذا سنفعل في هذا الاجتماع؟

فردَّ الطولوني يقول: أنت أدرى، سيقف السلطان غاضبًا ويشتم التجار الذين يساعدون على الغلاء ويُعلن أنه لن يرحم أحدًا يخزن شيئًا، والتجار ساكتون لا يتكلمون والمحتسب يندد بهم!!

قال عبد الباسط: المحتسب كان الله في عوننا بإزائه، لقد فرحنا حين اختار الغوري قاضيًا من العلماء ليكون المحتسب العادل، بعد أن كانت طائفة الحسبة وقفًا على أمراء المماليك، ولكن الغوري قد عجم أعواد القضاء، فرأى الزيني بركات أصلح من يقوم على تنفيذ رغباته، فاختاره لا ليمنع الغلاء ويحاسب التجار بل ليبلغه عن شراذم المماليك الذين ينهبون القوت باسمه، ويبيعونه لجيوشهم حين يصدرونه إلى الخارج، وإذ ذاك يعدها الغوري فرصة مواتية للإيقاع بمَن يظنهم يتطلعون إلى منصبه، وقد صادر عدة أمراء ودفع بهم إلى السجن، وأعلن محاكمتهم في مجالس القضاء العلنية لأنهم ينهبون القوت، إذ علم أنهم يتآمرون عليه مع أمراء الشام، فرأى أن يبيدهم في محاكمة ظاهرة العدالة أمام الناس ثم يرمي بهم في السجون كي يأكلوا السم واحدًا بعد واحد! ويكون الموت بقضاء الله وقدره!

قال الطولوني: وهل يعرف المحتسب الفقيه - رجل الشرع والقضاء – هذه الأهوال؟

فابتسم عبد الباسط الحنفي وقال: أنت تعرف لماذا اختاره الغوري؟ كما تعلم أنه يسمر معه أكثر ليلات الأسبوع، ثم يخصه بمجلس منفرد! فهل ينفرد الغوري

ببركات ليسمع منه أصول العقيدة وفروع الفقه! إن السلطان لو اشتاق إلى مجلس علمي لأحضر كبار الشيوخ في مشهد عام، ليُقال إنه محب للعلم والعلماء! وقد تباعد عنه شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، واعتلَّ بالمرض وكبر السن في تباعده، وكنت أزور شيخ الإسلام فسألته عن احتجابه عن الناس! فقال: يضيق صدري ولا ينطلق لساني!

فقال الطولوني: كما ضاقت صدورنا جميعًا، وعلينا أن نسكت الآن لسانينا فلا ينطقا، فقد كثر همسنا والرقباء لا يحصون.

ثم دنا القصر وامتلأت ساحته بالوفود فهرع كل مدعو إلى مجلسه، وحضر السلطان في أبهته الحافلة، العمامة المزركشة بالذهب والجبة الواسعة المطرزة بأنفس المعادن واللحية المصبوغة المضمخة بالمسك، والسيف في يده استكمالًا للرهبة، فنهض الجميع وقوفًا وملامح الغوري تنطق بالغضب، حتى إذا تصدَّر المجلس ومن حوله حراسه تلمع سيوفهم بأرهب البريق أدار عينيه الواسعتين فيمَن يراهم، ثم سأل: هل تخلَّف أحد ممَّن دعوناه؟

فقال الحاجب الأول: لقد اعتذر شيخ الإسلام زكريا الأنصاري لمرضه، فابتسم الغوري وقال: ومتى سيرتاح الشيخ من مرضه الطويل؟ نسأل الله له الراحة لنرتاح نحن أيضًا.

ثم توجه إلى التجار يقول: الحبوب مكدسة والصوامع ممتلئة تحت السراديب ونحن نجوع! ولا نجد ما نأكل وكل يوم يموت المائة والمئتان والعلماء الكرام تصلهم هدايا التجار فيسكتون!

ثم علا صوته حين قال: لقد كان المحتسب من أمراء المماليك فجعلتم تصفونه بالنهب والسلب والمصادرة، وفيكم من تجرأ فقال: إنه يعمل لحساب

الغوري، ولم أشأ أن أعاقب هذا الوغد مع أني أعرفه وهو بينكم الآن، ولكني آثرت العفو الرحيم، ثم رأيت أن أكِل الحسبة إلى قاض من قضاة الشرع هو شيخكم الزيني بركات، فسار بينكم بما يرضي الله ورسوله، وبذل الجهد في مراقبة الأسعار ومنع الاحتكار، ثم جاءتني الأنباء أنكم تقولون إنه يدلس بأمر السلطان، فيا شيوخ العصر ويا تجار الجشع والنهب ماذا أصنع معكم، لا يرضيكم المحتسب الأمير ولا المحتسب الفقيه! أأبحث عن ملك من السماء!

فتقدم الزيني بركات إلى السلطان رافعًا إصبعه كي يأذن له في الحديث، وعرف الغوري ما يريد، فصاح: ماذا تقول يا شيخ بركات، وأنت متهم من الناس ما اتهم من قبلك أمراء المماليك! وهم أبرياء!

فقال الزيني بركات: إن العلماء وفَّقهم الله يُقدِّرون التبعة الملقاة على عواتقهم في هذه الأزمة الخانقة، وسيجتمعون بالتجار في مسجد سلطاننا الغوري عصر الغد، وسنبرم الأمر حين أبلغهم رغبتك الكريمة في أن يكون العالم ناصحًا مخلصًا، وأن يكون التاجر رحيمًا أمينًا، فإذا تكلَّم العالم واستمع التاجر وتعاون الاثنان على البر والتقوى فستنجلي الغمة بإذن الله!

قال السلطان: وإذا كان الأمر بأيدي العلماء والتجار فلماذا تأخروا عن الواجب حتى دعوت إلى هذا الاجتماع؟

فقال الزيني: كنا نتشاور يا مولاي لأنك تعلم أن منسوب قد انخفض هذا العام إلى ما لم نعهده من أقل المستويات، فالأمر ليس أمر التجار وحدهم ولكن أمر الأرض التي شحت ومنعت خيرها عن الناس! وقد جاءني أن أكثر الفلاحين قد هجروا قراهم حين أعوزهم القوت، وهاموا في البلاد يتسولون وممن؟ ممن يعتمد عليهم في لقمة الخبز وملعقة الأرز يا مولاي! وأنت تعلم أن هذه الأزمة

الشديدة لم تحصل من قبل على مد العصور في مصر منذ عهد الفراعنة إلى الآن فنحن أمام وضع خطير!!

سكت السلطان غاضبًا وجعل ينقل بصره في الجموع المتراصة أمامه ثم قال: لقد كفاني الزيني بركات ما كنت أريد أن أسمعه لكم من قارص القول وشديد الوعيد، وسأرقب اجتماع الغد في مسجدنا بالغورية، إذ تصلني أنباؤه عاجلًا دون إبطاء، وكم كنت أود أن أشارككم فيما ستبحثون، ولكن سأترك المجال فسيحًا للنقاش الحر، وقبل أن أغادر مكاني أعلن أن الأمر خطير، وأني مستعد بأن أضحي بالمئات والآلاف لتبقى الملايين! فهيَّا على بركة الله! ثم نهض السلطان ملتفًّا بحاشيته وقد سكتت الأفواه وخشعت الرؤوس.

-٢-

ما كاد الشيخان عبد الباسط بن خليل وحسن الطولوني يهمان بالانصراف حتى جاءهما رسول يدعوهما إلى الانتظار في حجرة الضيافة بالدور الأول للاجتماع مع المحتسب الزيني بركات، حسب إشارته، فنظر الرجلان مأخوذين، وواليا وجهيهما شطر حجرة الضيافة، وفي نفسيهما شكوك حول هذه الدعوة المفاجئة؛ إذ يعلمان أن العلاقة بينهما وبين المحتسب ليست على ما يرام، فلماذا اختارهما وحدهما للقاء؟

قال الطولوني: وقد جلس يدور بعينيه في فضاء الحجرة:

- هل فكَّرت يا عبد الباسط في أسباب هذه المقابلة العاجلة؟

- لم أجد سببًا يدعو لها، وبعد لحظات سيتضح الأمر، حين يجيء شيخنا المحتسبّ، وأنا أسمع خطوات تدنو فلعله هو!

ثم ما لبث القاضي الزيني أن دخل فنهض الشيخان للقائه، ولقد أحسَّ بما يدور في نفسيهما من هواجس فقال: دعوة حبيبة لا خوف منها!

فقال عبد الباسط: وممَّ نخاف أيها الشيخ؟

فردَّ الزيني: كثير من إخواننا العلماء يفزعون حين أدعوهم للقاء، وقد أردت لقاءكما الآن لنتناصح، كل منَّا ينصح أخاه!

قال الطولوني: النصيحة ضرورية حين تشتبه الأمور، فمرحبًا بها!

فأجاب الزيني: نمى إلى أنكما كنتما تتهامسان في حديث خطير، تردد فيه اسم السلطان!

فدُهش الرجلان، وبادر عبد الباسط يقول: نحن نُحب الخير للسلطان ولا نقول عنه إلَّا كل خير.

قال المحتسب: ولم كان التهامس إذا كان الحديث مديحًا في السلطان! إن الذي أعرفه أن للسلطان آذانًا راصدة تسمع دبيب النمل، وأخشى أن يصله عنكما ما يسيء! وأنا أخوكما، وما دعوتكما إلَّا للخير، فأفصحا.

قال عبد الباسط: أنت أهل الخير، وقاضي الشرع من قبل وما نكن لك إلَّا كل توقير فتأكَّد من ذلك أولًا!

فقال الزيني: قد تأكدت، ولذلك دعوتكما لأسمع رأيكما في اجتماع اليوم، وما خاطبت به السلطان!

قال الطولوني: كنت لبقًا دقيق المعنى فراعيت مقتضى الحال تمامًا وأحسنت إذ فوضت الأمر للتجار والعلماء في اجتماع الغد، ولكنك جاوزت حقائق التاريخ حين ذكرت أن هذه الأزمة الطاحنة لم يمر مثلها بالبلاد من قبل.

فصاح الزيني: هذا ما قاله السلطان الغوري لي عدة مرات، وقد عبس متذمرًا وهو يصيح: أأنا مصدر النحس حتى تُصاب البلاد في عهدي بهذه الأزمة فيكون وزرها على من بين الملوك على مدى التاريخ؟

فقال عبد الباسط: ولماذا لم تصحح له الوضع ليطمئن بعض الشيء، فلا يعرف أنه وحده مصدر النحس، لقد تعاقبت أزمات الغلاء والقحط في مصر على مرِّ العصور، وسجلتها صحائف التاريخ بما لم يغب عن مثلك!

فتطلع الزيني يقول: لقد طالعت كتب الفقه والأصول والتوحيد، ودرست علوم اللسان ولكني لم أقرأ صحف التاريخ، ولا أعلم شيئًا عما مضى من الأزمات! فليتكما تتحدثان ببعض ما كان!

قال الطولوني: لك أن تقرأ ما سنبعثه لك من أقوال السابقين لتقف على الخبر اليقين!

فقلَّب الزيني كفًّا بكفٍّ وقال: أَلِمثلي أن يفرغ للقراءة لحظة واحدة، فضلًا عن الساعات المتصلة ورقبتي مغلولة بما يناط بي من الأعباء، أريد منكما الآن عرضًا لبعض ما كان، كي أسارع بنقله إلى السلطان فأرفه عنه حين يعلم أنه ليس مصدرًا للنحس، وإنما هي سُنة الحياة، بالله ثم بالله إلا حدثتماني دون تأخير..

قال عبد الباسط: إن أخبار هذه الفواجع مسطورة في أكداس ما كتبه المؤرخون، ولكن شيخنا المقريزي رحمه الله قد خصَّ هذه النوائب بمؤلف لطيف سماه (إغاثة الأمة بكشف الغمة)!

قال الزيني: أسعفاني بذِكر أمثلة ممَّا قال.

فردَّ الطولوني معقبًا: لن نذكر الأمثلة فقط بل لا بد أن نذكر ما سجله المقريزي من أسباب هذه المحن؛ لأن معرفة الأسباب تُشير إلى مكمن الداء كما تشخص الدواء.

فقال الزيني: وقتي قصير، لذلك أرجو بعض الأمثلة وبعض الأسباب، ولعلي أدرك من هذه الأسباب ما يهدي إلى تجنب العثار! هيا يا شيخ عبد الباسط.

-٣-

قال الشيخ عبد الباسط: إن السبب المباشر لأكثر حالات القحط واشتعال الغلاء هو نقصان النيل عن معدله الطبيعي؛ لأن انخفاض الماء قد يبلغ مرحلة الجفاف فيتعذر على الزرَّاع أن يقوموا بسقي الأرض وريِّها، وإذن فلا نبات ولا زرع.

فردَّ الزيني بركات يقول: هذا صحيح لا شك فيه ولا حيلة للدولة في نضوب النيل، فلم يؤاخذنا العلماء على شيء لا نستطيع دفعه؟

فواصل عبد الباسط يقول: لم يغب عن المقريزي أن نقصان الماء خارج عن نطاق الدولة، ولكن يضيف إلى هذا السبب حكمه بأن مِن المستطاع أن تتجنب الدولة الحازمة كثيرًا من ويلات القحط، بأن يكون لديها القمح المدخر كل عام لتوقع نقص الماء، فإذا فاض النيل لم يضر المخزون شيئًا، بل يعمل على الرفاهية، وإذا لم يفض كان المخزون ما يعوض بعض النقص ولا أقول كله، كما يمكن أن تستورد الدولة الكثير من الزاد من البلاد المجاورة أو البعيدة، والسفن تأتي وتروح دون حائل، كما في وسع الدولة أن تواجه المحتكرين بكل شدة، كما فعل جوهر الصقلي حين دهمه الغلاء الفاحش لأول مقدمه إلى مصر، إذ وجه همه إلى ضبط السعر وسلَّط العذاب علنًا على المستغلين من الطحانين والخبازين، وأمر ألَّا تباع الغلال إلَّا في أمكنة محدودة؛ لتسهل المراقبة وتمتنع المزايدة، وأرسل عيونَه في الأسواق يراقبون حركات الأسعار ويُصدرون الحكم الصارم على المستغلين، فخفَّت حدة البلاء.

فقال الزيني: هذا إذا وجد القمح والشعير والأرز، ولكن ماذا نعمل إذا لم نحصل على شيء؟

فقال عبد الباسط: ذكر المقريزي أن الحاكم بأمر الله فوجئ في بعض السنوات حين نقص النيل عن منسوبه بامتناع التجار عن البيع مُحتجِّين بأنهم لا يجدون شيئًا يبيعونه، وقد علم أن طرقًا خفية يسلكها هؤلاء ليبيعوا المخزون بالثمن الباهظ، وقد اجتمع الجمهور حول قصره، وضجُّوا يصرخون من الجوع، فنهض الحاكم إلى السوق العام، وجمع التجار وقال: كلُّ من لم يحضر ما لديه من المخزون في مكانه السري فسأحرق داره بما فيها، ولأضربن رقاب التجار مهما تعللوا بالإفلاس، وأحضر السيوف والجلادين ففزع هؤلاء، وأخذوا يحضرون ما خزنوه، فامتلأ السوق بالغذاء ولم يترك الحاكم الأمر فوضى، بل فتح المحلات العامة وأقام عليها من يبيع لكل رجل قدر حاجة طعامه اليومي فحسب، ويأتي في اليوم الثاني ليأخذ ما يأكل مع أسرته، كيلا يحتكر الموسرون طعام أيام عدة في يوم واحد، فينفد الزاد.

سكت عبد الباسط وتطلَّع القاضي إلى الطولوني فقال: سمعت من الشيخ ما لديه، فماذا لديك؟

فقال الطولوني: نُحب أن نتصارح يا سيدي، فقد ذكر المقريزي من أسباب الغلاء ما لا نزال نشكو منه الآن، إذ أرجع العلة في القحط في بعض أمورها إلى جشع الملتزم، حيث يرفع قيمة الإيجار مغاليًا ومزايدًا حتى تبلغ قيمة الفدان الواحد عشرة أمثاله، وذلك ليرضي رؤساءه، ويجد الفلاح نفسه متحملًا ما لا يطيق، وعليه مع ذلك أن يقوم بنفقات الحرث والبذر والحصاد والدرس مع ما يفاجئه من مصادرة الماشية والدار وأثاث المنزل، ومَن الذي يصبر على هذا البلاء؟ لذلك هجر الفلاحون الأرض وهربوا من البلاد، وتركت مساحات شاسعة من زمام مصر خالية مهجورة تفتقد الزارع فلا تجده، فإذا كان نقصان النيل عاملًا من عوامل القحط فإن هروب الزارع عامل آخر.

قال الزيني: وإذا أخذنا هؤلاء الهاربين بالشدة كثر الهمس، ونُسب الظلم للملتزم والمحتسب والوزير والسلطان!

فعجل الطولوني يقول: الشدة في هذا المجال ظلم صريح، والعدل طريق الإصلاح، فعليكم أن تحددوا ريع الفدان تحديدًا معقولًا، يرضى الزارع بحيث يترك له ما يأكل، وما يُنفق في مرافق حياته، وإذ ذاك يُقبل على الزراعة راضيًا مخلصًا، أما أن ينهب الملتزم وينهب الأمير المالك وتنهب الدولة، فذلك هو الخراب.

فضحك الزيني وقال: كدت تقول: وينهب المحتسب!

فقال عبد الباسط: لقد دعوتنا للمصارحة، أفتضيق بها أيها القاضي، ولا أقول أيها المحتسب!

فزفر الزيني زفرة تدل على حسرة مستترة، وقال: أشهد الله أني أحسد زملائي القضاة الذين يؤدون حق الشرع في إحقاق الحق، عملًا بشريعة الله، وهم موضع التقدير من الرئيس والمرءوس، وقد ظننت حين تركت وظيفة القاضي إلى وظيفة المحتسب أني سأكون مطلق اليدين فيما أفعل، ولكن الأغلال قد طوَّق رقبتي ويدي وقدمي، فما أستطيع الفكاك! فما السبيل إلى أن أكون مُطلق القيد وأنتما تعلمان؟

ابتسم الشيخان فرحين وصاحا معًا: كدنا نتفق!

فقال القاضي: أفصحا فقد اشتبه السبيل أمامي.

قال الطولوني: الزم الحق ما استطعت، وللسلطان ثقة فيك، وأنت ذو حيلة، فإذا رأيتَ غضبه يكاد يشتعل فاحن رأسك للعاصفة وقم مضطرًّا بما يريد، أما غير السلطان من الأمراء فقف أمامهم موقف الصارم المحاسب، ولن تخشى منهم أية

أذاة، ما دام الغوري راضيًا عنك، بل إنهم سينكمشون أمامك خيفة من سخط السلطان!

فعقَّب عبد الباسط يقول: وهنا نكون قد سددنا أبوابًا كثيرة من أبواب الشر، ونترك باب السلطان لمن يقدر عليه! والله المستعان!

قال الزيني بركات: سبحان مَن يُغير النفوس، لقد طلبت لقاءكما وأنا ضائق بكما أشد الضيق، وكنت أظن أن اتفاقنا مستحيل، ولكن ما دار من حديثكما على سمعي قد رفع عن عيني الغشاء، وأنا في أعماقي أحمل ضمير القاضي وتقواه، وما زي المحتسب إلَّا طلاء زائف أرجو أن يريحني الله منه، ووالله لولا أنني أعرف غدر الغوري وعظيم كيده لبادرت بالاستعفاء، ولكنه - كعادته - سيُعلن الموافقة وما أكاد أخرج من مجلسه حتى أتعرَّض إلى الحبس أو المصادرة، وإذا وقف الأمر عندي فهي محنة تُحتمل، ولكنه يتعدى إلى أولادي ومن يلوذون بي! فالريح عاصفة وزورقي واهن ضعيف! على أنه لا بأس فقد تتبدل الحال.

قال عبد الباسط: نحن صديقاك وزميلاك وقد استرحنا للقائك كثيرًا، ولعل وقتك لا يسمح لنا أن نطيل.

فابتسم الزيني وقال: لن أتركككما حتى أسمع قصة السيدة التي اشترت قرصة الدقيق بألف دينار، فقد سمعتها قديمًا من شيخنا جلال الدين السيوطي.

فقال الطولوني: وما دمت تعرفها فما فائدة إعادتها!

فردَّ الزيني: إني أذكر القصة الآن مجملة فحسب، وأريد أن ألم بحوادثها مفصلة، فقد يكون في سردها في سردها الآن بعض ما يريح!

قال الطولوني: أما إذا أردت فإليك، إذ قرأتها أنا في كتاب المقريزي، وما أظن إلَّا أن شيخنا السيوطي قد رواها عنه أيضًا.

امتنع القوت ذات يوم فما عرف القوم له أحد طريقًا، وكانت سيدة من أرباب البيوتات ترى أولادها يبكون جوعًا فلا تعرف كيف تتصرف، وكان لديها عِقد قيمته ألف دينار، فأخذت تعرضه على مَن يقدم لها بعض الدقيق وكلٌّ يعتذر، إلى أن رحمها بعض التجار وأعطاها به كيسا من الدقيق، فلم تستطع أن تسير به خيفة من يهجم عليها من الناس فلا يترك لها شيئًا، وجعلت لها حاميًا شابًّا من أصحاب السطوة كي يدفع عنها إذا دُوهمت وهي تسير، ولكن الناس تكاثروا على صاحبها وجعلوا ينهبون الدقيق نهبًا، كلٌّ يحمل في يده ما يستطيع، وقد حملت هي الأخرى قبضة واحدة، فعجنتها قرصة، ثم اتجهت إلى قصر الخليفة المستنصر بالله، وقالت: يا أهل القاهرة، قرصتي هذه بألف دينار.

وتجمع الناس وتعالى الضجيج، فنظر المستنصر فسمع المرأة تصيح: اشكروا مولانا المستنصر، فقد عثرنا على القرصة بألف دينار! فتضايق الخليفة وانزعج، وبعث إلى الوالي، وأقسم أنه إذا لم يبذل جهده في إحضار المخزون وتفريقه على الناس مع خفض الأسعار فستُضرب رقبته؛ لأن هذه هي سياسته، فخرج الوالي خائفًا وفكَّر في أن يحضر جماعة من السجن حكم عليهم بالقتل، فيلبسهم ملابس التجار والخبازين والطحانين، ثم يعقد مجلسًا يحضر فيه كل من يشتغل بأمر القوت في القاهرة. وحين تمَّ ما أراد أخذ يعرض المسجون وعليه ثياب التاجر وعمامته الواسعة وطيلسانه الواسع، فإذا مثل بين يديه قال له: ويلك، أما كفاك أنك خُنت السلطان، واستوليت على مال الديوان، ثم اشتريت الغلال واحتكرتها ليغلو السعر أضعاف الأضعاف، اضربوا رقبته فينهض السياف بالأمر، ويجيء الثاني والثالث والرابع، حتى أيقن المجتمعون أن الدور سيأتي عليهم، فنهض الحاضرون فزعين وصاحوا: أيها الأمير سنُخرج كل ما لدينا وندير

الطواحين ونغمر الأسواق بالخبز ونرخص الأسعار. قال الأمير: لا أرضى حتى يكون الرطل من الخبز بدرهم واحد، قالوا: نعم، وظهر المخزون من السراديب فملأ الأسواق.

قال القاضي ضاحكًا: عندنا مجلس في الغد، أفنفعل هذا؟

فردَّ عبد الباسط: تهديد التجار ضروري، وسأخطب الجمعة إن قبلت، فأُعلن أن قتل المحتكر مباح! تاجرًا كان أو خبازًا، أو طحانًا.

فردَّ الزيني: وسأقرأ منشور الغوري الذي صدر منذ أيام بقتل المحتكرين ومن قامت عليه أدنى شبهة! ولعلنا نجد المخرج بعد ذلك، بتوفيق رب العالمين.

وتعانق الشيوخ، وخرجوا آملين.

❁❁❁

المحتويات

افتتاحية ٥
مقدمة ٧
ثلاث بِشارات ٩
زينب الأولى ١٩
خطيب الأنصار ٢٩
التائب المنيب ٣٧
هارب من نفسه ٤٥
نبوءة تتحقق ٥٥
إلى بيت المقدس ٦٣
خاتمه الهرمزان ٧٦
زينب الثانية ٨٧
خارجيان يتوبان ٩٩
العم الصريع ١١٣
أبو جعفر يحجّ ١٢٥
دولة الأدارسة ١٣٧
يزيد بن مزيد ١٥١
محنة البرامكة ١٦١

إقدام عمرو ١٧٣
سماحة حاتم ١٨١
حلم أحنف ١٨٩
ذكاء إياس ١٩٩
قاضي المأمون ٢٠٩
قاضي القضاة ٢١٧
قحط وغلاء ٢٢٧

❁❁❁

الأزهر الشريف

هيئة كبار العلماء